قصة حُب أسترالية

عبرت فوق دماء دمشقية

شادي غبرة

الكتاب: قصة حب أسترالية
عبرت فوق دماء دمشقية

المؤلف: شادي غبرة

رقم الإيداع: ١٤٢٧١ / ٢٠٢٣
الترقيم الدولي: 978-977-493-910-5
الطبعة: الأولى / ٢٠٢٣

الناشر
شمس للنشر والإعلام

ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)
www.shams-group.net
shams@shams-group.net

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لا يُسمح بطبع أو نشر أو تصوير أو تسجيل
أي جزء من هَذا الكتاب بأي وسيلة كانت
إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

شمس
للنشر والإعلام

قصة حُب أسترالية

عبرت فوق دماء دمشقية

رواية

شادي غبرة

إهـداء

إلى روح والدايَّ (أبي وأمي)

تغمَّدهما الله برحمته

وإلى كل من وقف بجانبي قلبا وروحًا.

شادي

البداية

- إحدى ضواحي مدينة «داريا» السورية

على طاولة المكتب الخشبية وُضِعتْ حِزمٌ من الأوراق والملفات والكُتب، ولكن المحامي «عبد الرحمن» لم يكن مُستاءً من كل تلك الفوضى الورقية، سوى من حزمة الورق التي تحتل زاوية الطاولة، والتي دوَّن على صفحتها الأولى بخطٍّ سيء:

(عدالة الكون- مذكرات أليكس بارتونس)

عادت إلى مُخيلتهِ صورة ذلك الرجل النحيل الذي يرتدي ملابس فضفاضة، والذي أتى إلى مكتبهِ حاملاً هذه الحزمة من الورق، طالبًا منه بلُغة عربية ثقيلة وبما يشبه الفرض، أن يصيغ مذكراته هذه ويحوِّلها إلى رواية ويستثمرها!

كان ردُّ عبد الرحمن واضحًا:

- أنا مُحامٍ ولستُ كاتبًا، لقد طرقتَ الباب الخطأ يا عم، ومن في هذه البلد سيشتري كُتبًا؟! فالناس تبحث عن الخُبزولا تجده، فما عساهم يفعلون بالكتب؟! هيا خُذْ أوراقك معك ودعنا نعمل.

إلا أن الرجل الذي عرَّفَ عن نفسه باسم «أليكس» لم يكترث لكلام عبد الرحمن، وقام بوضع حزمة الورق على زاوية الطاولة،

ونظر في عيني عبد الرحمن ثم أضاف:

- أنت مناسب تمامًا لهذا العمل الذي ترفضه.

ثم اِستدارَ تاركًا حزمة الأوراق خلفه، وغادر المكتب دون أن يستجيب لنداء عبد الرحمن ولا لنداء السكرتيرة التي أيَّدتْ رئيسها.

وها هي الحزمة الآن جاثمة على إحدى زوايا المكتب وتشغل حيزًا من نظره، فهو يراها كلما نقَّل نظره بين كُتبه وأوراقه وشاشة الكمبيوتر المضاءة، وقد عزم منذ أن غادر صاحبها أن يرميها في سلة المهملات بأقرب وقت. ولكن العنوان المكتوب بخط رديء للغاية (عدالة الكون - مذكراتي الشخصية) كوَّن لديه نوعًا من الفضول، وفي نهاية المطاف استجاب له، وأزاح الملفات والكُتب عن صدر مكتبهِ، ووضع حزمة الورق أمامه وبدأ بالقراءة، ولم يستطع أن يمنع نفسه من تعديل وتصحيح بعض الجُمل، وفي ذلك المساء بقي في مكتبه حتى طلع الفجر، مُنكبًّا على ما لم يكن يريد الالتفات إليه.

= من مذكرات أليكس عن شبابه =

• إحدى ضواحي مدينة «داروين» الأسترالية

– ما رأيك أن نُسمِّي طفلنا «تيمور» في حال كان الجنين صبيًا؟

وبينما أليكس يضع كف يده على بطن «جانيت» المكتنز وأمامه صحن من التفاح الأخضر؛ أجاب:

– ولماذا هذا الاسم بالتحديد؟

أحنتْ جانيت رأسها:

– أنتَ تعلم السبب، إنه اسم حبيبي السابق.

سحب أليكس يده عن بطنها ببطء ونظر إلى عينيها:

– ولماذا أنتِ مُحرجة؟ هل أنتِ من تصنعين عواطفك؟ وهل انكارها سيلغيها؟ أخبريني بكل شيء يجول بخاطركِ.

– سأُخبرك بصراحة، إن تيمور لا يغيب عن مخيلتي في هذه الأيام، فعندما أنام بجوارك لا أكفُّ عن تخيُّله هو، وعندما أُغمض عينيَّ وأضُمُّك؛ أراه هو، وأشعر بجسدهِ وأنفاسه.....

– تابعي أنا أفهمكِ جيدًا.

– وعندما تُقبِّلني أنساقُ إليك وأنفعل معك لأني أتخيله هو... أنا آسفة.

- لا تخجلي يا جانيت، فقد مرَّ زمنٌ على زواجنا، فلا يمكن أن تبقى مشاعرك تجاهي ثابتة، بل لابد أن تتغير ويُصيبها بعض الجمود، وعندها سيجد عقلك في تيمور مَهْرَبًا من هذه الرتابة والملل العاطفي، فلا تعطي الأمر أكثر من حجمه.

ثم نظر لعينيها وكأنه يتأمل الغروب:

- لا يهمني إن كنتِ تتخيلنه، ولا يهمني إن كُنتِ لا زلتِ تُحبينه، فما يشغلني هو أكثر أهمية من هذه الأمور، وهو سعادتكِ، فأنا لا أطمح لامتلاكك، بل إن ما أطمح إليه هو أهم من ذلك.

- وما هو؟

- هو أن أعيش معكِ بسعادة.

ثم رفع السكين عاليًا وقال:

- هذه هي النهاية يا جانيت، سنأكل أنا وأنتِ التفاحة المحرمة، وننتقل للعيش على الأرض في مدينة «داروين».

وبدأ يقطِّع التفاحة بفرح، وجانيت مبتسمة.

= من مذكرات أليكس عن طفولته =

أبقى أليكس تفاصيل حياته عن فترة الطفولة والمراهقة سِرًّا عن الجميع، بما فيهم زوجتهِ جانيت.

ففي تلك البلدة التي تقع في الإقليم الشمالي من أستراليا عمَّ كامل البلدة خبر ضياع طفل في الحادية عشر من عمره، وتعاطف الجميع مع هذا الخبر، وهرع الكثير من الأهالي لمساعدة الشرطة ووالديّ أليكس في البحث عنه في الأماكن المتوقعة، فبحثوا في الأزّقة والحدائق، وفي الغابة المجاورة، وفي الكهوف التي تنخر التلال... لكن دون جدوى، فلم يجدوا أي أثر للطفل.

وبعد عدة أيام عاد أليكس لوحدهِ إلى البلدة، وقضى فيها يومًا واحدًا، وبعدها فُقِدَ من جديد، ولم يسمع عنه الأهالي والجيران بعد ذلك، إلا عندما عاد مُجددًا وهو شاب ليدعو بعض الأهالي إلى زفافه من جانيت. ورفض أن يخبر أحدًا بتفاصيل غيبته. فوحده يعرف أين أمضى كل هذه الفترة.

= عبد الرحمن =

لم تكن المحاماة رغبة عبد الرحمن، بل هو كان رغبتها –على حدِّ تعبيرهِ–.

عبد الرحمن السمين مُمتلئ الجثة وصاحب الكرش الجذَّاب –على حد قوله– كان يملأ كُرسيًّا كبيرًا في القاعة المُخصَّصة للمحامين في قصر العدل، وهي قاعة كبيرة في الطابق الأول، قديمة ومتسخة وذات أثاث مهترئ، والآرائك الموزعة في تلك القاعة قديمة للغاية، وقد علَّق عبد الرحمن على ذلك:

– هذه الآرائك جلبها أول من أصبح مُحاميًا في هذه المدينة من مستودع منزلهِ.

فتبدو القاعة المتسخة وبها المحامون الذين يرتدون البذلات الرسمية وربطات العنق، ويجلسون على الآرائك القديمة المهترئة، ويدخنون وكأنه اجتماع لعصابة في مستودع لأحد المنازل.

ويبدو عبد الرحمن للناظر كرئيس لهذه العصابة، بسبب انجعائه على الكرسي وكرشه الكبير، وملأ جسده لكامل مساحة الكرسي، ونظرته الفاحصة للآخرين، واجتماع المحامين حوله، للاستماع إلى سلبياته. فعبد الرحمن خبير

بالأحاديث السلبية يحفظ الكثير من المصائب الفردية، والمصائب الجماعية والدولية، والتي يستحوذ بذكرها على عقول المحامين حوله، إضافة إلى تعليقاته التي تحمل نمط الكوميديا السوداء والتي يختتم بها سلبياته. حتى أن عناوين الكتب التي تملأ رفوف مكتبته غريبة، مثلاً: عشرة أيام هزت العام - الاغتيالات الكبرى - التاريخ الإجرامي للجنس البشري - موت ساعي بريد - جرائم النازية - كوارث القرن الماضي - مدينة الوحوش - تفاصيل اغتيال عبد الناصر... فمن يقرأ عناوين كتبه فقط، يُصاب بالاكتئاب لمدة ثلاثة أشهر.

فكان المحامون يلتفُّون حوله في هذه القاعة التي تُشبه المستودع، ليستمعوا إلى أحاديثه السلبية ويدخِّنون صانعين غيمة كبيرة من الدخان تملأ القاعة ولا تزعج سوى بعض المحاميات، وخصوصًا الجديدات منهن، فتبدأنَّ بتحريك نصيبهن منها يمينًا أو شمالاً دون جدوى.

والمحامون الآخرون يشاركونه أيضًا في ذكر السلبيات وانتقاد الفساد في دوائر الدولة وفي المحكمة؛ حتى أشدّهم فسادًا، وكان الصنف الأخير يُكثر من الانتقاد أكثر من غيره، وكان عبد الرحمن يُعقِّب على انتقادات المحامين الفاسدين بعبارة: (الانتقاد الذاتي أمر حضاري)، كإشارة مُبطّنة إلى وجوب إصلاح أنفسهم في البداية، وكانوا يهربون من هذا التلميح بالضحك، مما حدا بهم بمرور الوقت إلى الانفضاض من حوله وتجنُب الجلوس معه بسبب تعليقاته المبطنة تلك.

ولكن رغم انتقاد الجيدين والفاسدين، لم يكن ليتغير شيء في البلاد بفعل هذه الانتقادات.

وكان عبد الرحمن يُعلِّق على هذه الوضع الذي يشكو منه الناس أحوالهم ومع ذلك لا أحد من المسؤولين يتغير أو يُحاسَب، بكوميديته السوداء المعتادة، قائلاً: (القافلة تنبح والكلاب تسير).

= من مذكرات أليكس عن طفولته =

في اليوم الذي فُقِدَ به أليكس، ودَّع والديه وذهب إلى المدرسة كما اعتاد في كل يوم، ولكن عندما غادرها تذكر رحلاته مع والده إلى العديد من الغابات والأماكن الجميلة، فقرَّر فجأةً أن يزور الغابة المُجاوِرة، فبدَّل طريقه واتجه ناحية الأشجار، وأخذ يسأل نفسه:

- من أين تأتي الفراشات؟ هل كلها تطير من مكانٍ واحدٍ مُشَكِّلةً غيمةً كبيرةً من الفراشات؟... وهل السناجب تتحدث فيما بينها وتتقاسم البلوط؟

كان أليكس طفلاً شديد الخيال، حتى أن خياله يسرقه ممن حوله وكأنهم غير موجودين، وكثيرًا ما اصطدم برفاقه ومعلميه وأبويه والجدران وهو يتخيل، وأصعب ما كان يواجهه أن يُطلَب منه أن يُركِّز على الواقع ويترك الخيال الذي يشغل رأسه، وكان إذا ما فكَّر بشيء أو أراد شيئًا، يصعب عليه وعلى ذويهِ أن يغيِّروا تفكيره عنه. وهذا ما عبَّرتْ عنه المُرشِدة النفسية في المدرسة بعبارة: (إنه يعاني من شدة التركيز).

وها هو بين الأشجار غارق بأحلام يقظة لا تتوقف، ويمشي أحيانًا، وأحيانًا يركض، وأحيانًا يقف لمشاهدة سلحفاة قد انقلبت على ظهرها فيعينها على الاستواء، أو مشاهدة

خنفساء تدفع كرة الروث أمامها فيعينها على دفع الكرة، أو رتل نمل فيعينهم على حمل القش والحبوب، فيأخذ الحبوب من أيدي النمل ويضعها مباشرةً في الجحر.

ثم فجأةً انتصب والتفتْ حوله:

- سأزور الكهوف الأثرية التي زرتُها أنا وأبي، وسأجعل أحدها منزلي. أين تقع من هذه الغابة يا ترى؟

فكَّر قليلاً ثم أشار بأصابعه:

- هناك.

وسار في الاتجاه الذي اختاره.

أخذ يمشي ويمشي، ولم يصل إلى تلك الكهوف، ولم يُشاهدها، رغم الوقت الطويل الذي قضاه سائرًا بين الأشجار.

بدأت الشمس بالمغيب، وسيطر اللون الرمادي على الغابة، فبدأ أليكس يشعر بالحيرة والقلق، وبدأ ينظر حوله، بينما ضوء النهار يزول، وبدأ الليل يسيطر على الغابة شيئًا فشيئًا، وعندها بدأ قلبه الصغير بالخفقان بسرعة، وشعر أنه في مأزق يحتاج منه أن يخرج من خيالهِ بشكل تام.

= من مذكرات أليكس عن شبابه =

لا شيءَ أحبّ من رائحة القهوة لدى أليكس، فهي مرتبطة بطفولته. وضع فنجان القهوة المليء بالرغوة على الطاولة، وتناول كتابًا، وجلس يستنشق هواءَ الصباح البارد المُحمَّل برائحة القهوة والورود، وبدأ يتأمل كلمات الكتاب.

اقتربت جانيت نحوه؛ والتي كانت قد استيقظت للتو، وهي على عكس أليكس، فالاستيقاظ يعني لها الكلام والمعانقة والتقبيل، في حين يحب أليكس السكوت واحتساء القهوة والتأمل والقراءة، وهذا ما تُفسِده له جانيت في كل صباح، ولكنه تعوَّد على هذا الافساد، وتعوَّد أيضًا على المواضيع المُعقدة والنقاشات الغريبة التي تبتدئ بها صباحها.

أزاحت الكتاب بلُطف من بين يديه، وكأنها تقول له: ها أنا أتيت لأفسد طقوس استيقاظك. جلست على ركبتيه، ثم ضمَّته وشربت من فنجان قهوته، ثم قبَّلته، فشعر ببعض القهوة واللعاب يلتصقان بخده. حاول أن يتأقلم فأعاد تشكيل جسده ورجليه ليحملاها، ولا يتأثر الجنين أيضًا.

ابتدأت جانيت كلامها من وسط الموضوع كما تفعل كل يوم عندما تفُسِد طقوس أليكس الصباحية:

- أتعرف يا أليكس، أنا تراجعت عن رغبتي في تسميّة ابننا

بتيمور، وذلك في حال كان الجنين صبيًّا وليس فتاة، فأنا لا أريد أن أقوم بشيء قد يزعجك.

رفع أليكس حاجبيه ونظر إلى عينيها الزرقاوين، ولم يكن يرغب بعد في الحديث.

أكملت:

– أنت يا أليكس كل شيء أملكه، أنت من صنعتني وأخرجتني من أحزاني وأنرت طريقي، وعلَّمتني كيف أصنع ذاتي وراحتي وكل شيء حولي، فمِن النكران للجميل أن أفعل أي شيء قد يزعجك، وحتى لو كان تيمور حيًّا وخيروني بينك وبينه، فلن اختار سواك، فقوة تيمور في حياتي – كما قلت أنت – هي بسبب انعدامه وبُعده، أما أنت فقوتك بوجودك أمامي، وأنا قوية بسببك أنت.

أومأ أليكس لها برأسه، ثم أمسك فنجان القهوة ليشرب وبعدها يتحدث، ولكنه وجده فارغًا، بحيث أن جانيت شربته بالكامل، فأعاد الفنجان الفارغ إلى الطاولة وسمع صوت رنَّته على صحنه:

– جانيت... كل ما في هذه الدنيا لا يعنيني بشيء، أنا لا أحزن إذا سمَّينا طفلنا تيمور أو إدوارد أو آرثر أو أيًّا يكُن، المهم أن يكون اسمًا جميلاً ويجعلك سعيدة. أنتِ أردتِ أن تُسمِّي طفلنا باسم حبيبك السابق، وأنا لا أمانع في ذلك ولا يُحزنني، بل يفرحني لأنه يُفرحِكِ... أنا مختلف قليلاً عن الآخرين.

– حسنًا، أعلم بأنك مختلف، ولذلك أحبك.

- حسنًا، هل يمكن أن تصنعي لي فنجانًا آخر من القهوة بدل الذي شربتِه؟

- طبعًا لا يا حبيبي، فأنا عائدة للنوم.

وعادت إلى غرفتها مترنِّحة، بعد أن داست على أصابع رِجله.

= من مذكرات أليكس عن طفولته =

لم تكن الكهوف الأثرية التي زارها أليكس ووالده في هذه الغابة، بل كانت بمكانٍ بعيد...

تلفَّت أليكس الصغير حوله ليعرف أين الطريق الذي أتى منه ليعود أدراجه، لكن الظلام بدأ يُخيِّم، والرؤية أصبحت غير واضحة، ومن المستحيل أن يعثر على الطريق الذي أتى منه.

أخذ ينظر حوله ويُفكِّر بما يجب أن يفعل، وفي مكانٍ ما من الغابة سمع ضباح بعض الثعالب، شعر بالخوف، وتمنى لو أن والدته بجانبه. أخذ يتحرك بسرعة ويدور حول نفسه ويتلفت حوله، فرأى من بعيد تلَّة فيها ما يشبه الكهوف، بدت بعيدة بعض الشيء، فاتخذ قراره وبدأ بالركض باتجاهها بأقصى ما تَمكَّن من سرعة، وشعر وكأن الأشجار تنظر إليه وتتهامس فيما بينها عنه، وتمر من جانبه بسرعة وكأنها هي التي تركض وليس هو، وأخذت أغصانها ترتطم بثيابه وبحقيبته المدرسية وكأنها تريد أن تمنعه من الاستمرار، أو تنبِّهه من شيء ما، وأصبحت الرؤية عسيرة وبالكاد استطاع أن يرى أمامه لنصف متر، ولم يعد يرى التلة التي تنخرها الكهوف. ومع ذلك استمر بالركض بالاتجاه الذي اختاره عندما كان يرى.

ثم تعثر بجذر شجرة بارز فوق الأرض، وأخذ يتدحرج، تدحرج ببطء في البداية ثم سقط عن مرتفع لبضعة أمتار،

وتابع التدحرج، وزادت سرعة تدحرجهِ، ولم يستطع التوقف رغم المحاولة، وبدا بأنه لن يتوقف أبدًا. كان جسمه الخفيف الهزيل يساعده على التدحرج بانتظام وسرعة ودون أن يتأذى كثيرًا، وكأنه كومة شوك يابسة تدحرجها الرياح، وأدرك عندها أنه قد سقط على أرض منحدرة، ولكنه لم يستطع أن يرى أي شيء حوله، فالظلام قد خيَّم ولم يستطع أن يتوقف أو يُغيِّر اتجاهه.

فقط كان يشعر بالأغصان والحجارة التي يرتطم بها أثناء تدحرجه، والتي كانت تُغيِّر مساره يمينًا أو شمالاً.

= عبد الرحمن =

بعد يوم عمل مُضنٍ؛ ارتمى عبد الرحمن على الأريكة أمام التلفاز، وما إن استلقى حتى أخذ يغفو، إنه ذلك النوم الجميل الذي يأتي ويروح حتى يستحوذ على الجسد بالكامل.

كان عبد الرحمن يستمتع بهذا الشعور؛ عندما بدأ هاتفه الخلوي بالرنين، أخذ يصارع نفسه محاوِلاً الخروج من هذه الغفوة ورؤية اسم المتصل، وبصعوبة رفع رأسه ونظر إلى ساعته، إنها الحادية عشر ليلاً (من سيتصل في هذا الوقت؟!

نظر إلى شاشة الهاتف، إنها إحدى موكلاته والتي استحصل لها على قرار بالتفريق عن زوجها منذ أيام... فكَّر: (ماذا تريد؟ هل تريد أن تعود لزوجها؟؟)

ردَّ على الهاتف بصوت مُتكسِّر:

– نعم.

سمع صوت موكلته يخرج من السماعة:

– أستاذ عبد الرحمن أعتذر على الإزعاج، يبدو أنك نائم.

– نعم.لا مشكلة. لا تقولي بأنك تريدي أن تعودي لزوجك.

– لا يا أستاذ عبد الرحمن هذا مستحيل.

– لماذا إذًا تتصلين؟

– أريد أن أدعوك غدًا لحفلة في الساعة الثامنة مساءً.

- ما هي المناسبة؟
- المناسبة هي الاحتفال بالطلاق.
- آه، حفلة طلاق... حسنًا، إذا كان وقتي يسمح سأحضر.

= من مذكرات أليكس عن طفولته =

لم يعد أليكس يحتك بالتراب أو الأغصان بل بدأ بالسقوط، ووجد نفسه في فراغ وظلام دامس يحيط به من كل صوب. سيطر عليه الخوف وشعر بقطرات الدماء الناتجة عن الجروح تتطاير وتصطدم بوجهه.

أحسَّ بندمٍ فظيعٍ على رحلته تلك، ولم يكن يريد سوى أُمه في تلك اللحظةً، فأراد أن يصرخ بأعلى صوته (أُمي)، لكنه سمع صوت خرير ماء واضح، وعندما حاول أن ينصت اصطدم بعنف بماءٍ باردٍ ومُتدفِّق.

شعر بلسعة كهربائية وصفعة هائلة على كامل ظهره عند الارتطام، وصوت اصطدامه كان قويًّا، ثم اجتاحه ألمٌ شديدٌ لا يُقاوَم، فصرخ بكل ما استطاع، ولكن صرخته انطفأت بدخول الماء إلى فمه، فشعر بالفزع وأخذ يغرق في الماء، وكأنه رصاصة تتجه إلى قعر الوادي.

= عبد الرحمن =

استيقظ عبد الرحمن وفارقه النوم مُفارقة كاملة، وكأنه لم يكن نعسًا منذ البداية. ذهب إلى المطبخ ليصنع فنجان قهوة، وهو يُحدِّث نفسه:

- حفلة طلاق! إنها تُشبه شيئًا ما... ماذا تُشبه حفلة الطلاق ؟؟ إنها تُشبه حفلة التسريح من العسكرية، نعم ففي كلاهما يتحرَّر المرء من شيء تسلَّط عليه. هل أذهب إلى الحفلة؟ طبعًا لن أذهب، فمزاجي لا ينسجم مع الحفلات، فأنا عندما أذهب إلى أي حفلة يكون شكلي مثل شكل «شوبنهاور» أو مثل تمثال «المُفكِّر» لـ«رودان» والذي يضع يده تحت ذقنه ويُفكِّر طوال الوقت ودون أي ابتسامة، فحتى عندما أريد أن أحتفل بشيء ما، فأنا اختار أن أحتفل لوحدي فقط، ولو استطعتُ أن أحتفل بدوني لفعلتُ. ولكن ربما يجب أن أذهب، فإذا حضرتُ حفل الطلاق قد أتعرَّف على فتاة وأتزوج.

ابتسم ووضع فنجان القهوة أمامه وجلس على الأريكة وأخذ رشفة من القهوة واستنشق رائحتها...

- ما النفع أن نحتفل ونتزوج ثم نحتفل ونتطلق؟ يُمكن تجنب كل هذا بالبقاء بالمنزل.

ثم أخذ يقرأ الشريط الإخباري في أسفل التلفاز، والذي يتحدث عن آثار الحرب وعدد القتلى وأماكن الاشتباكات، ويتحدث كذلك عن المظاهرات المُطالِبة بالحُرية والتي تعمُّ البلاد...

- نعم، نعم. حفلة طلاق، جميعنا في هذه البلاد نحتاج لحفلة طلاق، نريد أن نحتفل بطلاقنا من هذه الحكومة، متى يا ترى ستكون حفلة طلاقنا المنشودة؟

= من مذكرات أليكس عن طفولته =

وصلت رِجلا أليكس إلى قعر الوادي، حيث أخذتْ الحجارة والحصى المروسة تُمزِّق جلده عندما تنغمس في أسفل قدميه.

تابع اندفاعه إلى الأسفل حتى جثا على رُكبتيه، وشعر بالحصى المروسة تجرحهما.

وعندها دفع نفسه بقوة للأعلى، بدأ جسده الصغير بالصعود ببطء، وهو يوشك على الاختناق، وعندما وصل إلى سطح الماء شهقَ وأخذ نفسًا عميقًا من فمه، كانت مياه الوادي المتدفقة تسحبه باتجاه مسيلها، حاول ان ينظر حوله لكنه لم يرَ شيئًا سوى الظلام، شعر بالألم في أنحاء جسدهِ واستطعمَ طعم الدماء في فمه.

ثم رأى شبحًا أسودَ ضخمًا يقف أمامه مباشرةً، قرَّب رأسه باتجاهه لكي يراه، لكن الوقت لم يسعفه لذلك، فقد كان هذا الشبح صخرة سوداء كبيرة، فارتطم رأسه الذي قدمه للتو بها بشدة، وكأنه يريد الدخول إلى جوف هذه الصخرة، ثم التصق كامل جسدهِ بالصخرة مثلما تلتصق السحالي بالصخور.

شعر بالدماء تسيل من رأسهِ على الصخرة وعلى وجهه، ولبضع ثوانٍ كان عاجزًا تمامًا عن الحركة، ثم بدأ جسده ينسلخ عن الصخرة ببطء، ليعود مرة أخرى للمياه... وبعد ذلك لم يعد يشعر بشيء أبدًا.

= من مذكرات أليكس عن شبابه =

في مدينة داروين الأسترالية وعلى رصيفها البحري، قرَّبت جانيت يدها من يد تيمور حتى لمستها، فقام تيمور بمسك يدها وتقبيلها وهما يسيران ويتأملان البحر، ولكن الرصيف كان خاليًا تمامًا من الناس على غير عادتهِ، فلا يوجد سواهما.

كانت ترتدي فستانًا أبيضَ عليه رسومات لزهرة أقحوان ناقصة الأوراق، وعندها هبَّ نسيمٌ من البحر فأخذ يُحرِّك شعرها فوق كتفيها.

– جانيت... هل تعرفين كم أحبك؟

– لا، لا أعرف.

– أحبكِ بقدر حبات البطاطا التي يعرضها ذلك السمان.

– حسنًا إذًا يا تيمور، جاء دوري... هل تعلم كم أحبك؟

ضحك ثم قال:

– لا أعلم، ولا أريد أن أعلم يا جانيت.

– رغمًا عنك يجب أن تعلم، فأنا أحبك بقدر ما يوجد في حبات البطاطا تلك من سُوس.

وضحكا.

استيقظت جانيت فجأةً بعد هذا الحلم، ثم أحسَّتْ وكأنها رأت وجه تيمور وراء زجاج النافذة ينظر إليها بتمعن والدماء تسيل على وجهه.

جلست على السرير مرتعبة وبجانبها أليكس مستغرِقًا في النوم.

انتصبت وارتدت خُفَّها الرقيق وفتحت باب الشرفة الزجاجي بينما الظلام دامس في الخارج، والأمطار تتساقط بكثافة. أنارت الأضواء الخارجية حول المنزل، ثم أخذت تسير في الحديقة الخارجية دون أن تهتم بالأمطار، فقد كانت أمطار ربيعية دافئة، شعرت بحركة بجانب شجيرات الورود، اقتربت لترى من هناك، وهمهمت بصوت خافت: (من هناك؟)

أمعنت النظر ولكنها لم ترَ أحدًا، (ربما الرياح هي من حرَّكت الشجيرات). قالت ذلك في نفسها ثم بقيت تحت المطر لثوانٍ دون أي حركة، وبعدها عادت إلى غرفتها ولديها شعور يلازمها بأن أحدًا يراقبها من مكانٍ ما.

= من مذكرات أليكس عن طفولته =

تسلَّلتْ أصوات العصافير وحفيف أوراق الشجر إلى أُذني أليكس، وشعر بأن عصبةً من قماش قد رُبِطتْ حول رأسه، استطاع أن يفتح عينيه بصعوبة فرأى رجلاً ضخمًا يحمله فوق كتفيه. حاول أن يُركِّز ليرى هذا الرجل؛ لكنه لم يرَ سوى لحية كثيفة ومعالم رجل ضخم ذي هيبةٍ غريبةٍ، ورآه ينظر إليه من زاوية عينه بامتعاض وهو يحمله.

أغمض أليكس عينيه وذهب في نومٍ عميق.

وبعد فترة لم يدرك مقدارها، فتح عينيه بصعوبة وبالكاد استطاع إبعاد جفنيه عن بعضهما ليرى ما حوله. لقد كان مُستلقيًا على سريرٍ خشبي صغير في صالة كبيرة. حرَّك رأسه بصعوبة ليرى ما حوله، وحدَّق جيدًا، كانت الصالة ملأى برفوف الكتب، فبدا المكان غريبًا بالنسبة له.

رفع جسده وجلس بصعوبة وهو يشعر بأوجاع في كافة أنحاء جسمه. نظر حوله، كانت الصالة تحتوي على العديد من الطاولات والكراسي، وكان يوجد كتب مفتوحة وأقلام وأوراق وخرائط قديمة.

أنصت قليلاً فسمع صوت عصافير في الخارج، وكذلك صوت حفيف أوراق الأشجار.

نهض بصعوبة وهو يتلمس العصبة على رأسه، وكانت مُشبَّعة بالدماء الجافة، ورأى أمامه طاولة وُضِع عليها صَحنٌ يحتوي على شطيرة جبنٍ وكوب كبير من عصيرِ المانغو، وورقة صغيرة كُتِب عليها: (سأعود قريبًا. اِنتظرني).

توَجَّه أليكس إلى النافذة وفتحها، فأبصر منظرًا رائعًا لأحد أجمل خبايا هذه الغابة والتي تُظهر عُذرية هذا المكان وبأن أرجُل الناس لم تطأ هذا الجزء من الغابة، اللهم سوى مضيفه الذي بنى هذا البيت.

وزاد إعجابه هذا وانبهاره، عندما دفع باب المنزل الخشبي وخرج إلى الشرفة ليرى ما لا يستطيع المرء أن يتخيله من الجمال.

عاد لأخذ شطيرة الجبن وخرج مرةً أخرى ليتابع رؤية الطبيعة التي كان يظنها غير موجودة سوى بالأحلام. ثم قال:

– لا أريد أن أُغادر هذا المكان طوال عمري.

= من مذكرات أليكس عن شبابه =

عادت جانيت مُبللة إلى السرير، وبدأت بنزع ملابسها لتبديلها، عندها أفزعها صوت أليكس المستلقي على السرير خلفها:

– جانيت ...

أجفلتْ وقفزتْ... أَكْمَلَ:

– ما بكِ؟ هل هنالك شيء؟

أضاءت المصباح الذي بجوارها...

– لا يوجد شيء يا أليكس فقط ذهبتُ إلى الخارج وتبلَّلتُ بماء المطر.

– حسنًا... هل ترين الكوابيس؟

– لا... لا...أقصد، نعم.

– هل ترين تيمور؟

نظرت إليه باستغراب:

– وكيف عرفتَ ذلك؟

– لم أحتاج إلى الكثير من الذكاء، فأنتِ تتلفظين باسمه دائمًا في نومك، وفي كل ليلة.

تنهدتْ جانيت بعُمق وجلست بخيبة أمل، راميةً بثقلها

على السرير وهي لا تزال عارية وشعرها مُبلل، ووضعت يديها على رأسها وهي تشعر بأنها في متاهة، وكابوس مستَمّر، لن تستطيع أن تتخلص منه مطلقًا، ثم تنهدت وقالت بصوتٍ خافت:

- يجب أن أزور طبيبًا نفسيًا.

= من مذكرات أليكس عن طفولته =

هذا هو اليوم الثالث على وجود أليكس في منزل مضيفهِ، والذي لم يعُد بعد رغم أنه كتب له: (انتظرني) على قصاصة الورقة تلك.

أخذ أليكس يفكِّر بذلك وهو يدور ذهابًا وإيابًا في صالة المنزل الواسعة، وقد بدأت جنة عدن التي تحيط به تبدو عادية، ويذهب جمالها في نظره شيئًا فشيئًا. ثم أخذ يتفقد الكتب التي في المكتبة والتي شغلته بقية اليوم.

أمَّا في اليوم الرابع فقد ملَّ من السلوكيات التي أمضى بها الأيام الماضية في الاستكشاف ومطالعة الكتب وتناول المعلبات والخضروات المزروعة حول المنزل، والفواكه المتوفرة في أرجاء المطبخ، وها هو في هذا اليوم يعيد هذه الأفعال ويقلبِّ قصاصة الورقِ التي كتب عليها (انتظرني). ولكنه لم يعد يطيق الانتظار، فلا شك أن والديه يبحثان عنه ولا بد أن يكونا قلقين عليهِ، فقرَّر مغادرة المنزل فورًا.

ارتدى ملابسه وخلع البيجامة الواسعة الفضفاضة والتي يبدو أن مضيفه قد ألبسه إياها بعد أن قام بقصها لتصبح مناسبةً لطولهِ، وأخذ أحد الكتب المخصصة للأطفال والمليئة بالصور قائلاً بصوت مرتفع: (سأستعير هذا الكتاب منك يا

غريب، وسأعيده إليك عندما سآتي لزيارتك بعد أن أطمئن على والديّ).

ثم توجه إلى الاتجاه الذي ظن نفسه قد أتى منه، ليدخل في غابة عالية الأشجار، وبعد حين من المشي، أدرك أنه إذا استمر بالابتعاد عن بيت مضيفهِ فقد يضيع، فلن يجد منزله وسيفقد منزل مضيفه أيضًا. وبعد القليل من التفكير قرر أن يصعد إلى إحدى الأشجار ليطالع المكان من ارتفاع يُظهر التضاريس، اختار أعلى وأكبر شجرة موجودة في المكان، وبدأ بالصعود، كان يسقط وينزلق، ولكنه استمر بإعادة المحاولة إلى ما يقارب ساعة كاملة، حتى استطاع أخيرًا أن يتسلقها ويصل إلى قمتها، عندها ثبَّتْ يديه الصغيرتين وثبَّت قدميه جيدًا على أحد أعمدة هذهِ الشجرة وانتصب، فخرج رأسه من بين الأوراق. فرأى منظرًا خلابًا لغابةٍ شاسعةٍ ورائعةٍ ليس لها نهاية.

نظر إلى كافة الاتجاهات فلم يرَ أي أثر لبلدته ولا للجبال التي تحتوي كهوفًا، أدرك عندها بأنه في مكان آخر مختلف تمامًا عن الغابة التي كانت بجانب بلدته.

= عبد الرحمن =

كان عبد الرحمن مُتكئًا على الأريكة يشاهد التلفاز، فظهرت صورة لمجموعة من الأشخاص من ضمنهم صديق طفولته «أكرم»، وذُكِر بأسفل الصورة أن هؤلاء الأشخاص مفقودون نتيجة أعمال العنف التي تعمُّ البلاد.

أخذ عبد الرحمن يتذكر طفولة أكرم، وكيف كان يتلقى عقوباتٍ من المدرسين بسبب صراحته وتمسكهِ برأيهِ، فقد تميَّز أكرم في ذلك الزمان بموهبتين رئيسيتين، الأولى أنه يحفظ الكثير من أقوال الرئيس، والثانية أنه يحفظ الكثير من الأغاني الشعبية «أغاني الدلعونة والدبكة»، وكان يُغنِّي هذه الأغاني لعبد الرحمن في الاستراحات التي تتخلل الدروس.

يتذكر عبد الرحمن أحداث اليوم الذي ضَرب المدير به أكرم حتى نزل الدم من أنفه واِحمرَّ وجهه ويداه لعدة أيام تلت ذلك، ففي ذلك اليوم خرج أكرم كعادته في كل استراحة مغنيًا وراقصًا:

(دقيق المجوز نقل صابيعك... باص بويا والله ما بيعك
سمرا وغزالة ترعَى برْبيعكْ... وحبي جافاني مبارح واليوما)

ويهز يده وخصره. ثم أخرج شطيرته من كيسها، وجلس بجانب عبد الرحمن في باحة المدرسة، ثم قسم نصف الشطيرة وأعطاه إيها وبدأ بالأكل. ثم خطرت في ذهنه الفكرة التي

ستجلب له المصائب:

- ما رأيك يا عبد الرحمن أن نضع في الشطيرة «الرشاد والهندباء»؟ عندها سيصبح طعمها مثل طعم الفروج المشوي.

- ومن أين نأتي بالرشاد والهندباء، يا أبو الدلعونة؟

فرِح أكرم باللقب ورفع يده وهز رأسه وتطاير فتاتُ الخبز من فمه:

- من خلف المدرسة طبعًا.

- المشاتل التي خلف المدرسة هي للمدير يا أكرم.

- لا، ليست للمدير فالطلاب هم الذين يزرعونها فنحن أولى بنتاجها، ألم يقل الرئيس الخالد بأن الأرض لمن يزرعها والكتاب لمن يقرأ به؟

- أحقًا هكذا قال؟

لم يكن عبد الرحمن يعلم إن كان الرئيس قد قال ذلك لأكرم أم لم يقل، ولكنه صدَّق ذلك طالما الرئيس قال ذلك لصديقهِ، وهمَّ بأن يسأله: (ولكن أين التقيت بالرئيس يا أكرم؟) لكنه تراجع عن هذا السؤال.

انطلق الاثنان إلى حديقة المدرسة الخلفية، إثر هذا الرأي المستوحى من كلام الرئيس، وقفزا إلى وسط المشاتل، وبدآ بقطع الرشاد والهندباء ووضعه في نصيب كل منهما من الشطيرة. ثم ابتعد عبد الرحمن عن المشاتل:

- هيا يا أكرم، فلن يُصدِّق أحد بأنك التقيت الرئيس وقال لك هذا غيري.

استمر أكرم بقطع الخضار ووضع جزء منها في الشطيرة وجزء منها في فمه:

– أنا لم أقابل الرئيس، يا غبي، هذا مكتوب في الكتاب.

تركه عبد الرحمن يقتلع الخضار وركض هاربًا لوحده. وقبل أن يتجاوز الجدار المؤدي إلى باحة المدرس سمع صوت المدير يقبض على صديقه، فتوقف وعاد قليلاً وأخذ يسترق النظر من خلف الجدار. كان أكرم يدور بسرعة جاثيًا على الأرض وكأنه قرد صغير، ويقفز من مشتل لآخر كهِرٍّ، وفي تلك اللحظة صرخ المدير به وقبض عليه.

شاهد عبد الرحمن المدير وهو يُطبِّق عقوبته المفضلة على أكرم وهي رفعه من سالف (*) شعره. كان أكرم مُعلَّقًا في الهواء ولا تطال الأرض سوى رؤوس قدميه، وكان يتألم وعيناه موجهتان إلى صديقه البعيد الذي يُطل جزءٌ من وجهه من خلف الجدار.

طال شد المدرس لشعر الصبي وكأنه يريد أن يخرج الهندباء التي أتلفت من سالفهِ، ولكن الطفل أوشك على الاختناق من الألم والخوف، فأنزله خوفًا من تحمل مسؤولية موت الطفل ألمًا، وقام بإفراغ الشطيرة مما تحتويه من خضار وأعادها له خالية سوى من اللبن.

خلف المدرسة وحيث لا يوجد سوى أكرم ومديره وجزء من وجه عبد الرحمن بدأ المدير بصفع أكرم، كان يرجع يده إلى

* السالف: هو نهاية شعر الرأس من جهة الخد.

الخلف حتى تحمل قوة أكبر ويُنزلها على وجه أكرم الذي يترنح فيصطدم بالجدار ويسقط، فيُوقفه المدير من قُبَّة مريوله ويُعيد صفعه بقوة، حتى بدأ الدم يقطر من أنفه.

لم يُكمل عبد الرحمن •مشاهدة كامل حفلة التعذيب، بل أطلق رجليه للرياح وركض في ساحة المدرسة، وهو يقضم الشطيرة، ولكن لم يشعر بأن طعمها أصبح كطعم الفروج المحمر كما أخبره أكرم، بل هو كطعم اللبن مع الرشاد والهندباء وحسب.

ثم فكَّر في نفسه: (ربما فهمنا كلام الرئيس بشكل خاطئ، فهو قال بأن الأرض لمن يزرعها، ولكن هذا لا يعني بأن من يزرعها يستطيع أن يجني منها المحصول، فهي له لكن المحصول ليس له.

= من مذكرات أليكس عن طفولته =

نظر أليكس من أعلى الشجرة إلى الجهة التي اختارها، فرأى غابة ممتدة لا نهاية لها، فنظر في الاتجاه المعاكس فشاهد طريقًا عريضًا مُعبَّدًا، فنزل عن الشجرة وسقط عندما أوشك الوصول إلى الأرض، ثم انتصب وأخذ يركض باتجاه الطريق المُعبَّد الذي رآه من أعلى الشجرة، فَمَرَّ من جديد من باحة منزل الرجل الذي استضافه.

بعد القليل من الوقت وصل إلى الطريق، مشى إلى منتصفه وألقى نظرة على جهتيهِ، فبدا الطريق ممتدًا لا بداية له ولا نهاية، ثم اختار أحد اتجاهي الطريق وأخذ يمشي ويرسم بين الحين والآخر خطوطًا وإشاراتٍ على الأشجار والحجارة ليتمكن من العودة إلى منزل مضيفه في حال لم يصل إلى منزل والديه.

بعد فترة من المشي بدأ يشعر بالتعب والعطش والجوع، وبدت الشمس في نهاية الطريق المُعبَّد الأسود تجنح إلى المغيب وتبدو كنصف قرص ذهبي في نهايته، وتلمع أشعتها على قارعة الطريق كما تلمع على صحيفة مياه بحر هادئ. ثم بدا لأليكس شيءٌ ما في نهاية الطريق وكأنه خرج من الشمس وسار على الطريق، وشيئًا فشيئًا بدأت تظهر ملامح شاحنة صفراء ضخمة، كانت مُسرعة بشكل جنوني وتقفز على

الطريق بسبب ضخامتها وكأنها ترقص رقصة هادئة. حاول أن ينظر إليها عندما اقتربتْ؛ ولكن أشعة الشمس أتت على عينيه فوضع يده على وجههِ، بينما الشاحنة تتجاوزه، وعندما أشاح وجهه عن الشمس ليتتبع الشاحنة سمع صوت فرامل مُرعبة تصدر عنها، وأخذت الشاحنة تنزلق على الطريق وعجلاتها متوقفة لعدة أمتار وصرير العجلات يملأ المكان، ثم توقفت في منتصف الطريق شاغلةً لمسربيه، وأخذ يصعد من عجلاتها دخان كالضباب الخفيف ورائحة المكابح ملأت المكان، وبعد القليل من الهدوء والسكون الذي عَمَّ المكان أخذت الشاحنة الصفراء تعود أدراجها بهدوء حتى وصلت على مقربة منه.

سمع أليكس طقطقة باب الشاحنة وهو يفتح ونزل منها رجل بدين يرتدي «أفارول» متسخًا بالشحم، وقد ظن أليكس في تلك الأيام بأن ثياب هذا الرجل ملوثة بالشوكولاتة، وكان يرتدي نظارة طبية ذات عدسات دائرية، واتجه نحو أليكس، وهو يمشي مشية تشبه مشية (تشارلي تشابلن في أفلامهِ)، ثم فتح يديه مُتعجِّبًا وسأله:

– أين أنت ذاهب؟ وأين والداك؟

كان صوته رفيعًا كصرير الأظافر على الزجاج.

أجابه أليكس:

– أنا ذاهبٌ إلى بيتي، ولكني تهتُ في الغابة.

اقترب منه الرجل وجثا على ركبتيه حتى أصبح وجهه

بمستوى وجه أليكس، ووضع يديه على كتفي أليكس:
- وأين هو بيتك؟

أخذ أليكس ينظر إلى يديّ الرجل بطرف عينيه منزعجًا من كونهما ستلوثان ثيابه بالشكولاتة، وأخذ يخبره بالتفاصيل التي يعلمها عن منزله وعن والديه وبلدته. وبعد أن أنهى كلامه، سحب الرجل يديه عن كتفي أليكس ووقف وكأنه أُصيب بخطب ما وأخذ ينظر حوله:

- هل أنت متأكد من المعلومات التي أعطيتني إياها؟

- نعم يا عم، متأكد من كل معلومة أعطيتها إليك وأستطيع أن أصف لك بلدتي ومنزلي.

- لكنك بعيد للغاية عن منزلك وبلدتك، فما الذي أتى بك إلى هنا؟

نظر الرجل إلى أليكس وانتظر الإجابة، ولكنه لم يُجِب، وأخذ ينظر حوله.

- حسنًا، لا عليك يا فتى، سأقلّك إلى منزلك، اصعد إلى الشاحنة وسوف أطعمك الشكولاتة والعصير والمكسرات وسأعلمك كيف تصنع كِرشًا مثل كرشي.

وضرب على بطنه.

ابتسم أليكس وصعد إلى الشاحنة وانطلقا.

نظر أليكس إليه وهو يُعطيه كيسًا من البطاطس، وسأله:
- ما اسم هذه الغابة يا سيد؟

- نحن يا فتى في غابة تابعة لمنتزه «كاكادو» الوطني، وهي غابة خلابة وساحرة وفخر الإقليم الشمالي لأستراليا، إنها جنة على الأرض، ولكنها كبيرة وخطرة على الأولاد، فمن النادر وجود أحد للمساعدة... أخبرني كيف أتيت إلى هنا؟ إنها بعيدة عن بلدتك.

= عبد الرحمن =

عندما كان عبد الرحمن وأكرم طفلين في المدرسة الابتدائي، لم يكن أكرم ينتبه أو يشارك في الحصص الدراسية، وكل ما كان يفعله هو الحفر في مقعده الخشبي باستخدام ببيكار حديدي مكسور، وبقي على هذا المنوال طوال العام الدراسي.

وما أن أوشك العام على الانتهاء حتى كانت هنالك حفرة كبيرة في مقعده تنير ما بداخلهِ، وقد جلبت هذه الحفرة التي كانت بحجم كف اليد إعجاب جميع الطلاب والطالبات في الصف فقد كانت عملاً مُتقنًا، وقد أخذت زمنًا طويلاً.

اقترب عبد الرحمن من صديقه وقال له:

- يا أبو الدلعونة.

رفع أكرم يده وهزها وأنشد:

- (ويلي دلعونة يسلملي دريا كلماتا حلوة أحلى من مربّى
من سحرا القمر صاير يتخبّا والورد الجوري يبعد من هونا)

- أخبرني ما هو قول الرئيس الذي ساعدك على حفر هذا البئر في مقعدك؟

نظر أكرم إلى الأعلى وكأنه يحاول أن يتذكر شيئًا ما، ثم قال:

- استقيت ذلك من قوله: (الأمل في العمل).

- وما هو العمل المقصود؟

– لم يُجدِّد، وما تركه الرئيس على إطلاقهِ يبقى على إطلاقه.

– أتمنى ألا يُصيبك مكروهٌ من أقوال الرئيس، فكلما تذكرتَ واحدة أصابتك مصيبة.

وعند انتهاء عبد الرحمن من كلامهِ أتت المُدرِّسة ورأت الطلاب متجمهرين حول مقعد أكرم، فنظرت إلى الفجوة، ثم أسرعت وأحضرت المدير برفقة أستاذ التربية العسكرية، وعندما نظر المدير إلى الفجوة لم يستطع إلا أن يبتسم في البداية من الجهد والعمل الذي تطلبهما حفر هذا النفق في المقعد، ولكن بعد ذلك أقطب وجهه وصرخ بالطلاب طالبًا منهم الخروج من الصف.

لم يبقَ سوى أكرم والمدير وأستاذ التربية العسكرية والمُدرِّسة...

وضع عبد الرحمن أذنه على باب الصف من الخارج وأخذ يستمع إلى صوت صديقه وهو يتلقى العصي على يديه ويسمع نحيبه.

كان أكرم بين الحين والآخر ينظر إلى المُدرِّسة التي ذهبت وأخبرت المدير بنظرة تحدٍ، ويقول لها: (أنتِ فسَّادة) (*). فيقول المدير: (تأدَّب) ويضربه أكثر. ولم يتوقف عن الضرب

* تُقال هذه الكلمة بالعامية لمن ينقل الكلام عن أقوالك وأفعالك لشخص آخر فيوقعك بمشكلة معه.

إلا عندما صاح به أكرم:

- أنا لم أفعل شيئًا، أنا فقط أطبق أقوال الرئيس.

صاح المدير:

-وهل الرئيس قال بأن تخرِّب المقعد.

- نعم، لقد قال: اعملوا فالأمل به.

- ولكنه لم يقصد التخريب.

- لم يُحدِّد، وما تركه على إطلاقه؛ يبقى على إطلاقه.

- اخرس يا أكرم.

انصرف المدير وهو يبلع ريقه، وفتح باب الصف بغضب، فسقط عبد الرحمن الذي كان ملتصقًا بالباب من الخارج، وأتى مستلقيًا عند قدمي صديقه أكرم الذي كان يُحرِّك يديه ويعصرهما ويضعهما على مريولهِ ليُخفِّف ألم العصي التي تلقاها.

نظر المدير إلى عبد الرحمن المستلقي على الأرض بين قدمي أكرم وقال مشيرًا إليه:

- ومن أين أتى هذا الغبي الآخر؟هذه شُعبة أغبياء.

ثم نظر إلى صورة الرئيس المبتسم والمعلقة بالصف والتي كُتِب تحتها: (الأمل بالعمل)، وزمَّ شفتيهِ وانصرف غاضبًا.

أمَّا المُدرِّسة فقد لصق بها لقب «الفسَّادة» الذي أطلقه عليها أكرم إلى أن تقاعدت.

= من مذكرات أليكس عن طفولته =

نظر سائق الشاحنة إلى الطفل الذي يجلس بجوارهِ وسأله:

– هل هذا هو بيتك يا أليكس؟

نظر أليكس باتجاه البيت:

نعم ولكن عدد سُكانه كان أقل.

وابتسم.

كان البيت مليئًا بالأهالي والجيران وسُكَّان الحي، وكانوا يملأون الغُرف والشرفات ومدخل البيت.

شكر أليكس السائق ونزل من الشاحنة.

لفت انتباهه أن الجميع في منزله يرتدون ملابسَ سوداء، وعندما اتجه إلى البيت أخذ الجميع ينظرون إليه ويبتعدون ليسمحوا له بالمرور، وعندما اقترب من مدخل المنزل اندفعت باتجاهه أرملة مُسنة تسكن في منزل قريب من منزلهم وكانت تبكي ووجهها يعتصر.

– حبيبي الصغير...

وضمَّته إلى صدرها، وأخذت تبكي.

– ما الذي يجري يا عَمَّة؟

أجابته بتأتأة وهي تذرف الدموع وتنشق أنفها:

– اسمع يا أليكس، كلنا سنموت يومًا ما، والداك قد توفيا في حادث سيارة، أثناء بحثهما عنك.

وصمتت وعصرت شفتيها شاعرةً بتأنيب الضمير لأنها قالت عبارة (أثناء بحثهما عنك) مخافةَ أن يشعر أليكس بأنه السبب في موتهما.

ولكن أليكس لم ينتبه لهذا التفصيل، بل أزاح يد المُسنة عن كتفه، وركض إلى البيت مُبعِدًا الأشخاص الذين يعترضون طريقه ودخل إلى صالة المنزل الكبيرة ليرى جثمانيّ والديه موضوعين في تابوتين خشبين أنيقين، ومغطيان بالزجاج وعليهما أزهار بيضاء.

اندفع مُبعِدًا النسوة الذين اعترضنَّ طريقه للوصول لجثماني والديه، وركع بجانب التابوتين، وقد أثار جلوسه بجانبهما وصدمته، موجة من النواح والتأوه بين الحاضرين.

استمر أليكس ينظر إلى والديه لبضع دقائق بسكون تام، حتى أن جفنيه لم يكونا يتحركان، ثم انفجر ببكاء مكتوم لا ترافقه أي حركة سوى وجه عابس مُتجمِّد وفمٍّ مفتوحٍ ودموعٍ ترفض النزول وجسمٍ جامدٍ بلا حِراك.

= عبد الرحمن =

لا زالت صورة أكرم لا تغيب للحظة عن ذهن عبد الرحمن، فأخذ يتذكر الكثير من القصص التي حدثت مع أكرم وهو صغير، فعندما كانا في الصف الرابع الابتدائي سأله أكرم:

– لماذا الرئيس خالد؟ وما معنى الخلود؟، وكيف أستطيع أن أصبح خالدًا مثل الرئيس؟

أجابه عبد الرحمن:

– لا أعرف، اسأل أحدًا من الكبار قد يعلم الإجابة.

– لقد سألت يا عبد الرحمن، فقد ذهبتُ لأمي وكانت ترتِّب المنزل وتُعِدُّ الطعام وسألتُها: كيف أصبح خالدًا مثل رئيسنا الخالد؟

– حسنًا، وبماذا أجابتك؟

– قالت لي: (اخرس ولا تفكر بهذه الأمور أبدًا، وإياك أن تسأل أحدًا آخر). فلم أرضَ بهذا الجواب بل ذهبتُ لأبي وسألتُه ذات السؤال: كيف يمكنني أن أصبح خالدًا مثل رئيسنا الخالد، فأجابني بذات الجواب، قال لي: (اخرس وإياك أن تفتح هذا الموضوع ثانيةً لأحد). فما رأيك أنت يا عُبد؟

– رأيي أن تخرس ولا تسأل أحدًا يا أكرم، بما أن الجميع أجمع على ذلك.

- لا يا عبد، يجب أن أعلم. ألم يقُل الرئيس: (اطلب العلم ولو في الصين).

- إذًا إسأل المُعلِّمة، فهي والمدير من أكثر الناس عِلمًا بأمور الرئيس الخاصة.

في الحصة الدرسية رفع أكرم يده يريد أن يسأل، فتفاجأت المُدرِّسة من هذه المُبادرة غير المسبوقة لأكرم، فهو نادرًا ما يُشارك في الدروس، فهو إما يرسم خطوطًا على ورقه أو يرخي أحد براغي المقعد أو يكربه أو يحفر في خشبه...

- تفضَّل يا أكرم قُل ما عندك.

- لدي سؤال خارج موضوع الدرس.

- اِسأل ما شئت، المهم أن أشعر بأنك موجود في هذا الصف ولو بالصُدفة.

- يا مُعلمة: كيف أصبح خالدًا مثل رئيسنا الخالد؟

صرخت به المُعلمة:

- اخرس يا عديم الفهم والذوق، يا تافه ومنحط، توقَّف عن التفكير بالرئيس وإلا ستقودنا وتقود نفسك إلى الهاوية، وركِّز على الرياضيات علَّك تنجح بها، بدلاً من التفكير بهذه الأمور.

عندما خرج الطلاب إلى باحة المدرسة كان أكرم مُطرِقًا ينظر إلى الأرض ويفكر، سأله عبد الرحمن:

-ما بك يا أبو الدلعونا؟، هيا أطلق عنان حنجرتك وأطربنا فنحن في استراحة قصيرة وسنعود بعدها إلى حصص التعذيب

فهيا غنِّي.

- لا أريد أن أُغنِّي، ولكني علمت كيف يصبح الشخص خالدًا.

- وكيف يكون ذلك؟

- بكل بساطة، فأنا من الآن أصبحتُ خالدًا.

- حسنًا، وكيف ذلك يا أكرم؟

- اِخرس ولا تسأل، فطالما أنت خَرِس ولا تسأل سأبقى أنا خالدًا... هذه هي الطريقة يا عبد، فإذا تساءلت ستزول عني كل مفاعيل الخلود، لذلك يجب أن تبقى أخرس لأبقى خالدًا.

- أكرم؛ لماذا لا تدع الرئيس وشأنه وركِّز فقط على الدلعونة، فأنت كلما تحدثتَ عنه أتتك مصيبة.

- والله يا عبد أنا أتركه وشأنه، ولكن هو لا يتركني، انظر؛ صوره في كل مكان،أنظرُ إليه، فأراه على الطرقات وفي المدرسة وفي باص والدي، وعندما أغمض عيني لأنام أراه، وحتى في حمامنا ألصقتْ أمي صورةً له لتغطي الثقب الذي في نافذة الحمام، وعلى كل صورة يا عبد كُتِبت عبارات رائعة مثل: (خالد - عظيم - رمز - مفدى - قائد المسيرة - حبيب الملايين - منحبك). فقط كنت أريد أن أعرف كيف أنجزَ كل هذه الأمور.

- وهل علمتَ الآن؟

- نعم علمت.

- وكيف أنجز كل تلك الأمور؟

- اِخرس يا عبد.

- اترك الرئيس يا أبو الدلعونة ودعنا نُغنِّي، أوشكتْ الاستراحة على الانتهاء.

- حسنًا يا عبد، بعد كل مقطع من الأغنية عليك القول: (آه يومًّا آه يومًّا).

- حسنًا سأفعل، لنبدأ.

- يا سايق السيارة...

- آه يومًّا آه يومًّا.

- دربك وعر وطلوعِي.

- آه يومًّا آه يومًّا.

- خذ بنزينك من دمي...

- آه يومًّا آه يومًّا.

- والبراغي من ضلوعي.

- آه يومًّا آه يومًّا.

- لماذا لم تقُل: (ليه يا ربي ليه ليه ؟) فهذا المقطع الأخير؟

- لم تقُل لي أن أقول ذلك.

- وها أنا أقول لك.

- لا أريد، جِدْ لك كورس غيري يا أكرم.

- اِخرس يا عُبَد.

= من مذكرات أليكس عن طفولته =

اِنصرف الجميع بعد أن أنهوا دفن والديّ أليكس، ولم يبقَ في المنزل سوى الجارة المُسِّنة والتي أخبرت الجميع بأنها ستبقى لتعتني بأليكس، وأقنعته أن يتناول وجبة العشاء وعاملته بمودة، وبعد أن تناول أليكس عشاءه صعد إلى غرفته...

– تُصبحين على خير.

– هل تودّ أن أنام معك بذات الغرفة؟

– لا، لا شكرًا، أُفضِّل أن أنام لوحدي.

وعندما بدأ بالصعود على السلالم المؤدية إلى غرفته توقَّف فجأة ونظر للأسفل، وكانت جارتهم لا تزال تُراقِبه، فقال لها:

– شكرًا على بقائك معي، وعلى كل شيء.

نظرت له بمودة وابتسمت وبدأت دموعها بالتساقط على خديها.

صعد أليكس إلى غرفته واستلقى على فراشه حزينًا عاجزًا على تفسير ما يحدث حوله، ثم استغرق في نوم عميق، ومع ذلك استطاع أن يحس بأن المرأة قد صعدت لغرفته بعد حين وقامت بتغطيته بشكل جيد، فرغم كونه مستغرق في نومه إلا أنه شعر وكأنه يراها ويشعر بالود والحنان الذي تُكنه له وهي تُغطيه بكل هدوء.

وعندما ابتعدت عن السرير، أحسَّ بأنه يراها تبتعد وتخرج

من غرفته، وكأن روحه خرجت منه وهي تتبعها وتراها بكل تفاصيلها، وكذلك بعد أن أغلقتْ الباب شعر وكأن الجدران أصبحت شفافة واستمر برؤيتها وهي تنزل السلالم.

ثم أحسَّ وكأنه روحٌ تتجول في أنحاء المكان، وترى كل شيء، ثم أخذت تعود باتجاه جسده النائم، ثم سمع صوت سقوط شيء ما، وشعر بأن روحه تلتفت باتجاه الصوت، وعندها تراءت له صورة الرجل الضخم الذي أنقذه في الغابة، ولكن بدت لحيته وشعره بلون أبيض ناصع بدل الأسود، ويمسك في يده قصاصة الورق التي دوَّن عليها (انتظرني)، ولكن الكتابة بدت بأحرف مقلوبة، ووجه الرجل كان مُرعِبًا نوعًا ما... عندها استيقظ أليكس مرعوبًا وهو يتنفس بسرعة.

= عبد الرحمن =

لا يزال عبد الرحمن يتذكر صديقه أكرم بين الحين والآخر، فعندما كانا يافعين شهدت البلاد موجة من الغلاء في أسعار المواد الغذائية، وأصبح هذا الغلاء حديث الأهالي جميعًا، ويذكر أنه خرج مع أكرم وثلاثة من أترابهم ليقضوا بعضٍ الوقت في ضواحي مدينة «داريا»، ودار بين الخمسة حديثٌ عن وضع البلاد والغلاء، وكان أكرم أكثرهم انفعالاً وعصبية وكان يمتلك رأيًا سليمًا وحججًا منطقية لأحاديثهِ مما يجعل رفاقه يُعجبون بكلامه.

في هذه الأمسية ارتكب أكرم الخطأ الذي دمَّر حياته وغيَّر مجرياتها بالكامل، فقد أمسك بقطعة من الفحم عن الأرض ثم كتب على حائط المدرسة التي كانوا بجوارها: (لا للغلاء)، فقال له أحد أترابه ويُدعى «طلال»:

- لا تكتب على الجدران، ألم يعلِّمونا في المدارس أن الجدران دفاتر المجانين.

- نعم هم يُعلِّموننا ذلك يا طلال لكي لا نكتب على الجدران ونفضحهم، هل انتبهتم لذلك سابقًا؟ أما الجدران فهي دفاتر الأبطال؛ دفاتر الأحرار التي ستمتلئ ذات يوم خطوطًا ورسومًا وألوانًا.

اندهش الأصحاب من فكر أكرم ومن عنفوانهِ، باستثناء عبد الرحمن الذي لم يطمئن لهذا الكلام، فهو من جرَّاء خبرته

السابقة يعلم بأن أكرم كلما توصَّل إلى نتيجة فلسفية ما، فهنالك مصيبة ستحصل، فهذا ما يحدث منذ الطفولة.

في ذات المساء ملأت سيارات المخابرات الحي بالكامل، وقاموا بدهن الحائط ومحو الكلمات، وتمَّ اعتقال عبد الرحمن وأصدقائه، باستثناء أكرم الذي لم يجدوه.

وفي الساعة الثانية عشر ليلاً، أي بعد أربع ساعات من كتابة الكلمتين على الجدار؛ وقف عبد الرحمن ورفاقه في غرفة مدير الناحية الذي ينتصب أمامهم وبجانبه أحد رجال المخابرات، والذي يجلس على كرسي مدير الناحية ويمد رجليه فوق المكتب، وينظر إليهم بإزدراء، ويتفحصهم وينقل نظره من أسفل كل يافع إلى أعلاه.

سأل مدير الناحية:

- مَنْ كتب على الجدار؟

سكت الأصدقاء ولم يجبه أحد، فقام مدير الناحية بصفع أحدهم على وجهه صفعة قوية للغاية، أدَّت إلى سقوطه على الأرض بعد أن اصطدم رأسه بجدار الغرفة قبل السقوط، ثم أعاد السؤال:

- مَنْ الذي كتب على الجدار؟

فتكلم اليافع الذي كان بجوار من تلقى الصفعة وكان يرتجف من الخوف:

- أكرم، أكرم ابن محمود الزلاف، صاحب الباص.

وبعد هذه الليلة اُعتقِل أكرم وغاب في السجون دون أن يُعرَف له طريق أو سبيل.

= من مذكرات أليكس عن طفولته =

رفض النوم العودة إلى جفني أليكس الصبي، ومَلَّ من الاستلقاء في الفراش، فانزلق من تحت الأغطية وتوجَّه إلى النافذة، والتي كانت على مستوى أرض العلية، التي تكوِّن غرفته. جلس وضمَّ ركبتيه إلى صدرهِ وأخذ يراقب الطريق والأضواء في منتصف الليل، ويرى سيارة والده المحطمة مركونة أمام البيت، أمَّا سيارة والدته فلا تزال على حالها.

شعر بشوقٍ رهيب لوالديه لا يمكن مقاومته، وكأنه احتراق مؤلم في صدره. وبدأت دموعه بالسيلان مع أنينٍ بصوت ٍمنخفض، ثم مسح دموعه بكُم كنزته الصوفية الطويل، وانتصب واقفًا وتمتم بصوت خفيض: (لم يعُد لي شيء في هذا المنزل، ولا في هذه البلدة أيضًا).

نزل السلالم حافيًا على رؤوس قدميه لكي لا يُوقِظ المرأة وهو يحمل حذائه بيده. وتوجَّه إلى خزانة الأحذية حيث كانت والدته تضع مفتاح سيارتها على سطحها، فوقعت عينه على صورة له ولوالدته ووالده فأخذها، وفتح الباب بهدوء وأغلقه على مهل، وتوجه إلى سيارة والدته وركبها ثم نظر إلى المنزل وتأمله قليلاً ثم أبعد نظره وهو يبكي، وأدار مُحرِّك السيارة وانطلق مبتعدًا.

= عبد الرحمن =

سُجِن أكرم في سجون سِرِّية لا يعلم مكانها أحد، ولا يَعرف من يدخل إليها أو من يخرج منها سوى القائمين عليها، ومن يسأل عن أي شخص دخل إليها يلحقونه بمن يسأل عنه. ولذلك سلَّم والدي أكرم أمرهما لله وغاب ذكر أكرم عن الحي كله، فالناس تخاف أن تذكر اسمه أو تسأل عنه فيصيبها ما أصابه، وألمَّ بوالدته حزن شديد غيَّر لون شعرها فأصبح أبيضّ، وبقيت تنتظر الإفراج عنه، حتى توفيت قبل أن يحدث ذلك.

وبعد وفاتها بسنتين تمَّ الإفراج عن أكرم، بعد أن قضى سبع سنين في الاعتقال، فتوجَّه عبد الرحمن إلى زيارته فور سماعه بالخبر، ودخل إلى الغرفة التي يستقبلون بها الزوار، فوجده جالسًا على فراشِهِ صامتًا مُطرقًا إلى الأرض لا ينظر إلى الوجوه ولا يجيب أو يكلِّم أيًّا من الزائرين، حتى ظنَّ الناس أنه أصبح مجنونًا.

جثا عبد الرحمن بجانب صديقه وهمس بأُذنه:

– كيف حالك يا «أبو الدلعونة»؟

عندها رفع أكرم حاجبيه وحرك رأسه ببطء وبطرف عينه نظر إلى عبد الرحمن، ثم ابتسم واندفع باتجاهه وضمَّه وأخذا يبكيان.

ثم تمتم أكرم:

- أخبرني ماذا فعلت في غيبتي ؟

- لقد درست المحاماة وتخرجت وأنا الآن أنتسب إلى نقابة المحامين.

- فعلت كل هذا وأنا لا أزال في السجن ولم أفعل أي شيء غير تحمل التعذيب اليومي.

- احمد الله يا أكرم أنك خرجت، فلا أحد يخرج من تلك السجون، فكيف أخرجوك من هذا السجن ؟

- هل تحفظ السر؟

- نعم.

- سأُخبرك أنت فقط يا عبد.

- حسنًا.

- هل تحفظ الكلمات الصباحية التي كنا نسمعها في المدرسة ونحن صغار؟

- نعم أحفظ بعضها.

- قُل لي واحدة.

- حسنًا: رفاقي رفيقاتي، مُعلميني مُعلماتي: صباح الخير... صباحٌ يطل علينا بالجدِّ والنشاط، رفاقي لا ترموا الأوساخ في باحة المدرسة فالمدرسة بيتنا الثاني، ولا تكتبوا على الجدران فالجدران دفاتر المجانين، وكما قال الرئيس المناضل: كُنْ بلسمًا إن كان دهرك أرقما... وحلاوةً إن صار غيرك علقما.

- نعم يا عبد هذه الكلمة الصباحية بالتحديد هي ما

ألهمتني لأعرف الخلاص من ذلك السجن، فمن يستطيع ان يفك شيفرتها سينجو، ففيها المشكلة وفيها الحل.

- وكيف ذلك يا أكرم؟

- دقِّق جيدًا بعبارة المدرسة بيتنا الثاني.

- نعم أنا أدقق.

- فبيتنا الأول هو بيتنا الطبيعي أي بيت والدنا ووالدتنا.

- نعم.

- ويبتنا الثاني هو مدرستنا... أليس كذلك؟

- نعم.

- ولكن هذا يشير ويُدلِّل على وجود بيتنا الثالث، فهل تعلم ما هو بيتنا الثالث يا عبد؟

- لا لا أعلم ما هو يا أكرم؟

- هو بيت خالتنا يا عبد، أي السجن السري حيث كنتُ.

- آآآه.

- وأنا لكي اخرج من بيتنا الثالث وأعود لبيتنا الأول، كان علي أن أمُرّ ببيتنا الثاني لأفسِّر ما تبقى من الكلمة الصباحية، وهي بالتحديد عبارة (الجدران دفاتر المجانين)، فهنا مربط الفرس وهنا اللغز الذي أوصلني إلى بيتنا الثالث ثم أنقذني منه وأعادني إلى بيتنا الأول مرورًا ببيتنا الثاني.

- كيف ذلك يا أكرم؟

- تظاهرتُ بالجنون، فأخرجوني.

وا بتسم.

= من مذكرات أليكس عن طفولته =

كانت الساعة تناهز الثالثة بعد منتصف الليل وأليكس يقود سيارة والدته في شوارع خالية مُتبعًا الطريق الذي سلكه عند مجيئه، مُستدلاً بالشاخصات التي كُتبِ عليها «منتزه كاكادو الوطني».

صار له قرابة الساعتين والنصف يقود السيارة، حتى وصل إلى المنطقة التي أقلَّه منها رجل الشاحنة، وبدأ يلاحظ الأشجار التي وضع عليها الإشارات، وعندها خفَّف من سرعة السيارة وانحرف بها ودخل في الغابة عدة أمتار، ثم نزل منها وترك أضواءها مُنارة لتُنير طريقه، وأخذ يمشي بالإتجاه الذي ظنه سيوصِّله إلى بيت الرجل الذي استضافه سابقًا، وبعد أن ابتعد عن أضواء السيارة أصبحت الرؤية صعبة ولا يرى أمامه إلا لمسافة قريبة، ثم سمع صوت ضباح الثعالب وحركة حيوانات في مكان ما من الغابة، فأخذ يركض بالاتجاه الذي اختاره... بعد ربع ساعة من الركض وصل إلى منزل من استضافه، واكتشف أنه قد جال حول المنزل ثلاث مرات دون أن يجده.

كان الباب غير مُقفل، دفع الباب فأصدر صريرًا متزنًا ودخل ليجد الرجل الضخم نائمًا على إحدى الآرائك، وكف يده مفتوح وعليه أوشام غريبة، وبدا الرجل مستغرقًا بالنوم

لدرجه كبيرة جدًا كما ينام الأطفال الرُّضع.

راقب أليكس ملامح الرجل الغليظة، ورغم ملامحه هذه إلا انه بدا مألوفًا وكأنه يعرفه منذ سنوات، ولسببٍ ما شعرَ بأنه أحد أفراد عائلته، ولوهلة أراد أن يوقظه ويخبره أن والديه قد توفيا، ويبكي على صدره، لكنه آثر أن يتركه، واكتفى بمراقبته لبرهة، ثم ذهب إلى فراشه الصغير الذي لا يزال في مكانه، واستلقى عليه، وبقيت عيناه مفتوحتين لبضع ثوانٍ، تنظران أمامهما دون أي حراك. ثم اغمضهما واستغرق في نوم عميق وهو يستنشق رائحة الورود المنتشرة في أرجاء المكان.

= عبد الرحمن =

– أبكل هذه البساطة انطلت عليهم الحيلة وظنوا بأنك مجنون؟! ألهذه الدرجة هم بُسطاء في بيتنا الثالث؟!

– لا... لا...هذه مسألة أخرى...

– ما هي؟

– كيف تتظاهر بالجنون؟

– كيف ذلك يا أكرم؟

– بكل بساطة يجب ان تصبح مجنونًا وعندها لن يشك أحد...

وأخذ يضحك بشكل غريب ،مما جعل عبد الرحمن يبتعد عنه قليلاً. ثم توقف عن الضحك ونظر إلى عبد الرحمن:

– هل تعلم ما يُدمي قلبي يا عبد؟

– ماذا يا أكرم؟

– أُمي... لقد تُوفيتْ قبل خروجي بسنتين، وما لم أكُن أودُّ الخروج إلا لأراها. كانت تزورني في المنام وتقول لي بأننا سنلتقي، فكيف كانت تزورني وتعِدُني وهي متوفاة؟! أكانت تكذب؟!

ثم عاد إلى الانكماش على نفسه، وجمع ساقي رجليه وشدَّهما إلى صدره، وأطرق مُجدَّدًا ناظرًا إلى الأرض.

وضع عبد الرحمن يده على كتفه مواسيًا:

– إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

نظر أكرم إلى عبد الرحمن وتوسعت حدقتا عينيه:

- هل يُمكنك أن تخدمني بشيء يا عبد؟

- نعم بكل تأكيد، اطلب يا أكرم، ماذا تريد؟

- أنت سمين ومناسب لهذه المهمة.

- ما الأمر يا أكرم؟

- أريدك أن تعيض عن أُمي، فأنت سمين وبحجمها تقريبًا، أريدك أن تكون أمي.

ثم وقف أكرم وغمر عبد الرحمن.

- لا أحد يمكن أن يعيض عن الأم يا أكرم.

- اخرس يا عبد لا أريد أن أسمع صوتك، فصوتك يُذكِّرني أنكَ لستَ أمي.

وبدأ بضم عبد وبتقبيل يده وجبينه، ثم دفع رأسه في كرشه، بينما عبد يربت على كتفه ودموعه تجري على خديه تأثرًا بحال صديقه.

بعدها تماسك عبد الرحمن وبلع ريقه وجفَّف دموعه بيده:

- هيا تعال معي يا أكرم.

- إلى أين؟

- إلى المسجد دعنا نصلي جماعة، إنه موعد صلاة العصر.

- لا داعي يا عبد الرحمن سنصلي هنا، لا أريد أن أرى الناس.

– ألم تعتبرني أُمك، فلماذا لا تقبل كلام أمك يا أكرم؟ هيا ارتدي ثيابك وهيا بنا.

ابتسم أكرم:

– حسنًا، حاضر يا أمي.

مشيا باتجاه المسجد، وبقي أكرم يتحدث معه على أنه أُمه:

– أمي هل ترين هذا؟ إنه جارنا أبو محمود، هل ترين يا أمي؟ لقد فتح صالون للحلاقة الرجالية...

وأخذ يضحك:

– سيفشل، لأنه لا يصلح إلا لجز صوف الخراف، أليست هذه مهنته الأصلية ومهنة أبيه قبله.

استمر في الضحك، وسرد الكثير من الأحاديث الأخرى وهو يتخيل أنه يُحدِّث أمه، فتحدَّث عن أنواع النباتات المنزلية التي تُزِّين الشرفات وأسمائها ومدلول أسمائها، وأسماء الله الحسنى، فهو يقول اِسمًا ويتخيل أن أمه تقول آخر، والكثير من الأحاديث الأخرى. بينما يمسك بيد عبد الرحمن ويشدها على أنها يد أمه، فيما دموع عبد الرحمن تتساقط بين الحين والآخر بحسب الموضوع الذي يُكلِّم أكرم به والدته.

عندما وصلا إلى المسجد، وهمَّ الجمع للصلاة؛ اندفع أكرم راكضًا وبدأ يصطدم بالمصلين ويصيح:

– ها هي هناك.

فركض خلفه المصلون لمعرفة ما خطبه، وعندما أوقفوه سأله عبد الرحمن:

- ما بك يا أكرم؟

- إنها هناك.

- من هي؟

- إنها أمي، كانت ترتدي ثياب الصلاة وتقف بجانب أحد الأعمدة.

هدَّأه عبد الرحمن وجعله يجلس. ثم أعاده إلى منزله.

منذ ذلك الزمن تحسَّنت حالة أكرم وعاد لرشده شيئًا فشيئًا وأصبح يأتي إلى المسجد كل يوم بموعد صلاة العصر ولكنه لا يؤدي الصلاة، يجلس وحسب، وبينما الجمع يؤدي الصلاة كان هو يبقى شاردًا وكأنه ينظر إلى الخلاء ولكنه كان مبتسمًا، كان يقول بأنه يراها في كل صلاة عصر تجلس بثياب الصلاة مُبتسمة له.

ورغم أنه تحسَّن وأصبح يعي الحياة بشكل جيد وامتهن مهنة دهان المنازل، إلا أنه لم يقلع عن هذا السلوك، وكان يقول إن والدته التي كان يراها كلما زار المسجد، هي التي عالجته من الجنون. وكلما رأى عبد الرحمن كان يشكره لأنه أعاد له أمه -على حسب قوله- باصطحابه إلى ذلك المسجد في ذاك المساء، وكان يقول بأن أمه تسكن في ذلك المسجد، وهي موجودة لتعطيهِ الراحة والسكينة والحنان، وأنها لا تعالجه من الجنون بالكلام بل تعالجه بالنظر وحسب، فهو ينظر إليها وهي تنظر إليه طوال فترة الصلاة، وبعد ذلك يذهب الجنون وتحل مكانه السكينة.

= من مذكرات أليكس عن طفولته =

كان صوت العصافير يملأ المكان، وأخذت رائحة الحبق والياسمين الصيني ورائحة القهوة تنكز أنف أليكس الصغير فأيقظته، ولكنه بقي في فِراشِهِ دون حِراك... نظر إلى نبتة الكورديل الحمراء المنزلية أمامه، ورأى بجانبه مجموعة من أخشاب قصب السكر المترابطة لتصبح عملاً فنيًا جميلاً، ثم مرَّتْ هِرَّة سمينة من جانب أصيص الكورديل الحمراء، وتمسحت به، ودخلت تحت السرير.

ابتسم أليكس وهو يشعر بالسعادة والفضول والرغبة بالحياة، ثم عادت لذاكرته صورة تابوتيّ والديه وتذكَّر وفاتهما بالأمس، فشعر بحرقة قاسية تجتاح صدره ورغب لو أنه مات أيضًا، لم يكن يعرف كيف يُفسِّر ويتقبل كل هذه الأحداث، وبدأت دموعه تسيل على خديه وتسقط صانعةً بُقعًا دائرية على المخدة البيضاء، واستمرت الحرقة في صدرة تتأجج، ثم سال أنفه على المخدة، فنهض وبدأ بمحاولة إزالة البقع عن وجه المخدة وهو ينشقُ، ودموعه تسيل على خديه.

عندها سمع صوت مضيفه في مكان ما من الصالة:

– هل استيقظت يا غريب؟

بدا صوت الرجل مستساغًا بما لم يتوقعه أليكس من

ضخامة جسده. نظر أليكس إليه وأخذ يمسح عينيه وأنفه بكُم كنزته.

- أنت تبكي؟! لا زلتَ صغيرًا على البكاء، استيقظ واغسل وجهك وتعال لنتناول الفطور ولنتحدث عن سبب البكاء، ولا بُد أن نتصل بوالديك لنُخبرهما عن مكانك، فحتى لو كنتَ على خصام مع والديك لا يجب أن تتركهما يقلقان عليك.

زاد بكاء أليكس... فيما تابع الرجل:

- ولا تظن أني لم أنتبه أنك سرقتَ كتابًا من مكتبتي.

هدأ بكاء أليكس قليلاً، وأجاب وهو يمسح أنفه وعينيه بكُمه المُبلَّل:

- أنا لم أسرقه، بل استعرته.

- وهل يستعير الشخص شيئًا دون موافقة المُعِير؟ وعلى فرض بأنك استعرته فلماذا لم تعيده حتى الآن؟

- لقد سقط مني في مكانٍ ما، ربما في الغابة أو على الطريق.

- هذه ليست سوى حجة سخيفة لتُبرِّر سرقتك للكتاب.

توقف أليكس عن البكاء وبدا مندهشًا ولا يعرف كيف يجيب. بعدها ضحك الرجل الضخم:

- لا تقلق، أنا أُمازِحك، لقد وجدتُ الكتاب في الوحل تحت شجرة مرتفعة في الغابة، يبدو أنك تسلقتها لسبب ما، ورغم أن حالته مزرية إلا أنه لا زال يصلح للقراءة. هيا لا تقف كشجرة اذهب وأغسل وجهك وتعال لتناول الفطور، فالفطور هو أهم وجبة لمن يريد أن يصبح رجلاً قويًا.

= عبد الرحمن =

كان عبد الرحمن يسير ويتدافع بين المُتدافعين، يصطدم بهذا، وذاك يدوس على حذائه، وفي يده ورقة مليئة بالطوابع وعليها شعار المحاماة، ويضم المُفكرة الخاصة بالمحامين إلى جانبه، وربطة العنق تكاد تخنقه، وإبرة شعار المحاماة المُثَبَّت على سترتهِ تشكّه في صدرهِ بين الحين الآخر، والعرق يسيل من وجهه على رقبته من الحَرِّ والازدحام، والورقة التي بيدهِ تقصَّفت بسبب ضغط قبضته عليها، وكِرشه المتدلي يزيد الطين بَلَّة فيصطدم بالمارَّة وكأنه بطيخة كبيرة يضعها تحت قميصه.

مرَّ مُحامٍ آخر بمحاذاتهِ فالتصق بكرشه من الزحام، وضع يده على كرش عبد الرحمن وهمس له:

- ما هذا يا أستاذ عبد؟ بأي شهر من الحمل أنت؟

ضحك عبد:

- في الشهر الخامس عشر.

وتابع سيره متوجِّهًا إلى غرفة الملفات، وعندما وصل وجد طاولة حديدية موضوعة أمام بابها لتمنع الناس من الدخول، فانزلق من تحتها ليصل إلى الباب وقد عانى بسبب كِرشه، وشعر بأن سِرواله الذي يرتديه قد تمزَّق بسبب الانحناء، وعندما انتصب بعد أن تجاوزها أخذ يتلمس مؤخرته لمعرفة

حجم الثقب في سرواله، أدخل أصبعه في الثقب: «بسيطة، إنه صغير، لن يُلاحظه أحد». ثم تابع المسير بغرفة مرصوفة وبشكل عشوائي من الأسفل إلى الأعلى بملفات الدعاوى بشكل يُوحي بأنها ستهوي في أي لحظة فوق رأس الناظر، ولم يبقَ سوى نصف متر في الأعلى لم يُملأ لأن الموظف لا يستطع الوصول إلى هنالك.

في نهاية الغرفة كان يقف الموظف صاحب هذه الفوضى المنظمة، مُتكِّئًا على أدراج الملفات التي تُوشك على السقوط ويُدخِّن لفافة تبغ طويلة وطنية سيئة الصنع وتُصدِر دخانًا وكأنك قد أشعلت كيسًا من النايلون، وكان ينفخه إلى الأعلى وكانه يحاول أن يملأ النصف متر الذي لم يستطع أن يملأه بالملفات بسبب عُلوه.

- أنت مُحامٍ جيد يا عبد الرحمن، ولكن هل من مُقدِّر؟

- اِسمع يا جهاد: هل تعلم كيف تُدرك وبنظرة واحدة إن كان محاميك يهتم بدعواك أم لا؟

- لا أعلم، كيف ذلك؟

- يجب أن يكون في نهاية الدوام قميصه فوق بنطاله وربطة عُنقه للخلف، وحذاؤه مليءٌ برسوم نِعال الأحذية، وذقنه تقطر عرقًا، ويجب أن يعُرج وتظهر آثار الكدمات على وجهه جراء التدافع، عندها سيكون مُهتمًا... أما إذا رأيته أنيقًا وبدلته مكوية و«جنتل»؛ فاعلم أن محاميك متأثر بالأفلام الأجنبية والمسلسلات التركية، وعلى دعواك السلام،

فالمفاهيم مقلوبة في هذا البلد، فالديمقراطية تعني الديمومة والتوريث، والمحاماة تعني البهدلة، والمهنة هي محنة...

وأشار إلى شعار المحاماة الحديدي الذي على صدره:

- وهذا الشعار هو جمعٌ بين كلمتين؛ الأولى: شيء، والثانية: عار... آه يا جهاد، وفوق هذه البهدلة التي نعيشها في هذه المحاكم انظر إلى هذا الكرش الذي أحمله أينما أذهب كما يقول المثل «فوق قرقه علقوا له ثقالة».

فبدأ جهاد بالضحك وهو يمضغ شطيرة من اللبن الجاف وأسنانه المتسوسة عن بَكرة أبيها ظهرتْ بالكامل.

= من مذكرات أليكس عن طفولته =

– ما اسمك أيها البطل؟

– اِسمي أليكس.

– آه أليكس... اسم قوي للغاية، فأنت الحارس، والبطل والحامي الذي يحمي الناس، هذا ما يعنيه اسمك، ولكن أخبرني ما الذي تحميهِ أنت بالضبط؟

– أنا لا أحمي أحدًا... أنا اسمي أليكس وفقط.

– أظن بأنك تحمي الكُتب التي تستعيرها.

ابتسم الطفل:

– لقد أطلق عليّ والدي اسم أليكس ولا أفكِّر بأن أحمي أحدًا، أما بالنسبة للكتاب فقد عاد إليك فلا داعي لأن تذكره بين الحين والآخر.

– آه حسنا فهمت إذًا والداك سميَّاك أليكس لكي يميزانك عن جارتكم.

نظر أليكس مستغربًا إلى الرجل، الذي أكمل:

– نعم، لأنهم لو لم يطلقوا عليك اسم فكنت ستبقى دون اسم، فكيف عندها سيميزونك عن جارتكم.

ابتسم أليكس الصغير وضحك. تابَع الرجل:

– طبعًا نحن افترضنا أن جارتكم أيضًا ليس لها اسم...

أخبرني الآن يا آرثر.....

- أليكس أليكس... وضحك الطفل.

- حسنًا، أخبرني يا أليكس ما اسم والديك؟

عبس الطفل وأخذ يمضغ اللقمة التي في فمه بصعوبة ثم قال:

- توفيا البارحة.

وأجهش بالبكاء.

= من مذكرات أليكس عن شبابه =

- لا يمكن للحياة أن تعود للخلف يا جانيت، فلا بد أن تهملي كل الذكريات الحزينة السابقة.

- نعم، نعم. أعلم ذلك، ولكني لا أستطيع، هناك قوة خفية تدفعني للخلف، قوة رهيبة تجعلني عاجزة عن تخطي تعبي وذكرياتي، فأنا مشدودة إليها بحزام حديدي. ربما ينبغي أن أزور طبيبًا نفسيًا.

- إنه معكِ دائمًا.

- ومن عساه يكون؟

- أنا يا جانيت... ألا تقبلين أن أكون طبيبك الخاص؟

ابتسمت جانيت:

- وهل تستطيع فعل ذلك؟

- سأحاول.

- أنت غامض يا أليكس، وبعد كل فترة تمر من زواجنا أشعر وكأني أتعرف عليك من جديد، أنت دائم التغيُر، هذا الأمر يُعجبني، ولكنه يُربكِني أيضًا.

- عندما يتوقف الإنسان عن التغيُر، فهو إمَّا مات جسديًا، أو أنه مات نفسيًا.

- حسنًا، سأقبل، مع أني لست متأكدة من النتائج، ولكن

ما رأيك قبل ذلك أن تُحدِّثني عن الفترة التي غِبتَها عن البلدة وأنت صغير، أين قضيتَ كل هذه المدة؟ أخبرني بذلك.

– ربما أُخبرك يومًا ما.

= من مذكرات أليكس عن طفولته =

ها هو الرجل الضخم الذي تعرَّف عليه أليكس منذ بضع ساعات يجلس بجوارهِ ويضع يده على كتفه:

- لا تحزن، كلنا سنموت يومًا ما، تناول إفطارك الآن وستصبح الأمور على ما يرام مع مرور الوقت... أخبرني ما اسم والديك؟ ومن أي بلدة أنت؟

أخذ أليكس يعطيه المعلومات التي يعرفها، والرجل يُدوِّنها على ورقة صغيرة، ثم توجه إلى الهاتف الأرضي، بينما كان أليكس لا يزال يتناول إفطاره.

سأله من بعيد:

- هل لك أقارب يا أليكس؟

- لا، ليس لي أقارب.

اتصل الرجل بأحدهم وكان يتكلم بصوت خافت، إلا أن أليكس استطاع سماعه، كان يقول لمن اتصل به:

- تأكّد لي من أن هذين الاسمين قد تُوفيا، وأن عزاءهما كان البارحة، واعرف لي إن كان لأليكس أي أقارب في كافة أنحاء البلاد، أريد المعلومات خلال أسبوع واحد، وكذلك اتصل بمركز الرعاية الإجتماعية، وأخبرهم أن أليكس عندي واعرف لي كافة الإجراءات التي تجعل هذا الطفل بوصايتي.

أغلق سماعة الهاتف وقال لأليكس:

- هل أعجبك بيتي؟ وهل توافق أن تعيش به ونبقى أنا وأنت إلى الأبد؟

- منذ أن شاهدتُ الغابة ومنزلك وأنا أتمنى أن أعيش هنا أطول وقت ممكن، وأنت تبدو رجلاً غامضًا ولديه خبرة في الحياة، وعلى يديك أوشامٌ جميلة، وأنا أرغب بتعلم كل هذا منك.

- إذًا سنعيش سويًا في ظِل هذه الغابة.

= من مذكرات أليكس عن شبابه =

جلست جانيت بمواجهة أليكس الذي قال لها:

- حدِّثيني عن كل شيء تحسِّين به.

- أنت تعرف بأني قليلة الكلام فيما يخصني من أمور ولا يمكنني بسهولة أن أعبر عن مشاعري الداخلية سوى بالبكاء.

- ستتمكنين هذه المرة.

تنفسَّتْ بعُمق وحسَّنتْ من جلوسها على مقعد الكرسي، وحدَّقتْ إلى أليكس مباشرةً، وفجأة شعرت بأن أفكارها تتلاشى وعقلها يصفو، وأحسَّتْ برغبة هائلة في الكلام لم تشعر بمثلها من قبل، فبدأت بالحديث بلهفة وبدون توقف وكأن الكلام يتدفق منها كجدول ماء...

تحدَّثتْ عن ماضيها وماضي تيمور والحاضر، وكُرهها للجنس وأحيانًا حُبها له، وكيف أنها تستلطف بائع الخضار في المتجر المجاور للمنزل ولكنها لا تحب إقامة أي علاقة معه، فهي تحب أن تراه من بعيد فقط، ودون أن يعلم هو بذلك...

حدَّثته عما تتمناه في المستقبل، كانت تتحدث دون توقف ودون حرج وكأن الشخص الذي أمامها ليس زوجها بل شعرت وكأنه والدها أو شيء مقدس قريب لروحها كثيرًا. تحدَّثتْ بطلاقة لم تحسب أنها تمتلكها، بينما أليكس جالس أمامها

مُحدِّقًا في عينيها دون أن ينبس بأي كلمة سوى أنه كان يُحرِّك رأسه أحيانًا.

استغربتْ من نفسها، فهي طوال فترة زواجها لم تتحدث معه بهذا الشكل السردي لكل خواطرها حتى أبسط مشاعرها وأشدها خصوصية.

لم يُقاطعها أبدًا، وشعرتْ هي وكأنها تُفرِغ حِملاً ثقيلاً من الرمال كانت تحمله على كاهلها.

= من مذكرات أليكس عن طفولته =

ها هي الأيام تمرُّ بسرعة، وأليكس الصغير ينمو لدى هذا الرجل الذي يبدو وحيدًا لا أبناء ولا عائلة ولا حتى أصدقاء.

التحق أليكس بإحدى المدارس التي تقع بقرية مجاورة، واستحصل الرجل على وصاية قانونية عليه، وأخذ أليكس يغادر إلى المدرسة في الصباح ويعود عند الظهيرة ليتابع حياته مع هذا الوالد غير المتوقع، والذي أصبح يناديه بـ«جدي»، ومنذ قرار الوصاية رسم مع أليكس خطة لحياتهما، قال له:

- كل شيء يحتاج لخطة، وبدون خطة ستبقى الأمور مُشوَّشة.

- حسنًا يا جدي، فما هي الخطة؟

- سأُعلِّمك أربعة أشياء، عِد على أصابعك...

- حسنًا.

- أولاً: الموسيقا.

رفع يده وفتح أصبعًا واحدًا منها.

- ثانيًا: الرياضة.

فتح الأصبع الثاني.

- والرسم.

- حسنًا.

- رابعًا: سنقرأ الكثير من الكتب التي في مكتبتي ونتعرف على خفاياها معًا... ما رأيك بكل هذا؟

- وهل ستقتصر حياتنا على هذا؟

ضحك الجدّ:

- بالطبع لا، بل يمكن أن نُدخِل العديد من الأمور الأخرى، ولكن ما ذكرته هو من الرئيسيات، فمثلاً سنقوم بالرحلات ونتعرف على الأصدقاء ونزور الآثار ونتعرف على مختلف الحضارات القديمة، وسنتعرف على الحيوانات التي تعيش هنا في هذه الغابة، فأنا صديق لجميع الحيوانات التي في الجوار، ويمكننا أن نقوم بأي أمر آخر تقترحه أنت.

- أنا أقترح أن نحفر في الأرض.

- نحفر ماذا؟

- أن نحفر أنفاقًا مثل حيوان الخلد.

حسنًا، سنحفر قليلاً.

- ولكن هل تتوقع يا جدي أن يتسع الوقت لكل هذا؟

- الوقت يمكن أن تجعله ضيقًا للغاية ولا يتسع لشيء ويكون عندها عدوك، ويمكن أن تجعله طويلاً للغاية ويتسع لكل أمور الحياة ويكون عندها صديقك.

- وكيف ذلك؟

- بثلاثة أمور: أولها هو تنظيم الوقت، وثانيها هو معرفة الهدف من الوقت الحالي وعدم نسيانه أو الالتفات لغيره، وثالثًا احترام الراحة والغذاء والنوم واعطائهم الوقت الكافي.

- وهل يستطيع الشخص أن يتقن التعامُل مع الوقت؟
- بالتأكيد... ولكن بعد الكثير من الخبرة.
- ومن أين تأتي الخبرة؟
- تأتي الخبرة من العديد من الأمور، ولكن أهمها هو المعاناة.

اندهش أليكس الصغير:

- حسنًا يا جدي، أنا شخصيًا أعشق المعاناة.

= من مذكرات أليكس عن شبابه =

وبينما أليكس يقطع الفاكهة وجانيت بجانبه تنظر إلى الغابات البادية من النافذة بنظرة شرود وكأنها نائمة وعيناها مفتوحتان، أخذ يتذكر كيف كانت جانيت خطيبة لتيمور، وكيف كانا يجهِّزان لزفافهما، وقبل هذا الزفاف بأسبوع اختفى تيمور بصورة غامضة، وكيف كانت آثار الدماء منتشرة في بيته، ولكن الجثة كانت مفقودة.

وعندما علمت جانيت بذاك الخبر أُصيبت باكتئاب حاد ونحفت وأصبحت عيناها غارقتين في وجهٍ شاحب، حتى جاء أليكس لمواساتها وعرض عليها الزواج، وشيئًا فشيئًا تغيَّرت حياتها، فكان أليكس بمثابة سفينة نوح التي أنقذتها.

– ولكن ماذا سيحدث لو علمت أنه هو وراء اختفاء تيمور؟!!

شعر بالقلق وأخذ يُفكِّر بذلك في نفسه.

= من مذكرات أليكس عن طفولته =

في جوّ من النشاط والحيوية كان أليكس الصغير ينمو، وكان دائم الشعور بالحماسة والشوق للحياة، ولم تكفِ كل تفاصيل الغابة ومنزل جده لإرضاء فضوله ورغبته الجامحة في الاكتشاف والبحث، حتى أنه أطلق أسماءً على الأشجار والحيوانات، فأصبحت جميع الأشجار والعصافير والسناجب القريبة من منزله تحمل أسماءً خاصة بها، فكان كقرد صغير يتجول في كافة أنحاء الغابة والمنزل ولا تتبعه سوى عيني جده من بعيد، والذي سعى إلى جعل حياة أليكس منظمة للغاية، فكان يُشرف على كل تفاصيل حياته وتعليمه ويؤمن له كافة احتياجاته، فهنالك مواعيد لدروس الموسيقا والرياضة والرسم، بعد عودة أليكس من المدرسة.

أمَّا فترة الظهيرة فهي الفترة التي كان يعشقها أليكس، فقد كان يلعب مع ساندي التي تصغره بقليل، وهي الفتاة الوحيدة التي تسكن بالقرب من منزله، وهي ابنة المزارع الذي يعتني بمزرعة جده المُحاذية لمنزله، ففي هذه الناحية لا يوجد سوى هذه المزرعة وهذا البيت الخشبي الكبير، وأقرب منزل يبعد عنهما عشرات الكيلو مترات. في فترة الظهيرة هذه كان أليكس وساندي يركضان كقردين صغيرين، ويعانقان الخراف في المزرعة ويُطعمان الخيول ويصنعان بيوتًا وطعامًا

بالحجارة والتراب، وقد أنشآ بمساعدة الجد ووالد ساندي بيتًا خشبيًا جميلاً ومضحكًا فوق إحدى أشجار الغابة، لا يستطيعان بلوغه سوى بسلم مصنوع من الحبال الثخينة، فكان هذا مقرهما الرئيسي، يقضيان فيه معظم فترة الظهيرة، وكان الحديث الأكثر شيوعًا بينهما هي قصة أليكس عندما سقط في النهر عن ارتفاع شاهق، وقد رواها أليكس لساندي مئات المرات، وكانت تنظر إليه في كل مرة يُعيدها باستغراب وتتفاجأ وكأنها تسمعها للمرة الأولى، وخصوصًا الجزء الأخير من القصة، وذلك عندما قرَّر هو وجده زيارة النهر الذي سقط فيه وذلك بعد السقوط بأشهر، ولم يصدق هو ولا حتى جده كيف تمكَّن من النجاة، بالنظر إلى المسافة التي تدحرج عليها ثم الارتفاع الشاهق الذي سقط منه، وكان جده يقول بعد أن يصفر صفرةً طويلةً: (لم يكن أحد لينجو من هكذا سقوط).

- والعجيب بالأمر يا ساندي ليس السقوط بحد ذاته بل بأني لم أتأذى كثيرًا، فقط بعض الجروح، ولولا تلك الصخرة التي حاول رأسي أن يدخل بها، لكنتُ بقيت بكامل وعيي وتابعتُ المغامرة، الأمر عجيب، أليس كذلك يا ساندي؟

كانت ساندي تنظر إليه في ذلك الكوخ المثبت على الشجرة بعينيها الواسعتين وملامحها المتعجبة والمتشوقة وقالت له:

- حسنًا يا أليكس لماذا لا نذهب أنا وأنت إلى هناك وتسقط من جديد لنرى لماذا لم تتأذى؟

= من مذكرات أليكس عن شبابه =

كان أليكس شاردًا ينظر من النافذة إلى المسافات البعيدة في الخارج، فسمع صوت جانيت خلفه:

– بما أنت شارد؟

فأجابها:

– لن تكوني سعيدة إذا علمتِ بما أنا شارد.

– حسنًا... إذًا لا أريد أن أعلم، فربما أنت شارد بإحدى الفتيات التي كنتَ تعرفهن في مراهقتك.

وغادرتْ وهي مبتسمة ابتسامةً خبيثةً.

تابع أليكس في شروده، فهنالك صورة من ذاكرتِهِ تراوده بين الحين والآخر، وهي صورة وجه تيمور المُهشَّم ورأسه بين رِجلي أليكس الذي يضغط بهما على عنقه بقوة لكي لا يفلت، ويثبِّت يديّ تيمور بيديه والدماء تسيل من وجه تيمور ورأسه، وتُخفِّف من حُمرتها الأمطار الغزيرة المتساقطة. وكان لا يُفكِّر بشيء سوى بمنعه من الإفلات. وبعدها هدأ تيمور وأمسى بلا مقاومة أو حِراك.

هذا المشهد الذي لم ينسَه منذ ذلك الوقت، فكيف سيُخبر جانيت فيما شروده، فحبيبها الذي عشقتْه في الماضي لقي مصرعه خنقًا بين رِجلي الرجل الذي تقدَّم بكل رحابة صدر

طالبًا الزواج منها بعد قتله لخطيبها، وأصبح زوجها الحالي، ماذا سيحل بعلاقتهما الزوجية في حال علمت بذلك؟؟؟

كان يُعيد هذا التساؤل في رأسه دائمًا.

ففي ذلك الزمن تعارك هو وتيمور لمدة ساعتين، وأُنهِك الاثنان، وبعد أن لقي تيمور مصرعه؛ قام أليكس بسحبه من قدميه ورماه في حفرة مليئة بالماء والطين بفعل الأمطار التي كانت تنهمر، ثم بدأ بردمها بالطين، ولم يكن يملك أي مجرفة، فحمل الطين بيده ودفعه أحيانًا بقدميه وأحيانًا بصدره وحتى بضهره ليغمر الحفرة، مما جعله ملوثًا بالكامل بالطين وانغمرت جثة تيمور بالكامل ولم يبقَ سوى وجهه الذي تمعَّنه أليكس قليلاً قبل أن يُغطيه بالطين، وغادر مترنحًا مبتعدًا عن القبر يدوس في الطين، والضباب يغمر الغابة، والأمطار الغزيرة تغسل وجهه، ولم يكن يدور في ذهنه سوى جملة واحدة: (هل أنا بالاتجاه الصحيح؟).

= من مذكرات أليكس عن طفولته =

- قِف أمامي يا أليكس.

وقف أليكس أمام جدهِ وهو مرخي اليدين في فسحة كبيرة من الغابة تحيط بها الأشجار من كل صوب.

- هنا سنتدَّرب دائمًا، وعلى خليط من الرياضات.

- وما هذه الرياضات؟

كان أليكس لا يزال يلهث، فقد أتيا ركضًا من المنزل إلى هذه الفسحة من الغابة.

- عِد على أصابعك يا أليكس: رياضة الوشو «الكونغ فو»...

رفع أليكس أصبع يده وهو يلهث ورأسه إلى الأسفل.

- ثانيًا: الملاكمة. وثالثًا: التايتشي،. والليونة ستكون من اليوغا، ورياضة استخدام السيف.

فتح أليكس كل أصابع يديه:

- وهل تُتقنها كلها يا جدي؟

- طبعًا، وأتقن أكثر من ذلك، ولكنك ستحظى بأستاذك الخاص بإحداها إذا ما أردتَ ذلك.

- وما الفائدة من رياضة استخدام السيف؟ فمن في هذا الزمن يحتاج إلى السيف؟

- سؤال ذكي. في القتال بالسيف أمور مهمة تجاهلتها الأجيال...

- ما هي يا جدي؟

- عبر مئات السنين كان السلاح الأبيض هو السلاح الوحيد، مما جعل جميع الشعوب تُطوِّر فن استخدام السيف وصناعة الفارس وأضافت إلى ذلك علوم نفسية تصنع من الشخص المتعلم فارسًا شجاعًا وقويًا وصبورًا وحكيمًا وتُعلِّمه التركيز. وعندما تطوَّرت المجتمعات ابتعدت عنها وعن كنوزها النفسية.

- حسنًا يا جدي، ها قد تمالكت أنفاسي.

- الآن يا أليكس سنقوم بجُملة من حركات المرونة، واليوم سنتعلم الملاكمة، وغدًا القتال بالسيف وكيف تصبح فارسًا نبيلاً.

- حسنًا، لنبدأ التمرين مع زقزقة العصافير.

= من مذكرات أليكس عن شبابه =

لم يكن أليكس ينوي قتل تيمور في ذلك المساء، فقد خرج ليتمشى في شوارع البلدة علَّه يُخفِّف الحُزن والضيق اللذين كان يشعر بهما في ذلك اليوم، فالتقى بتيمور، وقد كان هذا اللقاء صُدفةً بالنسبة له، ولكنه لم يكن صُدفة بالنسبة لتيمور الذي كان يراقبه وينتظر خروجه، وكان أليكس في ذلك الزمن يعمل كمُدقِّق للحسابات في شركة تعود ملكيتها لتيمور.

عندما التقيا أصرَّ تيمور على أن يتجوَّلا في الغابة، ولكن أليكس عارض، لأن الطقس كان سيئًا والسماء تُمطر بين الحين والآخر، ولكن أمام إصرار تيمور قبلَ بذلك، فلم يكن في ذلك المساء في مزاج يسمح له بالجدال.

توغَّلا في الغابة، وكان تيمور يفتعل الكثير من الأحاديث وكأنه يهذي، وفي مكان ما من الغابة توقَّف والتفتَ إلى أليكس وقد تغيَّرتْ ملامحه:

– لماذا تُراقبني يا أليكس؟

لم يكن أليكس قادرًا على الجدال في ذلك اليوم فأجابه:

– أنا أراقبك عن كثب، ومنذ سبعة شهور.

– ولماذا؟

– من أجل جانيت.

- جانيت! ما دخل جانيت بالأمر؟!

- إنها فتاة رقيقة وجميلة وتُحبك كثيرًا.

- أعلم ذلك.

- وهي لا تستحق أن تعيش مع تاجر مخدرات ومجرم وذئب متخفي بثوب حَمَل.

اتسعت عينا تيمور وبدا الغضب واضحًا عليه وكأنه يريد أن يلتهم أليكس بلقمة واحدة ويقتله، وكان مُتيقنًا بأنه يستطيع، فهو رياضي ومفتول العضلات، وقد حاز على ميدالية في التايكوندو مؤخرًا، إضافة إلى أنه أتقن القتل لكثرة ما قام به في عصابة هي أكبر عصابة للمخدرات في القارة الأسترالية. بينما أليكس يبدو مسالمًا وينظر إلى الأرض في معظم الأحيان كمغفل، ولا يبدو أن له علاقة بالقتال:

- أنت تاجر مخدرات يا تيمور، ولديك العديد من الحبيبات التي تُجبرهن على القيام بأشياء مريبة، فلماذا لا تترك جانيت بحالها؟!، فإذا استطعت أن أُثبت ما أعلمه للسلطات عندها ستنال ما تستحق.

ازداد تحديق تيمور بأليكس:

- اسمع يا مُدقق الحسابات، لقد رأيتُ أشخاصًا أغبياءَ كثيرًا في حياتي، ولكنك تفوقتَ عليهم جميعًا، وأستغرب كيف راقبني شخص غبي لهذه الدرجة وكل هذه المدة دون أن ألحظ ذلك، والآن وبكل غباء تبوح بما تعلم ظانًّا بأني سأترك أعمالي وجانيت وأتوسل إليك لكي لا تُخبر السلطات...

وضحك ضحكة مصطنعة ودار حول نفسه، وكأنه يبتدأ رقصة باليه، بينما لفت نظر أليكس «ببغاء جالا» الذي يعتلي أحد أغصان الشجرة المجاورة، وأخذ يتذكر جدَّه عندما كان يُدِّربه في هذه الغابة على العديد من الرياضات، حيث قال له في إحدى جلسات التمرين: (أهم شيء ألا يعرف خصمك قوتك، واجعله يظن أنه سينتصر عليك ببساطة، عندها ستكون قد كسبت المعركة قبل أن تبدأ، فمقاتلو النينجا يقولون: دع خصمك ينمو تحت الشمس، أما أنت فنم في الظل).

- بما أنك تجمع الأدلة يا أليكس سأعطيك دليلاً لتشعر بالسعادة قبل أن تموت، ففي هذا المكان بالتحديد دفنتُ العديد من الأغبياء أمثالك، وتلك الحفرة هناك حفرتُها خصيصًا لأجلك، ستكون قبرك الدافئ وسأدفنك بها بعد أن أتولى طقوس جنازتك طبعًا وأقرأ كلمة التأبين.

- تيمور؛ هل ترى ذلك الطائر الذي على الشجرة؟

نظر تيمور إلى الأعلى:

- أراه، إنه «ببغاء جالا».

- نعم أعلم إنه ببغاء، أنا أعرفه منذ أن كان زغلولاً، لقد ربَّيته أنا وجدي. هل تعلم يا تيمور أن عمر هذا الببغاء الآن هو ثلاثون عامًا؟

- أنت أحمق يا أليكس.

سحب تيمور مسدسًا من جيب سترته وصوَّبه باتجاه رأس أليكس:

- لا تخف يا مُدقق الحسابات، فلن أقتلك بهذا السلاح، بل سأقتلك بحذائي وأستمتع بتأوهاتك، فأروع شعور تحسه على الإطلاق، عندما تمسك برجل ضعيف وغبي، وبعدها تنتزع ثيابه ثم تبدأ بتجريحه بسكينك وتسمع تأوهاته مع كل حركة من يدك.

ثم رمى المسدس بعيدًا ولبس قفازاتٍ مطاطية وسحب سكينًا من جيبه:

- أخبرني يا مدقق الحسابات، أليس في ذلك مُتعة؟

- نعم بها مُتعة، ولكن للنفوس المريضة.

- أنت مُخطئ يا أليكس، إنها نزوة ما بعدها نزوة، ومُتعة عارمة، وكلما كان مَنْ تُعذِّبه ضعيفًا؛ زادت المتعة، وخصوصًا في لحظة مفارقته للحياة، عندما يهدأ جسده بين يديك. آه آه يا مدقق الحسابات كم هذا جميل، ولكنك ستكون في الجهة الأخرى من المعادلة ولا أظنها ممتعة من تلك الجهة.

- هذا ما كنت أريد أن أحمي جانيت منه بالتحديد، هذا الوجه القذر الذي تُخفيه.

- هل تظنني سأفعل هذا مع جانيت؟ كلا، فجانيت مقدَّسة بالنسبة لي، إنها ملاك تعيش معها لتشعر بمتعة الحياة مع الملائكة، أما هذه النزوة فلا يشعر بها المرء إلا مع الضعفاء والأغبياء أمثالك، فوجودهم في هذا الدنيا لا نفع منه.

- أنت مُخطئ يا تيمور، فجانيت التي تراها الآن ملاكًا، سيزول شعورك بالتقديس تجاهها بعد الزواج، وعندها

ستعود لوجهك القذر هذا، وسيأتي يوم تجد جانيت نفسها في مكان أي ضعيف تستمتع بقتله.

- أنت جيد في تحليل الأمور يا أليكس، لو كان في حياتك متسعٌ من الوقت لجلستُ معك مطولاً وتحدثنا في أمور نفسية كثيرة، ولكن للأسف حياتك أوشكت على الانتهاء، ولا أريد أن أسمع صوتك تتكلم بعد الآن لكي لا تُفسد علي سكرتي، فقط أريد أن أسمعك تئن وتتأوه حتى تفارق هذا العالم.

- تيمور؛ الأمور لا تحل بهذه الطريقة.

عاد لذاكرة أليكس مشهد لجده يقف أمامه وهو يحمل سكينًا وقال له: (هيا خلصني السكين وأنت أعزل ركِّز على المعصم ثم الوجه، فبعد أن تتفادى السكين وتلوي المعصم عليك أن تمسك الوجه وتشل حركة خصمك كاملة، وبعدها يمكنك أن تكسر له عنقه أو تلكمه، وأهم شيء أن يتناغم تنفُسك مع حركتك، وعندها لن تتعب أبدًا مهما طال العراك.

اقترب تيمور من أليكس وهو مبتسم ومذبل العينين وكأنه يبتغي سُكرًا أو نشوةً ما، ويحرِّك السكين في يده وكأنه ذاهب لاقتلاع فطر:

- سنبدأ بتمزيق الثياب أولاً، وبعد ذلك ننتقل إلى الجلد.

تفاجي تيمور من السرعة والغرابة التي استحصل بها أليكس على السكين من يده بعد أن لواها عندما قرَّب السكين منه، وبينما تيمور متفاجئ من ليونة أليكس وسرعته شعر وكأنه أُصيب بصدمة مريعة على وجهه، لقد كانت لكمة قوية لم

يتلقَ في حياته لكمة بقوتها، وكأنها رفسة حصان أوقعته على الأرض لا يرى شيئًا.

عندها رمى أليكس السكين واقترب من تيمور المُلقى على الأرض:

- هيا يا تيمور لنعُد إلى البلدة يجب أن تتعرف على الشرطة، فأنا اليوم أمر بظروف عصيبة ولا أريد ان يزداد الوضع سوءًا.

عندها دفع تيمور نفسه بقوة باتجاه أليكس، وتعارك معه عِراكًا طويلاً انتهى بموته ودفنه في الحفرة التي حفرها بنفسه.

= من مذكرات أليكس عن طفولته =

كان الجدُّ يُعرِّف أليكس على أقسام المكتبة الضخمة، وما يضم كل قسم منها من أصناف الكتب، بينما كانت ساندي تجلس على الأريكة وتحاول إخراج يد لعبتها المكسورة والتي علقت بين إسفنج الأريكة وزاويتها، وذلك بمد خيط رفيع ليد اللعبة لتُمسك به، قد تبدو الطريقة مستحيلة ولكن ساندي كان لديها إيمان بأن اليد البلاستيكية ستمسك الخيط عندما شعرت بانها في مأزق وأخذت تنده لها: (أمسكي الخيط... أمسكي الخيط).

كان صوت الجد يعطي بعض الصدى في القاعة الكبيرة:

- وهذا قسم الفلسفة... وهنا توجد أدراج الخرائط لبحار وبقاع الأرض وجبالها...

- حسنًا، وماذا يوجد في ذلك الجزء العالي من المكتبة، أقصد تلك الكتب الضخمة الغريبة المُغبَّرة.

- تلك الكتب يا أليكس كتب عجيبة ولن أطلعك عليها إلا عندما تصبح شابًّا.

- لماذا، لماذا لا نقرأها الآن فورًا؟

وبعد أن أكمل أليكس كلامه سقط أحد الكتب الضخمة من الأعلى وأتى أمام أليكس مباشرةً وانفتح وصعد حوله

الغبار، فظهرت على صفحاته نقوش كالمرسومة على راحة يد جدهِ تمامًا.

هبَّ هواء قوي من الخارج، ففُتحت نوافذ المنزل كافة، وبدأ بعض أثاث المنزل يتساقط... أسرع الجد إلى إغلاق الكتاب، فهدأت الرياح، ثم وضع سُلمًا طويلاً وصعده ليعيد الكتاب إلى مكانه وهو يقول:

- ستقرأ هذه الكتب عندما تكبر لا تستعجل الأمور، فلا أحد ينال شيئًا إلا عندما يستحقه، وإلا ستخسره ولن تستفيد منه.

= من مذكرات أليكس عن شبابه =

كان أليكس يتذكر جده دائمًا، ويتذكر كيف سخَّر حياته لتربيته، واستفسر عن ذلك عندما كان يافعًا وقال له:

- كيف تؤجِّل حياتك وتُهملها وتنفق معظم وقتك على تربيتي؟ وخصوصًا بأني لست ابنك بل أنت وصيٌّ علي، فمن أين أتتك هذه العاطفة؟

فأجابه:

- هل تعرف المثل الذي يقول (رُبَّ أخٍ لم تلده أمك)؟

- نعم أعرفه يا جدي.

- يمكننا أن نسوق عليه ونقول: (رُبَّ أبٍّ لم يُقبِّل أُمك).

وأخذا يضحكان، ثم أضاف أليكس الذي كان يحب صناعة النكات في عمر اليفاعة:

- ورب ابن عم أنجبته زوجة خالك.

وتابعا الضحك، ثم أكمل الجد كلامه:

- لا أرى نسبًا حقيقيًا بين الآباء والأبناء، بل أرى أن هذا النسب إنما يعني المورثات، ولكن الإنسان أكثر من ذلك، هناك علاقة روحية تُحدِّد من هم أبناؤك ومن هم أخوتك ومن هم أحباؤك وأصدقاؤك، بعيدة عن النسب، وأنا شعرتُ بأنك ابن روحي وأكثر، وأحببتك كما لم أحب أحدًا، ولا أفهم

مغزى الجُملة، بأني لست أباك بل وصي عليك، فأنا لا أفكِّر سوى بأني أحبك حُبًّا جمًّا، وعندما يقرِّر الإنسان أن يكون أبًّا يا أليكس يجب أن يكون على قدر قراره، فأي رجل يمكنه أن ينجب الأطفال ولكن القلائل هم الرجال الذين يمكنهم أن يكونوا آباءً بالمعنى الحقيقي للكلمة.

لم يفهم أليكس الكثير مما أخبره به جده في تلك الأيام سوى طُرفة: (رُبَّ أبِّ لم يُقبِّل أمك، ورُبَّ ابن عم أنجبته زوجة خالك). وأخذ يعيدها أمام أصدقائه ويزيد عليها ليضحكوا. ولكنه الآن بعد أن أصبح على عتبة أن يرزق بطفلتين توأم أصبح يفهم هذا الكلام جيدًا، فهو الآن يضع الخطط ليصنع لابنتيه القادمتين حياة جميلة ومثالية.

فأليكس الآن يتذكر كل التفاصيل التي جرت في طفولته ومراهقته ويرغب بأن يخبرها لأحد، لصديقه أو لزوجته والتي تسأله دائمًا عما جرى معه أثناء غيابه عن البلدة في صغره ومراهقته، ولكنه لا يعرف من أين سيبدأ وكيف سيخبرها عن الأحداث الغريبة، وكيف سيصف تلك الأمور العجيبة والتي لا تُصدَّق، وهو مُوقِنٌ بأنه في حال قصَّها على أحد، فلن يتوقع من السامع سوى تكذيبه، وليس هذا وحسب بل هو نفسه لا يعرف كيف حدثت كل تلك الأحداث وأي منها كان صحيحًا. فعلى سبيل المثال، كيف سيخبرها بأنه عندما بلغ الواحدة والعشرين جاب العديد من دول العالم وتعرف على العديد من الأشخاص وتعلَّم منهم وعلَّمهم؛ وهو مستلقي على الأريكة لم يبرح مكانه؟ وهل سيتوقع منها أن تُصدِّقه؟؟

أم ستعتبره مُصابًا بالذهان؟ وكيف ستنظر له بعد ذلك؟ فهل ستنظر بإعجاب أم باستغراب أم باستهزاء، وما سيكون تأثير ذلك على علاقتهما الزوجية، أسيؤثر سلبًا أم ايجابًا؟

- سيبقي ما حدث هنا فقط .

هكذا قال مُشيرًا إلى رأسه .

= من مذكرات أليكس وهو يافع =

بدأت ملامح أليكس بالتغيُر، فقد أصبح يافعًا، والتحق بجامعة تشارلز في داروين مختصًا بعلم الآثار والمتاحف.

- لقد بلغتَ الواحدة والعشرين يا أليكس، وقد ولّى زمن اللعب والسذاجة، والآن أنت مُقبِل على عهدٍ آخر.

- على ماذا أنا مُقبِل يا جدي؟

- مُقبل على عهد من التعلُم والإرادة والمعاناة.

- وبعد ذلك؟

- بعدها سيأتي زمنٌ من الراحة والحكمة.

ابتسم أليكس بوجه جده الضخم والذي بدأت تظهر عليه التجاعيد وعلامات التقدُم بالسِّن، وانحنى ظهره قليلاً عمَّا كان عليه، وأصبح شَعْر ذقنه موشَّحًا بالبياض، وقد اعتاد أليكس على كلام جدهِ الغامض والعميق وأصبح لا يأخذه سوى على محمل التشويق والإثارة ليس إلاّ.

- هل رأيتَ هذا الباب الخشبي من قبل؟

- أي باب؟... لا يوجد أي باب في هذا المكان.

قام الجد بتحريك أحد كُتب المكتبة يمينًا، ثم إلى الداخل، فتحرّكتْ إحدى خزائن المكتبة الضخمة ليظهر باب خشبي.

تفاجأ أليكس بهذا الباب، فلقد تجوَّل منذ صغره في هذا البيت جيئةً وذهابًا ويعرفه زاويةً زاوية وحُجرةً حجرة، ولكنه لم يلحظ أبدًا وجود باب سِرِّي تُغطِّيه المكتبة.

- عندما نفتح هذا الباب وندخل؛ ستنتهي حياتك القديمة، وستبدأ حياة جديدة أشد حزنًا ولكنها أشد فرحًا، وأشد مُعاناة ولكنها أشد علمًا وراحة، سترى ما لم تكن تقوَ على رؤيتهِ سابقًا، سينفتح قلبك على أمور لم تكن تراها في هذه الحياة، ولن تتمكن بحال من الأحوال أن تعود إلى ما أنت عليه الآن.

سكت الجدّ قليلاً، ثم تابع:

- فأمامك خياران، إمَّا أن تدخل عبر هذا الباب وتتغير إلى الأبد، أو ألا تفعل وتبقى على حالك وتعيش حياة طبيعية كما يعيش سائر البشر.

أهمل أليكس جميع التحذيرات ولم يُدقِّق في الوصف، فلطالما شرح له جده نظريات وأخبره عن فلسفات وعجائب بلُغة جميلة ومثيرة كهذه، فكلامه الآن لا يعني لأليكس سوى التشويق والإثارة، فكيف له أن يعرف أمام هذا الجد الذي غمره بالثقافة والعلم طوال حياته؛ أنه في هذه اللحظة بالتحديد وفي هذا التحذير حصرًا هو يعني كلامه ويقصده ولا يبتغي أي تشويق أو إثارة، وبأن اتخاذه لأحد هذين الخيارين سيكسبه حياةً جديدةً ويدمِّر القديمة، ويجعل منه شخصًا آخر.

وفي الحقيقة ليس هذا فقط ما جعل أليكس لا يعتني

بتحذيرات جده، فعقله في هذا اليوم كان بعيدًا كُليًّا عن التشويق والتحذيرات والأبواب المخفية، فهو لا يستطيع أن يُفكِّر سوى بصورة صديقته وهي مُتكئة على أحد المقاعد الطويلة في حديقة جامعة «تشارلز»، تحت شجرة كبيرة بجانب صديقتها، وتضحك بشكل مبالغ به، فبينما كان صديق أليكس الذي يقف بجواره يلقي على مسامعهم نِكاتًا تافهة تدعو للشفقة على قائلها أكثر من الضحك، أما هي فكانت تنفجر بضحك قويٍّ فاجر، وتميل على صديقتها فيبدو جسدها مُغريًا بالنسبة له، وأصبح بالكاد يتمالك نفسه تجاهها، فهو يعاني لمنع يديه من لمس جسدها الذي يضحك ويتمايل أمامه... وحتى هذه اللحظة التي يقف بها مع جده أمام هذا الباب السِّري الخشبي والذي يزعم جده بأنه سيُدمِّر له حياته السابقة، فهو لا يستطيع أن يستبعد صورتها من أمام عينيه، ويتمنى لو أن جده يذهب بعيدًا هو وبابه المخفي وما يختبئ في داخله من أمور ستدمر له حياته، ليستطيع أن يتخيلها ويذكرها بحُرية أكبر.

لكنه سمع صوت جده يلح عليه بضرورة اختيار أحد الخيارين... أجاب بسرعة وبشرود:

- سندخُل، سندخُل... لا تخفْ من شيء يا جدي.

= عبد الرحمن =

– يا أستاذ عبد الرحمن، هل يوجد أي حل قانوني أستطيع به أن أُنجي موكلي من هذا الجُرم؟

كانت المحامية عفراء تزور عبد الرحمن لاستشارته، وذلك كلما واجهتْ أمرًا مُعقدًا، ليرشدها ويجد لها حلاً قانونيًا تتبعه.

تكلَّم عبد الرحمن بينما يُقلِّب أوراق الملف الذي وضعتْه أمامه:

– لكل جريمة ثلاثة أركان، فإذا ما تحقَّقت، ثبت الجرم على المتهم، وهي: الركن المادي والمعنوي والقانوني، أي الفعل والقصد، والنص الذي يُجرِّم الفعل ويُحدِّد العقوبة. وهذا ما اكتمل عند موكلكِ كالبدر في سماء ليل صافية، فأين المفر؟ فإذا كانت استشارتكِ لي تتلخص «بكيف سأخفي الشمس بغربال؟» فأنصحك أن تخفي الغربال وتحافظي على ماء وجهك، فالتهمة ثابته بحقه مئة وخمسون بالمئة، فلن تستطيعي أن تفعلي له شيئًا، اللهمَّ سوى أن تزوريه في السجن وتأخذي له بعض الكعك ليقرمش ويتسلى.

كانت المحامية عفراء تجلس على كنبة الاستقبال بشكل مائل، فتجاهلت الفكاهة في كلام عبد الرحمن، أو ربما لم تستطع أن تستمتع بها لقلق في نفسها، فعدلت من جلوسها وأخذت تفكر بشرود وانزعاج بادٍ، ثم قامت بفك الدبابيس

التي تحزم إيشارب وجهها، ونزعته، وكأنها تبحث عن الهواء، وتنفست بعُمق، واستحصلت على سيجارة من حقيبتها الجلدية الصغيرة وأشعلتها وبدأت بتدخينها، فهي لم تكن ترغب بأن يكون جواب عبد الرحمن على هذا النحو.

وبعد قليلٍ من التفكير ونفخ الدخان يمينًا وشمالاً أخذت نفسًا عميقًا وعادت لانحنائها السابق وابتسمت:

- أنت ضليع بأمور القانون يا أستاذ عبد الرحمن، وجئتُ إليك وكُلي أمل أن أجد حلاً قانونيًا، يوفِّر علي حلاً آخر.

- حلاً آخر؟!! وما هو؟

تمهلتْ عفراء قليلاً ولم تُجب، وزمَّتْ شفتيها وكأنها تكتم سِرًّا، ثم حرَّكت حنجرتها وكأنه تبتلع لقمة جافة، وترميها في معدتها لكي لا ينتبه لها أحد، ثم بدأت بالكلام ببطء أمام انتظار عبد الرحمن لجوابها على سؤاله:

- لقد عددتَ أركان ثبوت الجُرم، وهذا ما توضِّحه كُتب القانون، أما في الحقيقة فهنالك ركن رابع يعلو عليها ويهدمها جميعًا...

وضحكت برفق، شاركها عبد الرحمن الضحك:

- وما هو هذا الركن بالله عليكِ؟

- ستعرف ذلك عندما تقرأُ ما في الواقع إضافة إلى ما في الكتب، وأن تقرأ ما بين السطور وما تحتها أيضًا.

- أيوجد فرق بين ما بين السطور وما تحت السطور؟

- طبعًا.

- وما هو؟

- ما بين السطور: هو معنى أوضح للعبارة، أمَّا ما تحت السطور فهو الغاية التي تكتب العبارة من أجلها.

عدَّل عبد الرحمن من جلوسه:

- هذا جميل.

- فإذا ما أردتَ أن تهدم كل الأركان التي ذكرتها، وتجعل الركن الواقعي هو المسيطر، عليك أن تُغيِّر ما تحت السطور وليس بأن تغيِّرها أو تغيِّر ما بينها، أي أن تغيِّر الغاية من النص القانوني الذي يُطبِّقه القاضي.

- وكيف تغيِّرين الغاية؟

- بكل بساطة، فما هي الغاية من كل القانون ومن عمل المحامين والقُضاة؟

- ما هي؟

- هي العدالة، أليس كذلك؟

- بلا، هي كذلك.

- هذا بيت القصيد. انتهى الأمر.

- كيف انتهى؟ لم أفهم عليكِ يا عفراء.

- آآآه حسنًا، بكل بساطة: غيِّر غاية القاضي من تحقيق العدالة لغاية أخرى، وعندها ستكون غيَّرت ما تحت السطور وستلغى كل الأركان التي ذكرتها سابقًا، وسيبقى نص القانون على حاله، ولكن النتيجة ستكون مختلفةً، لأنك غيَّرتَ ما تحت السطور.

بدا عبد الرحمن مُحدِّقًا بها يحاول تفسير كلامها الذي لم يفهم منه الكثير، ثم قرَّر أن يتجاوز هذا التحليل ويُكمِل الحديث:

– ما رأيك يا عفراء أن أقرأ أنا ما في الكُتب وأزوِّدك بحاجتك منها؟ وتقرأين أنتِ ما في الواقع وتُخبريني عنه؟

– الأولى مُمكنة، بأن تعلمني ما في الكُتب، أمَّا الثانية فغير مُمكنة.

– ولماذا؟

– لأن الواقع لا يُفهم بالكلام، بل باللمس...

وحرَّكت يدها على ساق رجلها من الأسفل للأعلى وكأنها تشرح ما تقول:

– عليكَ أن تلمسه وتتحسَّسه وتعيشه لتتعلمه.

– سأنتظر ذلك اليوم بفارغ الصبر.

وضحكا.

ثم سمعا صوت الرنين الذي يصدره حسَّاس الباب الإلكتروني لينبئ بدخول زائر إلى غُرفة الاستقبال المجاورة. وعندها عدَّلت عفراء من جلستها وشرعت في تنسيق الايشارب، وشكَّلته بالدبابيس، وأعادت علبة السجائر إلى حقيبته، ثم انتصبت لتغادر، وصافحت عبد الرحمن بيدٍ أرختها وتركتها لبعض الوقت، حتى بدت كعجينة طرية في يدهِ لا يدري ما يصنع بها...

– شكرًا على المشورة يا عبد الرحمن.

- على الرحب والسعة، أهلاً بكِ عندما تشائين، ولا تترددي في طلب العون في أي وقت.

أومأت برأسها وانصرفت.

وبينما هو يتبعها إلى الباب الخارجي تفاجئ بالزائر من غير موعد، إنه الرجل غريب الأطوار الذي ترك منذ بضعة أيام حزمة الورق المعنونة بـ «مذكرات أليكس بارتونسن» على طاولته، وغادر دون أن يستجيب لطلبه بأخذها معه.

= من مذكرات أليكس وهو يافع =

لم تُفارِق صورة الفتاة مُخيّلته، ولم يتمكن من السيطرة على رغبته رغم وجود جده بجانبه، فهو يعاني من هذه المشاعر الجيَّاشةِ منذ البلوغ وحتى الآن ولكن لم يشعر بها تبلغ هذا الحد كما شعر بها اليوم.

كان الممر ضيقًا وطويلاً ومبنيًّا من الحجارة البيضاء القديمة، ورائحة الرطوبة والأشنيات تملأ المكان، وفي الأعلى تظهر نوافذ زجاجية بين الحين والآخر، ويُغطّي معظمها خيوطُ العنكبوت، وكان الجد يحني ظهره ليتمكن من المرور، وعيناه شاخصتان للأمام وكأنه يترقب ظهور وحش ما من أخر الممر.

بدأت صورة الفتاة تذهب وتعود إلى ذهن أليكس، وكلما تذكَّرها شعر بإثارة لا تنتهي... (لماذا كانت تتحرك بتلك الطريقة؟ ولماذا جسدها كان يبدو كوحدة مستقلة عنها؟ وكأن له شخصية مستقلة، وكيان مستقل وأهداف مستقلة عنها، فهو يدفعه إلى مداعبته في حين قد لا ترغب هي بذلك.

أخذ يُفكِّر بكل تلك الأسئلة ويُعيد أحداث هذا اليوم في ذاكرته، فكان يقف بجوار صديقه، وكانت ليزا وصديقتها تجلسان متجاورتين على مقعد في حديقة الجامعة، وعندها

أخذ صديقه يقول بعض النِّكات الرديئة، فبدأت تضحك وترمي بنفسها على حضن صديقتها المبتسمة، ثم تعود وتستوي، وهي تنظر إليه لا إلى صديقه الذي يقول النِّكات، وهو كان يراقب جسدها غير المُتزن مع المحيط يتمايل بطريقة غريبة جعلته بالكاد يستطيع أن يسيطر على جسده وقلبه ويديه، ولذلك أُصيب بخجل عارم أدَّى إلى احمرار وجهه وسيلان أنفه وأخذ ينظر إلى الأرض تارةً وإلى الفتاة المكتنزة المترنحة تارةً أخرى ويسحب منديله ويفرك به أنفه ويده ترتجف... (ربما كانت تضحك علي وليس على النِّكات)... قال لنفسه، (وربما لاحظتْ أني مُثار أو مرتبك من جسدها فأعجبها هذا الشعور بأن تثيرني فأخذت تزيد من سلوكها الغريب، حسنًا، لماذا لم أُثيرها أنا أيضًا؟ لماذا بدت واثقة من نفسها وتستهزئ بمشاعري، بينما أنا بدوت مشغولاً بأنفي فقط؟).

ثم تذكَّر كتاب لـ«كولن ولسن» يتحدث عن أصل الدافع الجنسي، وتذكَّر بأن التصرفات الطفولية مثيرة جدًا للجنس الآخر، (ربما هذه القاعدة التي جعلتني أُصاب بهذا الشبق منذ أن اجتمعتُ بها... آه ماذا أفعل بهذا التيس الذي في داخلي؟ والذي يريد أن يركض وأن يخرج من هذا النفق العفن وينطلق إلى حديقة الجامعة ويصدم تلك الفتاة، كيف أهدِّأه؟ كيف أُروِّضه؟).

كانت كل تلك التساؤلات وأكثر، تجول برأسه دفعة واحدة وهما يمشيان في النفق، عندما وجد نفسه وقد سقط على

الأرض إثر اصطدام رأسه بحجر بارز عند قنطرة منخفضة في النفق، كان الاصطدام مدويًا وقويًا، فسقط على الأرض وهو لا يرى سوى وميض تلك النجوم التي ظهرت فجأة أمام عينيه مع ظلام دامس، وشعر بخطوات جده تتجاوزه ثم تعود إليه ركضًا:

- ماذا حدث؟ كُن منتبهًا يا أليكس.

وبعد القليل من الوقت بدأ يُبصر بالتدريج. فانتصب واقفًا وتابع المسير. قال الجد:

- عندما تسير في نفق شبه مظلم ركِّز جيدًا ولا تُفكِّر في النساء.

ابتسم أليكس وتابع المشي وتساءل في نفسه: (كيف عرف بأني أفكر بالنساء؟)

نظر باتجاه الأرض فأدرك الجواب فورًا، فقد كان سرواله يظهر للعيان بأنه مُثارًا... (تبًّا) وعدل من شكل سرواله... (آه، هكذا علم إذًا).

ولكن هذه الملاحظة لم تكن هي الطريقة التي علم بها الجد بما يُفكِّر أليكس.

= عبد الرحمن =

ودَّع عبد الرحمن المحامية التي كانت بزيارتهِ بلباقة، ونظر إلى مديرة مكتبه؛ والتي أجمع كل من رآها من زملائه بأنها قبيحة ومخيفة ويجب عليه استبدالها، إلا أنه كان يرفض ذلك ويجيب مازحًا: (يجب أن يخاف من يدخل إلى مكتبي لكي لا يناقش بالأتعاب)؛ فقاطعها وهي تتكلم مع أليكس وتكشر بوجهه كمشعوذة:

- لا يمكن أن تقابل الأستاذ بدون موعد مسبق أعطيك إياه أنا شخصيًا.

- «إزدهار» أعدِّي القهوة للضيف.

وطلب من الرجل الدخول إلى غرفتهِ، وذلك أمام أعينها المندهشة من هذا التصرف غير المسبوق من رئيسها.

جلس الرجل الغريب، وجلس عبد الرحمن قُبالته على آرائك الضيوف، وحدَّق في هذا الرجل الغريب ذي الأعين الكبيرة وبشرة الوجه الجافة والمتجعدة قليلاً، والجسم النحيف المتناسق وثيابه الفضفاضة وشعره الطويل المربوط بربطة سوداء، وفكَّر بنفسه: (يبدو مختلفًا عن جميع السكان هنا، ويبدو متواضعًا وذا هيبة وكأنه حيوانٌ بريٌّ لا يعتني بما يعتني به غيره). ثم قال:

- أخبرني يا عمّ، هل أنت الذي كتبت هذه الأوراق؟

أجاب الرجل:

- بل الأحداث هي من كتبتْها، وأنا فقط تذكَّرتُ تلك الأحداث ونقلتُها على الورق.

ابتسم عبد الرحمن ابتسامة خبيثة:

- هل تمزح معي يا.....

- أليكس، اسمي أليكس.

- أليكس مثل اسم البطل في هذه الأوراق.

- لا... بل أنا هو، فهذه مذكراتي الشخصية.

- أنت تمزح أليس كذلك؟ فالأحداث التي ترويها فيما تسميه بـ«المذكرات الشخصية» هي أحداث خيالية ولا يُعقل أنك عشتها ولا يمكن بحال من الأحوال أن تكون مذكرات حقيقة.

دخلتْ إزدهار وقدَّمت القهوة للضيف وهي ترمقه بإزدراء، مستغربة استقبال رئيسها له، فهو غريب الأطوار ويرتدي ثيابًا فضفاضة، ولا يعتني بمظهره، وشعره طويل أشعث ومربوط مثل شعر النساء، ومخالف لما اعتاد الرجال في هذه البلاد من لِباس أو مظهر، وفكَّرتْ في نفسها: (هذا الرجل يحتاج إلى حجاب ليخفي شعره، هل هو منحرف جنسيًا يا ترى؟).

ابتسم أليكس وهو يحمل فنجان القهوة ويتملق إزدهار وهي تخرج:

- إنها تشبه شكل الساحرات في قصص الأطفال.

ثم تابع الحديث مع عبد الرحمن:

- في الحقيقة يا أستاذ، إن هذه المذكرات تحكي أحداثًا حقيقية مئة بالمئة، وحدثت معي شخصيًا.

ابتسم عبد الرحمن ابتسامة صفراوية:

- إنها كتابات جميلة يا أليكس، رغم أنها تحتوي على ملايين الأخطاء الاملائية ومكتوبة بخطٍّ رديء للغاية، ولكنها جميلة وخيالية، ولكن لا يمكنك أن تتوقع مني بأي شكل من الأشكال أن أُصدِّق أن أحداثها حقيقية وأنها حدثت معك، فهذا مستحيل!

- اعذرني في البداية على الأخطاء، فرغم كوني حائز على دكتوراة في علم الآثار واللغات القديمة وأتقن العديد من اللغات الحالية، إلا أني تعلمت اللغة العربية منذ بضع سنين فقط.

فكَّر عبد في نفسه: (هذا الشخص يكذب، فلا شك أنه أجنبي، ولكن أي دكتوراة يتحدث عنها؟! فشكله لا يوحي بأنه صاحب جاه أو مكانة علمية، وما الذي يدفع شخص لديه دكتوراة من أستراليا وثري أن يأتي إلى مكتبي لأصيغ له مذكراته كرواية؟؟!!

- هل لديك صورة من شهادة الدكتورة التي تتحدث عنها؟

ابتسم أليكس وضحك ضحكة خفيفة:

- وهل أنا آتٍ لتوظفني؟!

- ولماذا أتيت إذن؟

بدأ هذا الشخص يُصبح أكثر غرابة بالنسبة لعبد الرحمن،

وأصبح يُحدِّق به أكثر:

- لقد جئتُ لأطمئن على ما صنعته بمذكراتي.
- إنها جميلة يمكن أن تكون عملاً أدبيًا رائعًا يوم ما
- اعمل عليها بجد فليس لديك الكثير من الوقت.

رفع عبد الرحمن حاجبيه مُستغربًا طلب الاستعجال هذا.

- أمَّا إذا أردت إثباتًا على صدق هذه المذكرات وأنها ليست خيالية فسأمنحك إثباتًا.
- ما هو هذا الإثبات؟
- المحامية التي كانت بزيارتك.
- ما بها؟
- هل أخبرتك بشيء لم تفهمه؟
- نعم، أخبرتني أمورًا لم أفهمها.
- مثل ماذا؟
- تحدَّثت عن ركن واقعي يغير ما سيصدره القاضي من أحكام ولا يعرفه الشخص إلا باللمس والتجربة، وأمور أخرى.

ثم فكَّر عبد الرحمن في نفسه: (لماذا أُجيبه؟ فما شأنه بما يجري من أحاديث في مكتبي؟

- ليس لي شأن، فقط كنت أريد أن أعطيك إثباتًا.

تفاجأ عبد الرحمن وأرجع رأسه إلى الخلف وشعر بالخوف، كون جواب أليكس بدا وكأنه سمع الحديث الذي جال في نفسه.

– حسنًا عند الساعة الثانية عشر ليلاً ستفهم كل شيء.

وقف الرجل، مُغادرًا غير مستجيب لنداء عبد الرحمن الذي أراده أن يجلس ليكمل الحديث، ولا لنداء «إزدهار» حول وجوب الاستجابة لطلب رئيسها، والتي بدأت تقفز عن الأرض غيظًا لرعونة هذا الضيف المتكررة.

غادر كما غادر في الزيارة السابقة.

أخذ عبد الرحمن نفسًا عميقًا وتمتم:

– من أين أتى إليَّ هذا الرجل ومذكراته.

وجلس على كرسيه وأغمض عينيه لاستجداء بعض الراحة.

= من مذكرات أليكس وهو يافع =

وصل أليكس وجدّه إلى نهاية الممر، فرأى قاعة كبيرة تتوسطها طاولة بيضاء، ويبدو المكان نظيفًا على خلاف الممر، وتنتشر رائحة الحبق والورود كما هو الوضع في منزلهما تمامًا، وكان هناك عدة أبواب أخرى لذات الصالة...

– إلى ماذا تؤدي هذه الأبواب؟

– تؤدي إلى الخارج بواسطة أنفاق تشبه النفق الذي مررنا به.

– حسنًا، ما هذا المكان؟

– ستعلم كل شيء بعد قليل.

صعد الجد على أدراج سلم حلزوني ضيق يتجه إلى الأعلى، وكأنها أدراج مُنَارة، فأخذ أليكس بالصعود خلف جده، وكان الدرج مُعتمًا قليلاً ومُنارًا بمصابيح فضية اللون.

بعد القليل من الصعود بدأ أليكس يرى من خلال نوافذ زجاجية في الجدران كعوب الأشجار ووجه الأرض، وأدرك بأن الليل يوشك على الحلول، ثم بدأ يرى الأقسام العلوية من الأشجار، ثم أصبح يرى قممها بموازاتهِ...

– ما هذا يا جدي؟ هل هذا برج أم أنه منارة؟

– ستعلم عندما نصل إلى الأعلى.

عندما تجاوزا علو الأشجار، صاح أليكس:

- مستحيل، كيف يُعقَل أن يكون هذا البرج في هذه الغابة ولم أره طوال حياتي؟!

- كما لم ترَ الباب، هنالك أشياء لا نراها رغم وجودها.

وصلا إلى غرفة كبيرة دائرية ذات جدران قليلة الارتفاع وتغطيها قُبَّة زجاجية عالية، وفوق الزجاج ألواح من الحديد، وفي منتصف الغرفة تليسكوب كبير، ورُسِم على الجدران لوحات لأُناس بدائيين يرقصون ويجلسون، وبجانب التليسكوب أريكة بيضاء تبدو فخمة وعالية الجودة تصلح للجلوس أو النوم.

تنقَّل أليكس بين الرسومات التي على الحائط، ثم نظر إلى التليسكوب:

- ما هذا يا جدي؟ ما فائدة التليسكوب في قاعة مغلقة؟

- اجلس على الأريكة يا أليكس.

جلس أليكس على الأريكة المستطيلة وتفاجئ كم هي طرية ومريحة، وشعر بداخله بالإغراء تجاه هذه النعومة...

- ماذا الآن يا جدي؟

- كُنْ صبورًا يا أليكس.

كان الجد يفتح صندوقًا بجانب الباب يحتوي على مفاتيح وقواطع كهربائية... استلقى أليكس على الأريكة وبدأ يحك ظهره بها، عندما سمع طقطقة قوية ثم رأى الألواح المعدنية،

تتحرك ببطئ، ثم انكشفت كل ألواح الحديدة، وأظهر الزجاج لوحة هائلة ورائعة للنجوم منتشرة في قُبة السماء.

صُدِم أليكس لروعة المنظر وكاد قلبه يطير مُحلِّقًا بين النجوم:

- يا لروعة النجوم يا جدي.

وفكَّر في نفسه: (سأدعو «ليزا» ذات يوم إلى هنا.

- تعال يا أليكس، أُنظر في عدسة التليسكوب.

أخذ الجد ينقل أليكس بين مجموعات النجوم مُسمِّيًا له إياها، ثم بدأ يتكلم، بينما أليكس ينقل نظره بين النجوم...

- نحن الأوروبيون استوطنا في أستراليا، وتشاركنا حضارتنا مع السُّكان الأصليين، ولكننا لم نعتنِ كثيرًا بحضارتهم والتي بقيت بالنسبة لنا مجرد حضارة بدائية، وإذا ما نعتني بها في هذه الأيام فبغرض جذب السياح ودمج مكونات المجتمع الأسترالي لا أكثر، ولكن في فلسفة هذه الحضارات ومعتقداتها فهم عميق للكون، بل هو أعمق مما نفهمه نحن.

كان أليكس بين الحين والآخر يزيح نظره عن عدسة التليسكوب وينظر إلى جده، ثم يعيدها إلى العدسة...

- تُصورُ معتقدات السكان الأصليين اتصالاً فريدًا بين الإنسان والكون، بل قُلْ اندماجًا بينهما، فكانوا ينظرون إلى النجوم على أنها مسننات تعمل معًا لتنظيم هذا الكون، والإنسان متصل بهذه التكنولوجيا الكونية.

ترك أليكس التليسكوب وحدَّق بجده...

- والشخص الذي يستطيع أن يصل إلى ذاته سيدرك مقدار اندماجهِ مع هذا الكون، وسيتصل مباشرةً بهذه التكنولوجيا، وبعدها سيجد السعادة وسيسمح له أن يُعدّ مسننًا من مسننات هذا الكون، ويصبح كنجمة من نجومه.

- جميل هذا الكلام يا جدي، لم أكن أعلم بأنك تقول الشِّعر.

- أنا لا أقول الشعر يا أليكس، أنا أقول الحقيقة.

- حسنًا يا جدي، وكيف يمكن للإنسان أن يصل إلى ذاته وبعدها يصبح مُسننًا أو برغيًّا أو راصورًا في هذا الكون؟

ابتسم الجد:

- التجارب هي من تصنع منه ذلك يا أليكس، ولكن ليس التجارب في حياة واحدة، بل التجارب في حيوات كثيرة.

- أتقصد مثل البريطانية «دوروثي أيدي» التي تذكرت حياتها عندما كانت راهبة فرعونية قبل آلاف السنين؟

- لا، لا أقصد ذلك ، لا تقاطعني يا أليكس... إن الإنسان يعيش أكثر من حياة، وعند تكرار هذه التجارب وتكرار نجاحه بها سيصبح الشخص مسننًا في هذه التكنولوجيا، وسيولد ليجد نفسه يصلح لذلك، ودون أن يفعل أي شيء يُذكر في حياته الحالية، فما صنعه؛ صنعه سابقًا، أمَّا في هذه الحياة فهو مسنن جاهز ليوضع في مكانهِ المناسب في الكون «مثلك أنت»، ويحتاج فقط إلى من يضعه في مكانه.

- اشرح لي يا جدي بكلام أكثر بساطة لو سمحت.

- حسنًا، في هذه الدنيا توجد أجساد لا حياة بها، وهي كل الأشياء الجامدة، مثل الحجر أو هذا الكرسي المعدني.

- نعم.

- وهناك أجساد تحتوي على حياة مثلي ومثلك ومثل الحيوانات.

- نعم هذا صحيح.

- وهناك أيضًا حياة لا تحتوي على أجساد، وهي اللامادة.

حملق أليكس مندهشًا بجده. والآن قد أصبح ناسيًا تمامًا ما حدث معه في حديقة الجامعة.

- وفي هذه اللحظة سأساعدك على اكتشاف ذاتك، وبأنك مسنن جاهز للاستخدام في هذا الكون.

- ماذا؟

- وسأفصلك عن جسدك.

وقف أليكس عن الأريكة:

- هل ستقتلني يا جدي؟ هل هذه مزحة أو خدعة ما؟

- اجلس يا أليكس

نظر أليكس مرتبِكًا:

- أنت تمزح أليس كذلك؟

ثم جلس وأخذ يُحرِّك رأسه يمينًا وشمالاً، ويُحرِّك رجليه ويعدِّل من جلسته بين الحين والآخر:

- هل هذه أسطورة يا جدي؟

- نعم يا أليكس إنها أسطورة، ولكنها ليست كذلك بالنسبة لك.

= عبد الرحمن =

كان عبد الرحمن مستلقيًا على الأريكة أمام التلفاز، والساعة أوشكت أن تبلغ الثانية عشر ليلاً ولا يزال بثياب العمل، فقد كان يومًا شاقًّا بالنسبة له.

أخذ يتذكر زيارة الرجل الغريب وكلامه، وقال لنفسه: (إن هذا الرجل غامض، وسيجلب لي الجنون). ثم أغمض عينيه قليلاً ليستجدي بعض الراحة.

عندما رنَّ مُنبه ساعة الحائط، برنته الهادئة التي تُنبئ بأن الساعة قد بلغت الثانية عشر من منتصف الليل، وبينما عبد الرحمن يستمع إلى هذه الرنة وهو مغمض العينين، شعر وكأنه يرى المحامية عفراء بشكل ضبابي، ثم أخذت الرؤية تتضح أكثر فأكثر، كان النائب العام يدفعها برفق إلى سريره، والذي أحدث صريرًا مزعجًا لدى جلوسها عليه، وابتسم وهو يفك ياقته بسرعة غير مجدية:

- تكلمتُ مع قاضي الإحالة وغدًا سيوقِّع على إخلاء سبيل موكلكِ وبكفالة زهيدة، وبعد أن يخرج، يمكنه أن يأخذ أمواله ويسافر أينما يريد كما تريد الأستاذة عفراء.

ابتسمت عفراء وقالت:

- لقد أعطيتُك جُزءًا من المبلغ المتفق عليه، وغدًا سأرسل لك ما تبقى من حصتك.

- ولكن يجب أن تعلمي أن هذا المبلغ لن يكون لي بالكامل، فسأعطي جُزءًا منه لقاضي الإحالة.

ثم ابتسم:

- نعم أفعل ذلك، فإنه يستحق، لقد تعب معنا.

عدَّل عبد الرحمن من استلقائه على أريكته وجلس، وهو مستغرب كيف أنه يحلم وهو مستيقظ.

تحسَّستْ عفراء السرير الذي تجلس عليه وابتلعت ريقها وتمنت أن تنتهي هذه الليلة بأسرع ما يمكن، وبدأ العرق يسيل من جبهتها بفعل الحرّ، فقد أغلق النائب العام جميع النوافذ والستائر لكي لايسترق أحد النظر أو السمع، فبدأ مسحوق التجميل الذي دهنت به وجهها يذوب بفعل العَرَق والحَرّ، فاستلقت على السرير ومسحت وجهها بيدها محاولةً إزالة العَرَق وتحسين شكلها، ولكن الأمر زاد سُوءًا.

عبد الرحمن يعرف عفراء جيدًا منذ أيام الجامعة ولم يكن يظن بأنها تبيع نفسها وترشي النائب العام لتكسب الدعاوى وتجني المال. وهو يعرف النائب العام منذ زمن ويعلم أنه بغاية النزاهة والجدية والالتزام بالقانون، حتى أنه يبدو للكثيرين متزمتًا أكثر مما يجب.

كان النائب العام يخلع ملابسه وينظر إلى وجه عفراء والذي بدا كوجه مُهرِّج بعد أن مسحته بيدها، فقد امتزج فيه اللون الأبيض مع لون حُمرة الشفاه الحمراء مع لون الكحلة السوداء، فأرهبه شكل وجهها وعبس لثوانٍ: (من هذا المُهرج الذي ينام على سريري؟!).

ثم تابع خلع ملابسه: (لتبدو كما تشاء؛ كمُهرِّج أو مُلاكِم).

أمَّا عفراء فكانت تتذكر حبيبها الأول، ذلك الشاب قوي البنية زكي الرائحة جميل الهيئة، وتعيد ذكرياتها معه وهي مُغمضة العينين، كخدعة ذهنية تلجأ إليها لتتجاوز مثل هذه الظروف وما تُرغِم نفسها عليه، ولكن الرائحة التي تسلَّلت إلى أنفها من جسد النائب العام كانت أسوأ من أن تدع هذه الذكرى تسيطر بسلام على ذاتها وتُريحها، فقد كانت رائحته بعد نهار عمل كامل، وهذا الحرّ الشديد والنوافذ المغلقة وانقطاع التيار الكهرباء وما يؤديه ذلك من صنوف التعرُّق، كرائحة ملح البحر مع صفار البيض، فأحسَّتْ بأنها توشك على التقيؤ.

لم يكن عبد الرحمن يرى ما يفعل النائب العام وعفراء وما يجول بخاطرهما وحسب، بل كانت تصله معلومات عن ماضيهما بمجرد أن يسأل أي سؤال بعبارة: لماذا؟ فقد رأى الكثير من ماضي عفراء والذي قادها لأن تفعل ما تفعله، وعلم الكثير عن ماضي النائب العام وكيف استحصل على منصبه هذا، فما فعله ليصبح نائبًا عامًا لا يقل عما تفعله عفراء لتكسب هذه القضية.

والآن فهمَ ما قصدته عفراء بالركن الواقعي الذي يهدم فعالية الأركان القانونية لتحقق الجرم والقصاص من المجرم، والذي يُبقي النص على حاله، ولكنه يُغيِّر الغاية منه، فها هي قد ربحت الدعوى، فموكلها المجرم سيأخذ الأموال ويُغادِر

البلاد، وليحكم القضاء ما يشاء بعد ذلك، أما المجني عليه والمدعي فلجهنم... هذا هو العدل في هذه البلاد!

حدَّث نفسه: (ها هي الشمس تخفى بغربال، لقد علمتُ ما هو الركن الواقعي، ولكني سأتركه لكِ ولأمثال هذا النائب).

= من مذكرات أليكس وهو يافع =

- حاول أن ترى النجوم وتشعر بأنك جزء منها يا أليكس.

تمدَّد أليكس على الأريكة ونظر إلى السماء فرأى النجوم بمنظر رائع، ثم أغمض عينيه وبدأ بتخيل نفسه نجمًا من هذه النجوم.

قال الجد:

- أنت الآن مثل «الدجابوجاي» الكائن الأسطوري لدى سُكان أستراليا الأصليين، تستلقي بذات الطريقة وتنظر إلى النجوم مثله تمامًا.

كان أليكس يعرف سلسة الجبال والتي تقع في شمال شرق أستراليا وسط الغابات الإستوائية الرطبة، والتي تبدو كعملاق ضخم مستلقٍ على ظهره ويراقب النجوم، فقد كان السُّكان الأصليون يقدِّسونه، فكَّر بأنه الآن مثل «دجابوجاي» وقال في نفسه: (ما هذه السخافة؟).

- سأستخدم طاقتي لمساعدتك على الخروج من جسدك في المرة الأولى، وبعدها ستتمكن من ذلك لوحدك، ولكن قبل ذلك أخبرني لماذا اخترتَ هذا الخيار ولم تختر عكسه رغم كل التحذيرات؟

- لا أحد يستطيع أن يعاند قدره، فلن يكسب من العناد

سوى إضاعة الوقت، ألم تقل لي أنت ذلك؟، وأضفتَ أن القدر هو من جلبني إلى منزلك في الغابة عندما كنتُ صغيرًا.

- حسنًا، اسمعني يا أليكس، بعد قليل ستشعر بالغثيان والدوار، وبعدها سينفصل جُزءك اللامادي عن جسدك المادي وسيخرج، وسأتركك هذه المرة تختار طريقك بنفسك، فاختر المكان الذي تريده واِذهب إليه، وإذا احتجتَ إلي عُدْ إلى هنا وسأخبرك بأي شيء تريد معرفته.

ابتسم أليكس وهو مغمض العينين، وأومأ برأسه غير مُصدِّق لكل هذه الأقاويل العجيبة، وحاول أن يصفِّي ذهنه ويفكِّر بالنجوم والمسننات... وفجأةً سمع صوت صفير وأزيز مزعج يملأ أذنيه، حاول أن ينهض ولكنه لم يعد يرى شيئًا سوى ظلام دامس، وبعد بعض الوقت ذهب الأزيز، ليحل محله سكون وصمت مطبق.

- ما الذي يحدث أين أنا؟

أخذ يفكِّر بذلك، ثم شعر بأن المكان أصبح باردًا وبدأ يشعر بالدوار... ثم وجد نفسه وقد سقط عن الأريكة وجثا على ركبتيه، نظر حوله فلم يرَ شيئًا، ظلام يأتي ويذهب فتظهر ملامح الغرفة لبرهه ثم تزول، فتحرَّك وانتصب واقفًا، وبعد قليل بدأ يرى المكان بوضوح شيئًا فشيئًا، إنها ذات الغرفة، جده يجلس على كرسي بجانب الباب، لا شيء تغيَّر سوى أن جده غيَّر مكانه وجلس بجانب باب الغرفة. نظر خلفه فأصيب بخوف مفاجئ عندما رأى نفسه لا يزال مستلقيًا على الأريكة

فأخذ يعود إلى الخلف من الخوف وهو ينظر إلى جسده المُمدَّد وعينيه المغمضتين والابتسامة التي ترتسم على شفتيه، ويداه متشابكتان فوق بطنه.

أرعبه منظر ذاته، فاستمر بالرجوع إلى أن وجد نفسه يتجاوز الزجاج ويمر من خلاله كما يمر الضوء، نظر تحته فرأى الأشجار، فقد كان مُحلِّقًا فوق الغابة، ارتعب من هذا المشهد، ودفع نفسه ليعود إلى الغرفة راكضًا وليجد نفسه أمام جده مباشرةً والذي كان منتصبًا يراقبه، ولكن جده بدا شابًّا ورشيقًا وقويًا ونظراته حادة.

قال أليكس:

- أنت جدي؟

- لا؛ أنا جزء منه فقط، أما الجزء الثاني فهو هناك.

نظر أليكس ليجد جسد جده جالسًا على كرسي خشبية بجانب باب الغرفة مغمض العينين، وكان كما عرفه كهلاً وذا لحية موشحة بالبياض.

- ما الذي يحدث؟ من أنت بالتحديد؟ وكيف خرجت من جسدي؟

= عبد الرحمن =

إنها الساعة الثامنة والنصف، رنَّت الساعة الرقمية في يد عبد الرحمن فأيقظته، ليجد نفسه مرميًا على الأريكة أمام التلفاز، وكأنه سقط عليها من السماء فوجهه بجانب المخدة وإحدى رجليه على مسند الأريكة والأخرى على الأرض، وهو لا يزال بثياب العمل، البذلة والقميص مفكك الأزرار والحذاء الأسود المخلوع نسبيًا ورائحة جواربه تملأ المكان.

شعر وكأنه نائم منذ أعوام وكأنها كانت غيبوبة وليست نومًا.

انزعج من ارتدائه لثياب العمل التي كانت ملتصقة بجسده بسبب التعرُّق، وانزعج من رائحة جواربه الواخزة، وتذكر بأن لديه الكثير من الأعمال في هذا اليوم وقد تأخر عليها، فلطّف كل هذه الأحاسيس بقوله بصوت مرتفع: (هذا أفضل، سأذهب إلى العمل دون عناء ارتداء الملابس).

وبالفعل توجَّه إلى المغسلة وغسل وجهه وأسنانه، وأوثق أزرار قميصه، وعقد ربطة عنقه، وأمسك بتفاحة عن طاولة المطبخ وقضمها وهو يُغلق الباب، ويخرج متوجهًا إلى سيارته.

شعر ببعض الدوار، بدأ يفكَّر في نفسه بما حدث ليلة أمس، ثم وصل إلى سيارتهِ وحاول فتح الباب، ولكن قفل الباب كان معطَّلاً، فحاول عدة مرات ولم ينجح فشعر بانزعاج يجتاحه،

وقام بركل عجلة سيارته، فأحسَّ بألمٍ في رجله وكأن ظُفرَ إبهامه قد تحرَّك من مكانه، وشعر بالدماء الدافئة تجري وتحيط بإبهامه. ازداد انزعاجه واتجه إلى موقف باصات النقل.

ركب باص النقل الداخلي الأخضر الطويل المليء بالرُّكاب، وتمسَّك بأحد الأربطة المخصصة للركاب الذين لا يجدون مقعدًا خاليًا، وأخذ يفكر بأحداث البارحة، وهو يشعر بدوار وبألم في رأسهِ وفي إبهامه... (زارني أليكس في المكتب، ثم ذهب فجأة، وأخبرني أنه سيُثبت صحة المذكرات، وفي الساعة الثانية عشر ليلاً، كنت أتابع فيلمًا إباحيًا لعفراء والنائب العام، ولم أكن أراهما وحسب، بل كنت أسمع أفكارهما، وليس هذا فقط بل كنت أرى ماضيهما ومعتقداتهما بمُلخص مُريع، ثم استغرقتُ في نومٍ عميق كغيبوبة، كيف حدث ذلك؟ لابد من وجود تفسير منطقي لكل ذلك، فكيف تكون مذكرات هذا الرجل حقيقية؟، وكيف يمكن أن يكون هو ذاته شخصيتها الرئيسية، فأحداثها حدثت في أستراليا، وهو يقول إنه من أستراليا، فكيف يعقل أن يأتي إلى سوريا؟ فمن هو الأسترالي الغبي الذي سيأتي إلى سوريا في وضع الحرب وانعدام الأمن الذي نعيشُ؟!... لا، لا بالتأكيد أنه يكذب، ولكن كيف أمكنه أن يريني ما رأيته، ويجعلني أشعر بكل هذه المشاعر وتصلني كل تلك الأفكار؟!

كان عبد الرحمن يُفكِّر بكل ذلك وهو يسير باتجاه مكتبه، بعد أن نزل من الحافلة وهو مطرقًا ويحرِّك يديه مع تنقله بين هذه الأفكار والأسئلة، حتى أنه لم يُلقِ التحية على جيرانه

الذين مَرَّ من جانبهم كما اعتاد أن يفعل، ولم يُجب على مَنْ ألقى عليه السلام، وكأنه لم يرَ كل من كان على طريقه.

حين وصل إلى مكتبه نظرت السكرتيرة إليه والى شكله وشروده الغريب، وسألته:

- هل الأمور على ما يرام؟؟

- نعم، نعم.

واندفع إلى غرفته وأغلق الباب، ورمى حقيبته على الأريكة وتنفس بعُمق، ثم خلع حذاءه ليرى جرابه الأبيض وقد تلوَّن بالأحمر القاني من الدماء، واستنشق رائحة جرابه المزعجة مرة أخرى فعاد ولبس حذاءه ليُخفِّف من الرائحة، وبينما كان يربطه سمع صوت السكرتيرة تقول في الخارج:

- أستاذ عبد الرحمن اليوم الاثنين لديك كشف، ويجب أن تكون عند القاضي على الساعة الثامنة والنصف، والساعة الآن هي التاسعة والربع.

فصرخ:

- أعرف، أعرف.

ثم جلس على كرسي مكتبه الذي دار بسبب رعونة جلوسه عليه، فاصطدمت رُكبته بزاوية المكتب فآلمته، ووضع يده عليها، وقال: (آه... هذا الذي كان ينقصني، ما الذي يحدث؟! إني أشعر بإنهاك لم أشعر به من قبل، من أين أتى إلي أليكس ومذكراته الملعونة هذه؟

ثم وضع جبينه على زجاج المكتب محاولاً أن يبرده.

= من مذكرات أليكس وهو يافع =

- لا تسأل كثيرًا يا أليكس، حاول أن تتفهم الأمور التي أمامك فقط، فستتعلم شيئًا فشيئًا.

- حسنًا يا جدي.

- الآن فكر بأي مكان وستجد نفسك فيه ببضع ثوانٍ، وإذا احتجتني عُدْ إلى هنا.

- فقط بهذه البساطة؟ حسنا سأُجرِّب.

فكَّر أليكس إلى أي مكان يذهب، ثم تذكر صديقته ليزا وكيف كانت تضحك على مقعد حديقة الجامعة...

- حسنًا سأذهب إلى الجامعة.

- ما عليك سوى أن تُفكِّر بالجامعة، والمكان الذي تريده هناك، وتتصوره في عقلك.

فكر أليكس بحديقة جامعته، فوجد نفسه هناك فورًا، وكأنه كان هنالك بالأصل. توجَّه إلى مقعد الحديقة حيث كان ورفاقه في الصباح، وكله أمل أن يرى تلك الفتاة المثيرة الفرِحة، ويضمها الآن طالما هي لا تستطيع رؤيته، ولكن المقعد كان خاليًا فقد ذهب الجميع، فأخذ يركض في أنحاء الجامعة بسرعة رهيبة كسرعة الضوء، ولم يكن أحد يلاحظ وجوده، تفقد الحديقة والصفوف آلاف المرات ولم يجد صديقته،

وبعد أن يئس، فكَّر بالغرفة حيث جده، فوجد نفسه يقف أمام جده مباشرةً وكأنه كان هناك بالأصل وتنهد...

- ما بك؟

- كنت أبحث عن شخص ما ولكني لم أجده؟

ابتسم طيف الجد:

- حسنًا... كما يمكنك أن تفكر في مكان فتكون به، يمكنك أن تفكر بشخص فتكون عنده أينما كان.

- حقًا يا جدي؟

ورفع أليكس عينيه إلى الأعلى واختفى.

= من مذكرات أليكس عن شبابه =

- أليكس؛ هنالك شعور يراودني لا يمكنني التعامل معه.

نظر أليكس إلى زوجته:

- ما هو؟

- أنا متأكدة أن تيمور لا يزال حيًّا إني أراه في النوم وأتخيله وأشعر بوجوده.»

- لقد غاب منذ فترةٍ طويلة ومن المرجح أنه قد مات.

وقال في نفسه: (بل أنا قتلته بنفسي).

- ولكن لماذا هذا الشعور لا يفارقني، وأتخيله كوحش ينقض علينا أنا وأنتَ والطفلتين، وفي حلم آخر أراه ملاكًا ودودًا، وأراه يعتني بالطفلتين ويرعاهما؟

- إنها مجرد أوهام وستزول بمرور الوقت .

خرج بعدها إلى حديقة منزلهِ وبدأ يتمشى داخلها، ويتأمل ورودها ونباتاتها، وفكَّر في نفسه: (هل يُعقل أن يكون حيًّا؟).

كان أليكس يستطيع أن يخرج من جسده ويزور أي إنسان حيّ، ولكن بعد الذي حدث بينه وبين تيمور في الغابة لم يحاول البحث عن تيمور فقد دفنه بيديه، وكان طوال هذه الفترة يحاول أن ينساه وينسى ما جرى بينهما.

جلس على كرسي الحديقة الخشبي، وأسند ظهره إلى المقعد وتنفس بعُمق، ثم أغمض عينه وفكر بتيمور ليشعر بنفسه يغادر جسده ظانًا بأنه سيذهب إلى تلك الغابة حيث دفن تيمور بيديه في ذلك القبر الذي لا يعلم مكانه سواه، ولكنه تفاجئ عندما وجد نفسه بمواجهة تيمور مباشرةً، ولكنه بدا أكبر سنًا من الزمن الذي تعاركا فيه، كان يجلس على طاولة وكرسي فخم للغاية، ويضع سيجار تبغ كوبي فاخر بين شفتيه، وبجانبه كأس يوشك على النفاذ.

التفَّ أليكس حوله بسرعة فائقة وتجول في كافة أنحاء المنزل وكذلك المدينة حيث وصل لساحتها وعاد، وعلم بأن تيمور في مدينة «كاثرين» من الإقليم الشمالي لأستراليا، والتي تبعد ما يقارب ٧٢٠ كم عن «داروين». ثم عاد إلى الغرفة التي يتواجد فيها تيمور، وكل ذلك بأقل من ثانية واحدة، فوجده يُحدِّث رجلاً نحيفًا طويل القامة يرتدي الكثير من الخواتم الفضية المرصعة بالأحجار الكريمة متعددة الألوان، صعد أليكس على الطاولة الزجاجية التي يجلس تيمور خلفها وانحنى ليرى الصورة التي يحدق بها تيمور، لقد كانت صورة لأليكس وجانيت والطفلتين، عرفها فورًا، فهذه الصورة التقطها منذ أسبوعين بحفل عيد ميلاد ابنتيه، ثم سمع تيمور يخاطب الرجل:

- أريدك أن تقتل أليكس وتقتل الطفلتين أيضًا وأحرق منزلهم. ولكن إياك أن تتأذى جانيت، أريدها أن تبقى حية، أريدها أن تعود كما كانت قبل مجيء أليكس.

أجاب الرجل بصوت يتخلله صوت جرشِ حبوب:

- لا أعتقد أنها ستحتفظ بعقلها بعد أن يُقتل زوجها وطفلتيها.

- حتى لو حدث ذلك، ولكني لا أريدها أن تموت، هل فهمت؟

- حسنًا.

- وأريد أن يموت أليكس بطريقة شنيعة، واحذر منه يا روبرت ولا تستهن به، فهو مخادع وذكي.

= من مذكرات أليكس وهو يافع =

شعر أليكس بطاقة وحُرية لم يشعر بمثيلها من قبل، ففكَّر بليزا وشكلها المثير وضحكاتها، فوجد نفسه في منزلها وفي غرفة نومها.

كانت ممددة على السرير وترتدي ثوبًا قصيرًا ورقيقًا يُظهر معظم ساقيها، ورأسها مغروسٌ في وسادة بيضاء ناعمة وكبيرة.

ولكنه تفاجأ بمشاعره والتي لم يكن يتوقع أن تكون على هذا النحو، فبينما كان شعوره سابقًا بالإغواء والإثارة بسبب جمال ليزا وهو ما دفعه إلى البحث عنها وزيارتها، إلا أنه في هذه اللحظات لا يشعر بأي رغبة أو إثارة اتجاهها رغم منظرها الجميل الذي لم يتغير.

استغرب هذا الشعور الذي لم يألفه، إنه انعدام للرغبة التي كان يشعر بها عندما كان في جسده، إضافةً إلى ذلك أحسَّ بمشاعر حزن تملأ المكان وتتسرب إلى نفسهِ، نظر إلى الفتاة المستلقية أمامه (إنها ليزا فعلاً) ولكن على خلاف نظرته عن ليزا السعيدة دومًا والمتفائلة والضحوكة والمفعمة بالنشاط والحركة، فهو الآن يراها حزينة للغاية ويشعر بشعورها هذا وكأنه جزءٌ منه وكأنه شعوره هو.

ثم تحركت وانقلبت على جانبها وضمَّت رجليها إلى بطنها، وتدفقت منها مشاعر على شكل موجات دائرية تنتشر حولها، وعندما تصله هذه الموجات يشعر بألم وحزن يسريان في كافة أنحائه. فعلم بأنها لم تكن سعيدة كما كان يظن، وليست فتاة تريد إغواء من حولها كما كان يعتقد، بل ربما هي تضحك على النكات السخيفة بسبب شدة حزنها، ومحاولة منها للهرب من الواقع، وربما كانت ثملةً أيضًا لتنسى ما هي به.

أراد أن يعرف سبب هذا الحزن والخوف والإحباط، اقترب منها ووضع يده على رأسها وعندها رأى كل شيء، فعرف ماضيها وما مرَّت به من مصاعب منذ طفولتها وحتى الآن، عرف كل ذلك بأقل من ثانية.

رفع يده مستغربًا ومندهشًا من كم المعلومات وسرعة انتقالها وكأنها كانت لديه بالأصل، وعلم بأن طبيب العائلة أخبرها منذ أسبوع بأنها مصابة بالسرطان، وهي تعاني الآن من الخوف والاكتئاب.

استغرب من نفسه كيف ظنها فرحةً وسعيدةً وتتقصد إغواءه، وتبدلت مشاعر الإغواء لديه بشعور محبة لها ورغبة جامحة لمساعدتها.

ثم وضع يده على رأسها وهو يفكر: (ربما يجب أن تفتح عينيها وتستيقظ لنتحدث).

وفجأة استيقظت وكأنها سمعت كلامه. فظن بأنها تسمعه وتراه فأخذ يحدثها ويتحرك أمامها، ولكنها لم تره ولم تسمعه

وكأنه لا شيء تمامًا.

وعادت للنوم بعد أن انهمرت من عينيها دمعتان وسقطتا على الوسادة.

= من مذكرات أليكس عن شبابه =

بدأ أليكس يُقلِّب الذكريات التي يحتويها عقل تيمور ويتفحصها، والتي كانت تُعرَض أمامه كأنه يتابع مقطع فيديو على هاتف ذكي، فيستطيع تسريعها أو الانتقال بها من زمن إلى آخر بمجرد أن يريد ذلك.

عاد بالذكريات إلى الوقت الذي كانا يتعاركان به، فرآه يسقط، ورأى نفسه يُثبِّته بلفِّ رجليه حول عنقه ويمسك يده ويضغط بكل قوته على رقبته لكي لا يُفلت، ثم رأى تيمور يهدأ ويسكن وكأن المنية وافته، فأفلته وجلس بجانبه بسرعة ووضع يده عند رقبته ليتفحص نبضه، وعندما لم يشعر بنبض شريانه وضع يده عند قلبه ليتأكد، فلم يشعر بنبض قلبه أيضًا ولم يكن يتنفس، فأخذ يضرب وجهه معتقدًا أنه ضغط أكثر من اللازم على رقبته فقتله.

وبعد وقت قصير رأى نفسه يسحبه من رجليه ويرميه بالحفرة، وبدأ بردمهِ بالطين، ولكن بعد أن استدار بدأ تيمور يزيح الطين عن وجهه وجسمه ويخرج من الحفرة مترنحًا، وأخذ يمشي عائدًا إلى بيته.

عاد بذكريات تيمور زمنًا أبعد إلى الوراء، ليجد تيمور في قبو أحد الأبنية والذي يبدو مجهزًا للتدريب على القتال،

وبجانبه مدرب يضع له عند رقبته لاصقًا جلديًا يبدو وكأنه استمرار للجلد الطبيعي، وهو يمنع أي شخص من الإحساس بالنبض، وواحد آخر عند القلب، ويجربه عليه وعلى غيره ليتأكد من فعاليته. ورآه يتدرب كيف يبدو ميتًا أو مقتولاً.

ثم أخذ يتقدم بالذكريات إلى زمن آخر فرأى تيمور يصل إلى منزله مليئًا بالطين والدماء تقطر من أنفه ويديه، ويحزم أمتعته ويتحدث مع أحد رجاله: (في حال عرف أليكس أني لم أمت سيكشف أمرنا للشرطة ويدلهم على مكان المقبرة، أما إذا ظن أني قد مت فلن يخبر أحدًا، لكي لا تُكتشف جريمة قتله لي، فيجب أن أغادر، وسأعود بعد أن تكملوا نقل كامل المقبرة، وكامل الجثث وتمحون كل أثر لها بهدوء وروية، وأزيلوا التراب على مسافة نصف متر حول كل مدفن لكي لا يبقى أي تراب يحمل أنسجة متحللة من الموتى، وبعدها لو عدت للظهور فلن يكون عنده أي دليل يُذكر).

توقف أليكس عن رؤية الذكريات ليسمع تيمور يقول للرجل الذي أمامه: (متى ستذهب لتنفِّذ الأمر؟). أجاب الرجل: (حالاً يا سيدي، فرجالي بالقرب من منزله ينتظرون إشارةً مني، فبعد ربع ساعة من الآن سيكون منزل أليكس يحترق وفيه ثلاث جثث لرجل وابنتيه، وزوجته تبكي خارج المنزل)... (أحسنت).

عندها عاد أليكس إلى جسده على الكرسي الخشبي في حديقة منزله، وفتح عينيه مُرتعبًا.

= من مذكرات أليكس وهو يافع =

فكَّر أليكس اليافع في جده فوجد نفسه في المنزل وجده يجلس على أحد كراسي المائدة مغمض العينين وطيفه الشاب يتجول حول المكتبة وينظر إليه من بعيد...

- ماذا تريد يا أليكس؟

- أريد أن أساعد ليزا.

- وما بها؟

- إنها مريضة بالسرطان وهي خائفة ومكتئبة وشاحبة.

- حسنًا، هل تعرف جميع رفوف المكتبة؟

- نعم، أعرف كل شيء في هذه المكتبة، عدا الباب المخفي، وقد عرفته اليوم.

- حسنًا، إذًا أين الرفوف الفارغة؟ والكتب الكبيرة التي منعتك أن تقرأها وأنت صغير؟

عاين أليكس المكتبة عدة مرات وكان يدهش دائمًا من وجود مجموعة من الرفوف التي تحمل كُتبًا كبيرة قديمة وبجانبها رفوف فارغة...

- هناك في الجانب الآخر.

وتوجه إلى هناك، ولكن الرفوف لم تعد فارغة بل كانت مليئة بكتب صفراء منيرة وكأنها قطع من الشمس.

- إن هذه الكتب لا يمكنك أن تراها سوى عندما تغادر جسدك، فكِّر بليزا وبمشكلتها وعندها ستعرف الكتاب الذي يجب أن تقرأه.

فكَّر أليكس بليزا وبصورتها وهي حزينة ومستلقية على السرير، وعندها تحرك أحد الكتب المنيرة وبرز عن سواه. صاح أليكس:

- ذاك هو، حسنًا سأذهب لأجلب السلم لأستطيع أن أنزله.

أوقفه طيف جده:

- انتظر، لا يوجد داعي لذلك يا أليكس، فأنت طيف وتستطيع أن تطير إليه، فقط ارغب بذلك، وبالأصل أنت لا تستطيع أن تجلب السلم، فأنت لا تقدر على تحريك أي جسم مادي.

ارتفع أليكس عن الأرض باتجاه الكتاب بمجرد أنه أراد ذلك فانبهر من ضوئه الساطع ومن جمال غلافه الخارجي، والذي رُسِمت عليه زهرة مضيئة وكأنها تحترق وذات ساق طويلة مليئة بالأشواك الحادة وعليها أوراق عريضة وكانت تتحرك وتدور ببطء داخل غلاف الكتاب فكأنها مُلقاة على الغلاف وليست إحدى رسوماتهِ. نظر إلى الكلمات ليقرأ العنوان ولكنها كانت مكتوبةً بلغةٍ غريبةٍ لا يعرفها...

- ما اسم هذا الكتاب؟ ما معنى هذا الكلام يا جدي؟

- اقرأه بنفسك.

- ولكني لا أعرف هذه اللغة.

- فقط فكر بمعنى ما تنظر إليها وسيصل معناه إلى ذهنك.

نظر إلى الكتاب مرة أخرى وحدَّق بالكلمات وقال:

- هل اسم هذا الكتاب «زهرة الحياة ونور الأمل»؟

- نعم هو كذلك.

ثم انفتح الكتاب على إحدى الصفحات، وكانت منيرة وتحتوي على نقوش ورسوم غريبة، نظر إليها وبدأ يقرأ:

- إنه يتحدث عن شيء من مستقبل ليزا.

- عندما يكون من تريد مساعدته في قمة اليأس، ستعلم شيئًا عن مستقبله لتشعل نار الأمل والحياة في نفسه.

صرخ أليكس:

- سوف تشفى بعد أخذها للعلاج.

وكتب تحت هذا المستقبل، مجموعة من الأفكار التي ستوقد نار الأمل في قلبها من جديد، أخذ يقرأ تلك العبارات...

- ولكن كيف سوف أُدخِل هذه الأفكار إلى عقلها؟

أجاب طيف الجد:

- بكل بساطة. فقط احمل تلك الأفكار من الكتاب وخذها معك إليها.

انتزع أليكس الأفكار من الكتاب والتي بدت كخيوط ذهبية في يده وأرجع الكتاب إلى مكانه، ودون أن يودِّع جده؛ اختفى فجأةً.

ناداه طيف الجد:

– أليكس انتظر.

ولكن أليكس كان قد رحل كُليًّا.

تابع الجد الكلام:

– كنت سأقول بأن المستقبل يتغير، فلا يشترط أن يبقى كما هو في الكتاب.

= من مذكرات أليكس عن شبابه =

كانت جانيت تنقلب على ظهرها أمام طفلتيها فيقلِّدانها، ثم تضع وجهها في بطن كل واحدة منهما وتنفخ لتُضحكها، فدخل أليكس مذعورًا وكأن ثورًا يطارده وأسقط كرسيًّا خشبيًا اصطدم به، ووقف أمام جانيت المستلقية على الأرض والتي راعها اندفاعه هذا وملامحه المتوترة...

– اسمعيني يا جانيت.

وأخذ نفسًا عميقًا من فمه.

– ما المشكلة يا أليكس؟

– يجب أن نغادر هذا المنزل خلال خمس دقائق، اجمعي الأشياء الضرورية فقط وسنغادر فورًا.

وقفت جانيت على مهل أمام زوجها مذهولة:

– ما الأمر يا أليكس؟

– أتوسل إليك اجمعي أغراضك دون أسئلة، وبسرعة.

– لن أفعل شيئًا قبل أن أعلم ما الأمر.

– إن لم نغادر فورًا ستُقتل طفلتانا، وسأشرح لكي كل شيء لاحقًا.

وأمسكها من كتفيها وهزَّها:

– أرجوكِ استجيبي.

شعرت جانيت بأن أليكس لا يستطيع أن يتكلم ويبين الأمور، وأحسَّتْ بالرعب الذي يعتريه، فتوترت واستجابت وعقدت حاجبيها، وأخذت تركض في أنحاء المنزل تجمع الأغراض، والتي بمعظمها حوائج الطفلتين، ثم خرجت راكضة من البيت وهي تحمل طفلتيها وحقيبة معلقة بكتفها وتبحث بعينيها عن أليكس، ثم وجدت سيارته القديمة – والتي لم يستخدمها منذ زمن وكان يحتفظ بها كذكرى من أيام الجامعة – مشغلةً ومفتوحة الأبواب أمام المنزل، فوضعت طفلتيها وجلست بها، ونظرت من الشباك لترى أليكس يمسك «بيدون» من البنزين ويسكب البنزين في مختلف أنحاء المنزل، فكرت في نفسها مندهشةً: (أيريد أن يحرق البيت؟؟؟!!!).

خرج أليكس مستعجلاً وهو يحمل حقيبة صغيرة، واتجه باتجاه زوجته ووقف أمام نافذة السيارة المفتوحة وجانيت تنظر في عينيه:

– ما الذي يحدث يا أليكس؟

وضع يده على حديد السيارة:

– لا تقلقي، ستكون الأمور على ما يرام، وسأعوِّضك ببيت أفضل من هذا.

وضع حقيبته في السيارة ثم عاد باتجاه المنزل وأمسك بطابة بيسبول كان يضعها في جيبهِ وغمسها بالبنزين ثم وضعها على الأرض وأشعلها ثم ركلها حتى تدحرجت

ودخلت إلى المنزل وأضاءت النيران مدخل البيت، واستمرت الكرة المشتعلة بالتدحرج وسقطت على السلالم المتوجهة إلى مستودع المنزل، وبدأت النيران تنتقل من مكان إلى آخر في البيت وأضاءت نوافذ المنزل بلون اللهيب الأصفر.

ثم ركض أليكس وركب السيارة وانطلق بها:

- يجب أن نبتعد بسرعة ستنفجر أنابيب الغاز في المستودع بعد قليل.

- لماذا لا نأخذ إحدى سيارتينا الحديثتين بدل هذه السيارة؟ فهي بالكاد تعمل.

- لا... يجب أن يظنوا أننا احترقنا في الداخل.

نظرت جانيت إلى الخلف من خلال الزجاج الخلفي المتسخ للسيارة لترى منزلها يحترق وتتصاعد من نوافذه ألسنة اللّهب:

- يا إلهي، يجب أن تُفسِّر لي كل هذا يا أليكس.

انفجر المنزل بفعل انفجار أنابيب الغاز فصدر عن ذلك ضغط في الهواء وانتشرت الشظايا في كل مكان، بينما جانيت أخفضت رأسها ثم رفعته وأخذت تنظر إلى البيت وهي توشك على البكاء، ولا تستطيع أن تستوعب ما جرى، وأدَّى إلى كل هذا بغضون خمس دقائق.

أما أليكس فقد ألقى نظرة على منزله وهو ينفجر من مرآة السيارة، واندفع بسيارتهِ القديمة على الطريق المعبد.

كانت السيارة تهتز وتتمايل وصوت محركها يوحي بأنها

ستنطفئ في أي لحظة، ونحت على حديدها الداخلي الصدئ صورة قلب وكتب عبارة: (ليزا أحبك كثيرًا) وهاتان الكلمتان (ليزا وأحبك) وشكل القلب المرسوم انتشروا في كافة أنحاء السيارة نحتًا وكتابةً ورسمًا.

= من مذكرات أليكس وهو يافع =

- (لا شيء يستطيع أن يخرج الإنسان من حُزنه كالأمل).

بدأ يتراود إلى ذهنه معلومات كثيرة حول الأمل وهو يحمل الخيوط الذهبية بين يديه وينظر إلى صديقتهِ ليزا المستلقية على السرير.

اقترب منها، وشعر بشعور قوي بالمحبة والرغبة بمساعدتها، ثم رأى أفكارها تخرج من رأسها وتحيط به وتعود إليها على شكل خيوط ضوئية متعددة الألوان: (سأموت ولن يكون لي أي وجود، ماذا أفعل؟؟ أكره الإبر، وأكره المشافي، سأموت كما ماتت عمتي بهذا المرض، أريد أن أموت الآن، لن انتظر حتى يتساقط شعري).

رأى أليكس رأسها وما حوله وكأنه خارطة ضوئية تحتوي على العديد من الخيوط الملونة، ورأى دوامة سوداء داكنة في منتصفه، فأدرك أن هذه المنطقة هي الأكثر تعبًا في عقلها وهي التي تمتص طاقتها، فاقترب ووضع يده عليها ليشعر بالحزن والقلق والإرهاق يتدفق منها إلى داخله، وشعر بإنهاك مفاجئ وأصبح بالكاد يستطيع أن يقف بجوارها، ودخلت الخيوط الذهبية التي أتى بها من الكتاب إلى رأس ليزا وبدأت الدائرة السوداء تتحلل وتتحول لخيوط سوداء وتخرج من ليزا وتدخل

إلى أليكس ثم تزول، وبعد قليل تحول لون الدائرة من اللون الأسود إلى البُني وبدأت عينا ليزا تتوقفان عن ذرف الدموع، وبعدها بدأ لون الدائرة يميل إلى الأبيض، عندها قرب فمه من أذنها وهو يشعر بالتعب وأخذ نفسًا عميقًا ثم قال: (أنتِ قوية، ستسير الأمور على ما يرام وستشفين، أنت تعرفين ذلك وفي داخلك حدس أكيد بأنك ستنجين، فيجب أن تحاربي، أن تزوري الطبيب، أن تأخذي الأدوية، حاولي وستنجحين).

لم يتوقع أن تسمع ليزا كلماته، وحتى لو سمعتها فلن تأخذ بها، فهو يعلم مدى العناد والاستقلالية التي تتمتع بهما.

ولكنه تفاجأ بأن كلماته تحوَّلت إلى خطوط ضوئية ودخلت بين الخطوط التي تُشكِّل تفكيرها، وبعد قليل رفعت رأسها ولمعت عيناها وظهرت على وجهها ملامح الإرادة، واستوت على السرير وهي قاطبة الوجه والتحدي بارزٌ على معالمها، وكأنها تستعد للقتال، مسحت وجنتيها بيديها، ثم انتفضت وانطلقت بسرعة إلى حمام غرفتها.

تبعها أليكس وهو يراقب تصرفاتها، وضعت رأسها تحت صنبور الماء وفتحته بأقصى اتساعه فملأ الماء رأسها وشعرها ووجهها، ثم رفعت رأسها ونفضت شعرها ليتطاير الماء في كل مكان من الحمام، استنفر أليكس عندما تطاير الماء باتجاهه، لكنه عاد للهدوء بعد أن مرَّ الماء من داخله دون أن يمسه.

غيَّرت ليزا اتجاه وجهها لتصبح بمواجه أليكس الذي يقف عند الباب وجهًا لوجه، وعيناها بمواجهة عينيه، صُدِمَ أليكس

من منظرها الجميل والأخّاذ هذا، وبعدها عقدت حاجبيها وقالت: (لن أستسلم وسأنتصر على هذا المرض وسأشفى).

أخذ أليكس ينقل نظره ببطءٍ من أعلى شعرها المبلول إلى أسفل قدميها المبلولتين، لقد عادت الآن مغرية بالنسبة له، فالماء كان يبلل جسدها وثيابها، وكان شعرها ملتصقًا بكتفيها ويقطر ماءً، وبدت تملك عنفوانًا وتحديًا مع جمالها ولطافتها، فأخذ يُحدِّث نفسه: (هذه أجمل لوحة لأعظم رسام في العالم، مزيج من البراءة مع الكبرياء والتحدي، ولعلَّ اسم اللوحة: «ملاك يتحدى العالم بشعره المبلول»).

لم يزل أليكس فاغر الفم ينظر إلى صديقته، ويؤلف أسماءً للوحة لم تُرسم بعد، عندما اندفعت كحصان بري بتجاهه، ومرَّتْ من خلاله عائدةً إلى غرفتها.

بقي ثابتًا في مكانه كتمثال ويتمنى لو أن مرورها هذا يتكرر مدى الحياة دون توقف...

- لا أريد أن أنظر للخلف... لا أريد أن أرى أي شيء آخر في هذا اليوم، فهذا أجمل ما يمكن رؤيته، سأعود لجسدي.

ثم فكَّر بالسرير الذي يستوي عليه جسده في ذلك البرج.

= عبد الرحمن =

أمست الحياة ثقيلة على عبد الرحمن، فهو شارد في معظم الأوقات، يتابع أخبار القتلى على التلفاز وسقوط الصواريخ على الأبنية والسكان في حلب وإدلب، ويقرأ الدراسات السياسية وكيف تتقاسم الدول الكبرى الثروات في بلاده على جُثث الشعب، مختلفين على الحصص، متفقين على لزوم بقاء الحرب والقتل، وكان يسمع أصوات الانفجارات في مدينته ويتقصى أخبار الوفيات ويعزي ذوي الذين يعرفهم.

لقد أصبحت الحياة هستيرية بالنسبة له وبالنسبة لجميع السُّكان، وبدأت العائلات والأهالي بالنزوح من المدينة، والكثير من معارفه هاجروا إلى ألمانيا ودول أوروبا للبحث عن حياة كريمة، وكانت صور من يغرق في البحر من المهاجرين تملأ شاشات التلفاز، ويرى الخوف في أعين سكان المدينة بعد انتشار عمليات الخطف والتفجيرات، وكان يشاركهم هذا الخوف، ويعزي نفسه بأنه لا يملك أطفالاً ليخاف عليهم، مع أن الخوف وصل إلى ذروته عند الجميع، ويسأل نفسه دائمًا: (هل أُهاجِر؟ فأعداد سكان المدينة يتضاءل والأمور تزداد سوءًا). ثم يجيب نفسه: (لا لا هذا مستحيل، هذه بلادي ولن أتركها من أجل حفنة من الحُكَّام المارقين، ستهدأ الأمور في الأيام القادمة لا ريب».

كان يُحب بلاده إلى درجة كبيرة، يُحب هذه الأرض التي دُفنَ فيها والداه، وعاش طفولته ومراهقته بها، ومشى في شوارعها.

ثم أخذ يتذكر جميع الأمور السيئة دفعة واحدة، كالأشخاص الذين قُتِلوا، والذين خُطِفوا، والذين فُقِدوا، وصديقه أكرم الذي اختفى ولا يعرف إن كان حيًّا أم ميتًا، ويتذكر وضع المحكمة وما وصلت إليه من فساد ومحسوبية حتى صار رزق المحامين النزيهين أمثاله صعب المنال.

ثم سمع صوت إطلاق نار من بعيد واشتباك، حاول ألا يعطي الأمر بالاً ويركِّز في عمله، كان يفكر بكل هذا في آنٍ واحد ويفكر كيف سيؤمن مستلزمات المنزل من خبز ومازوت للتدفئة... وغيرها.

تعب عبد الرحمن من التفكير، أشعل سيجارة تبغ طويلة محلية الصنع، ونظر إلى زاوية طاولة مكتبه وهو يقول: (لا شيء، لا شيء سوف يتغير.

عندها رأى المذكرات الموضوعة على جانب المكتب والتي كان ينسِّقها لتصبح رواية وكتب على صفحتها الأولى: «عدالة الكون- مذكرات أليكس بارتونس». فقال بصوت غاضب: (تبًّا، أي عدالة هذه؟ من أين أتت لي هذه المذكرات اللعينة؟).

وقام بدفعها، فسقطت وتناثرت أوراقها في كافة أنحاء الغرفة.

= من مذكرات أليكس وهو يافع =

انتقل أليكس إلى جانب جسده المُمدَّد على الأريكة البيضاء الناعمة بلمح البصر، فاستلقى على الأريكة وبدأ يدخل إلى جسدهِ وهو لا يفكر بشيء سوى بمرور ليزا عبره وجسدها المبلل بالماء.

انغمس طيفه داخل جسدهِ النائم وأغمض عينيه، وعندما فتحهما شعر بثُقل جسده من جديد، حاول النهوض عن الأريكة ولكنه سقط على الأرض، كانت رجلاه بالكاد قادرتين على الحركة، وكلما تمكن من النهوض لبرهه سقط مجددًا، وقد سيطر عليه دوار وصداع حاد، فبدأ يزحف باتجاه باب الغرفة والإنهاك يسيطر على كل عضوٍ من جسده، وكل عضلة، وكأن جسده لا طاقة به للتحرُك، وكأن العضلات ترفض الاستجابة لرغبات الحركة.

ثم سمع صوت أقدام متجهة نحوه، وشعر بيد جده ترفعه وتُعينه على المضي قدمًا، واشتم رائحة الرطوبة في الممر الذي عبره البارحة. ثم تذكر ليزا تذكر جمالها ثورتها اندفاعها فستانها المبلل، ابتسم ثم تلفظ بصوتٍ بالكاد خرج من فمه:

– أريد أن أذهب إلى الجامعة، يجب أن أرى ليزا حالاً.

أجابه جده:

– ليس عليك الآن سوى أن ترتاح.

صرخ أليكس بما أوتي من قوة، وقد رفض هذا الرأي بالمُطلق:

– لا لا، يجب أن أرى ليزا الآن.

– حسنًا سنناقش هذا الأمر عند سريرك.

خرجا من الممر ودخلا إلى منزل الجد. كان أليكس يترنح يمينًا وشمالاً ولا يُسمع منه غير: (ليزا – جامعة – أين حذائي – خذني فورًا).

فأجلسه الجد على السرير ثم أحضر له كأسًا كبيرًا يحتوي على مغلي الينسون:

– اشرب هذا يا أليكس.

شرب أليكس الكأس وهو يقول: (ليزا).

ثم سقط على فراشه وغرق في نوم عميق.

= عبد الرحمن =

نادى عبد الرحمن سكرتيرة مكتبه:

- إزدهار، من فضلك اجمعي هذه الأوراق المتناثرة عن الأرض وضعيها على الطاولة.

انحنت إزدهار لتجمع الأوراق وهي ترمقه بطرف عينها، في حين كانا يسمعان صوت إطلاق نار وانفجارات في أماكن متفرقة من المدينة ولكنها بعيدة نوعًا ما، ثم قالت:

- أريد أن أتحدث معك بأمر.

جلس عبد الرحمن على كرسي مكتبه وهو يمتص سيجارة التبغ الوطنية الطويلة الرديئة الصنع وكأنه يحاول أن يأكلها أو يبتلعها...

- ما بكِ يا إزدهار؟

استوت إزدهار وبيدها حزمة الأوراق التي جمعتها ثم وضعتها على حافة المكتب بهدوء:

- لقد تشرفتُ بالعمل معك يا أستاذ عبد وكنت من أفضل الناس الذين قابلتهم في حياتي، ولكني أعلمك بأني سأترك هذا العمل، فسننزح أنا وزوجي وأطفالنا من الحي هذا المساء، فالوضع يزداد سوءًا والأنباء تنتشر بأن الحي سيُقصَف ويُدَّمَر بالكامل بالبراميل المتفجرة قريبًا، ولا نعرف إن كان هذا سيحدث أم أنها إشاعات، ولكن كما تعلم أن الكثير من الأحياء

في «داريا ودوما» والعديد من المدن الأخرى قُصِفت ودُمرت ولا نريد أن نتأخر فنعجز عن الخروج بعد ذلك، وأعتقد بأنك يجب أن تغادر أيضًا وبأسرع وقت.

طفحت عيناها بالدموع. فنظر عبد الرحمن إليها بمودة:

- وفقكِ الله يا إزدهار.

انتصب واقفًا واقترب منها، فاندفعت باتجاهه وضمَّته وأخذت تجهش بالبكاء:

- لقد أصابتنا لعنة الحرية، والحرية آتية لتأخذ مهرها الآن من دمائنا - كما تقول أنت.

ربت على كتفها وقال:

- لا تخافي، ستكون الأمور على ما يرام، فلتعتني بزوجك وأولادك.

أبعد يديها عن كتفيه:

- اجلسي واشربي الماء.

- سأشتاق إليك وإلى هذا العمل الذي قضيتُ به عشر سنوات من عمري، وأريد أن أقول لك شيئًا...

عاد عبد الرحمن إلى كرسي مكتبه وجلس:

- تفضلي.

- لقد تعاملت معك طوال عشر سنوات ورأيت فيك ما لا يوجد في الكثير من الرجال، ففي داخلك رجل طيب للغاية وبراءة تسيطر على كيانك رغم كل محاولاتك لتغطيتها بالوقار والإتيكيت.

- وفي داخلي بطيخة كبيرة أيضًا، أقصد كرشي.

ضحكت قليلاً ثم تابعت:

- أنت الرجل الوحيد الذي قبل أن أعمل عنده وذلك بسبب دمامتي، فلم تعطي بالاً لها ونظرت إلى روحي.

- الجمال لا يتم لأحد يا إزدهار أنظري إلي وهذه البطيخة التي ترافقني ليل نهار وتفسد علي جمالي.

ابتسمت إزدهار، فيما أكمل هو:

- إضافةً إلى أني لست الرجل الوحيد الذي رأى جمال روحك، بل زوجك أيضًا.

- لا، لا يا أستاذ عبد، زوجي لم يرَ روحي بالمطلق فهو قبِلَ بي لأنه أقبح مني بألف مرة، أما أنت فمختلف وأفضل منه بكثير.

- لا يوجد من هو أفضل من الزوج يا إزدهار، فالزوج هو ذلك الحمار الذي يمنحك الأطفال وتركبينه طوال العمر، وإذا نهق تصفعينه فيسكت، فالزوج نعمة ما من بعدها نعمة فحافظي عليه.

- ولكنه قد يكون نقمة أيضًا.

- نعم أحيانًا إذا زاد الحمل عليه فقد يرفسكِ أو يؤذيكِ، لذلك يجب أن تتروي في تقدير أوزان الأحمال، وتُطعمينه وتسقينه جِنسًا بين الحين والآخر حتى ينسى أنه حمار لبعض الوقت وتعود له قدرته على رفع الأحمال.

ضحكت إزدهار وقالت:

- كلام مُضحِك، ولكن أليس من المفروض أن يمنحني هو

حُبًّا واهتمامًا؟

– هنا تبدأ المصائب، إياكِ أن تطلبي ذلك، فأن يحمل الرجل المتزوج «الحمار الخارق» أحمال الدنيا على ظهره، أهون عليه من أن يفكر بكيف سيصنع الاهتمام والحب لزوجته، فذلك سيجلب له مرضًا عُضالاً وشللاً رُباعيًّا، وستضطرين بعد هذا لحمل الأحمال التي كان يحملها فوق أحمالكِ، ولن تحصلي على الاهتمام والحُب أيضًا، فالصعوبة ليست بالأحمال الثِّقال بل بالتفكير، فكلما جعلتِ زوجك في حالة اللا تفكير كنتما سعيدين، فلا يمكن للرجل في بلادنا هذه أن يكون حمارًا ورومانسيًا في آنٍ معًا، فهو إذا كان رومانسيًا مات أولاده من الجوع، وإذا كان حمارًا فقط أكل أولاده وزوجته ولبسوا، ولكن لا بد أن يتلقوا بعض الرفسات بين الحين والآخر ولن يحظوا أبدًا بالاهتمام، فاختاري لزوجك وظيفة واحدة يا إزدهار؛ إما رومانسيًا أو حمارًا، وإياكِ أن تشتِّتيه فيفشل في كليهما... فالمرأة التي لا تفهم تفكير الحمار لن تفهم الرجال أبدًا.

ضحكت إزدهار قائلة:

– كنتُ أظن أن الرجال جميعهم أطفال، كما يقول «نزار قباني».

– لا يا إزدهار، فقط نزار قباني هو الطفل، أما سائر الرجال فهم أقرب إلى الحمير منهم إلى الأطفال.

– هذا جميل، وماذا عن الحُب؟

– في هذا البلد؛ لا يوجد الحُب إلا في مكان واحد، ستجدينه هناك.

- وأين ذاك المكان؟

- إنه الخيال، اصنعي في خيالك رجلاً كامل المواصفات الجسدية والنفسية وأحبيه وعيشي معه ما ترغبين، كما أفعل أنا بالضبط.

- أأنت كذلك يا أستاذ عبد؟ لماذا لا تتزوج؟

- لا أرغب في عيشة الحمير تلك.

- على الأقل الأعزب ليس حمارًا، أليس كذلك يا أستاذ؟

- لا يا إزدهار فالأعزب حمار أيضًا، ولكنه حمار بري يرفض الانصياع والتطبيع، وهذا النوع من الحمير يتزوج الحرية وهي من تحمل عليه أحمالها وتسيطر عليه وتصفعه فيسكت، فحمورية الرجل أمرٌ لا مناص منه، وكل ما يستطيع فعله هو الإختيار بين أن يكون حمارًا مُدجنًا أم حمارًا بريًّا.

ابتسمت إزدهار. فيما اتجه إلى دُرج مكتبه وأخذ ما وجده فيه من نقود وأعطاها إياها.

نظرت إزدهار إلى النقود:

- ولكن هذه النقود أكثر من راتبي بعد حسم السُّلف التي استلفتُها منك.

- أنتِ تستحقين أكثر من ذلك، ولكنك ترين وضع العمل فسامحيني، وانتبهي إلى زوجك وأطفالك، وفقك الله.

- ألا تريد أن تهرب أنت أيضًا؟

- لا يا إزدهار سأبقى هنا حتى لو مِت، فهذه أرضنا ولن نتركها من أجل حفنة من الحُكَّام المارقين.

أخذت إزدهار حقيبة اليد الخاصة بها وغادرت بسرعة، بينما أصوات إطلاق النار أخذت تقترب.

= من مذكرات أليكس وهو يافع =

أخذ أليكس يستيقظ بصعوبة ويشتم رائحة الورود التي يعرفها؛ إنها رائحة منزل جده، ولكنه لم يستطع أن يفتح عينيه بشكل كامل بعد.

أخذت تعود لذاكرته أفكار متضاربة: الخروج من الجسد، التنقل كالضوء في الجامعة. ثم غطَّ في سبات يشبه الغيبوبة، قبل أن يُجبر عينيه على الانفتاح قليلاً، فرأى سيرومات معلقة فوق سريرة منها الفارغ ومنها كيس ممتلئ يقطر في أنبوب، رفع يده ليجد إبرة القسطرة زُرِعت في يده، ومياه السيروم تدخل في وريده.

حاول أن يستجمع قواه وقال بكل ما أُوتي من قوة:

- ما الذي يحدث؟

ولكن صوته بالكاد خرج من فمه الجاف، وشعر بأن لسانه ثقيل ومنتفخ، ثم سمع صوت جده بجانبه:

- استرِخ يا أليكس، ستتحسن مع الوقت.
- ما هو هذا اليوم؟ كم الساعة يا جدي؟
- اليوم هو «الاثنين».
- كيف ذلك؟! اليوم هو الخميس.
- لقد مضى على نومك ثلاثة أيام يا أليكس، لذلك علقت لك السيرومات وكنتُ أُطعمك الحساء وأنت نائم.

- سيرومات؟ وما حاجتي إليها؟ هل أنا مريض؟ ما الذي يحدث معي يا جدي؟ يجب أن أذهب إلى ليزا، ولقد فاتتني العديد من المحاضرات في الجامعة وتأخرت كثيرًا، كان لدي العديد من المواعيد تراكمت الأعمال يا جدي.

ابتسم الجد والذي بدأ أليكس يراه كما لم يره من قبل، فقد أدرك أن النظرة السابقة لجده وحكمته وروعته كانت سطحية للغاية، وبأن جده يُخفي الكثير من الأسرار، فبدأ يراه بتمعن أكبر ويراقبه كأنه يراقب اختراعًا عجيبًا أو مخلوقًا من كوكب آخر.

- لا تستعجل شيئًا يا أليكس، أهم شيء في إنجاز الأعمال، هو الراحة، فمن لا يتقن الراحة؛ لا يتقن العمل، اعطِ نفسك الوقت الذي تحتاجه للراحة، وعندما تستعيد طاقتك، ستجد أن كل ما يؤرقك بسيط وستعوض كل الأعمال التي لم تنجزها، أما إذا حاولت إنهاءها وأنت تعب فلن تزيد الأمور إلا سوءًا، فلن تحسن إنجازها ولن تحسن الراحة، ولكن هذا الكلام لوحده ليس مُجدٍ.

- ماذا تقصد يا جدي؟

شعر أليكس وكأنه في دوار، ولكنه رغم ذلك كان منتبهًا لجده ولكلامه كما لم يكن منتبهًا لهما من قبل، ورغم عدم قدرته على تفسير الكلام وقياسه منطقيًّا بشكل كامل بسبب وهنهِ، إلا أنه كان يشعر بأن الكلام يدخل إلى عقله ببساطة وكأنه موسيقا أكثر منه كلامًا.

- ما أقصده يا أليكس، بأن أقوالي الآن، ليست سوى معلومات، ويمكن لأي شخص أن يحفظها ويقولها لك أو لغيرك، ولكنها لن تفيد بشيء إن لم يستطع القائل أن يوصلها إلى قلبك وإلى عقلك ويحوِّلها إلى غذاء جاهز يستطيع ذهنك أن يستوعبه وكأنه يعرفه سابقًا، ولن يستطيع أحد فعل ذلك إلا إذا كان لديه بُعد لا مادي نشِط، سواء أعلِم هو بهذا البُعد أم لم يعلم، وهذا ما يجعل بعض الأطباء النفسين لا ينجحون في علاج مرضاهم مع أنهم يدركون المرض ومعلومات العلاج ولكنهم لا يدركون كيفية إيصالها إلى المريض وسريرته، وفي ذات الوقت يوجد أشخاص عاديون يستطيعون ذلك رغم عدم معرفتهم بعلوم الطب النفسي، وهنالك من هو أفضل من الأطباء وأفضل من الأشخاص العاديين...

مع أن أليكس لم يكن يستطع أن يركز على كامل كلامه إلا أنه سأله:

- ومن هو يا جدي؟

- أنت يا أليكس، فأنت تدمج بينهما، فأنت تستطيع أن تحصل على المعلومات المناسبة، ولديك البُعد اللامادي لإيصال المساعدة إلى داخل من تريد، وهنالك الكثير من الجوانب الأخرى التي تمتلكها والتي سأُرجئ الحديث عنها إلى وقت آخر.

نظر أليكس إلى جده مندهشًا، فلقد سمع كل شيء ولكنه لم يفهم شيئًا، وبذات الوقت شعر بأنه فهم كل شيء.

- جدي؛ ماذا حدث معي؟ ما هذا العالم؟ كيف خرجتُ

من جسدي؟ كيف استطعت أن أتنقّل وأُغيّر أفكار ليزا؟ ولماذا تعبتُ كل هذا التعب؟ ولماذا أنا بالتحديد؟ وكيف لك طيف؟ وكيف طيفك شاب وأنت كهل؟ ووو....

– هي، هي، توقف، توقف الآن، هنالك الكثير من الأسئلة لديك، أعرف ذلك، وأنا سأجيبك عن كل هذه الأسئلة ولكن عندما تتحسن.

– لِمَا لا تجيب الآن يا جدي؟

– بعد أن تعود طاقتك والقوة لجسدك سنتكلم بكل ذلك.

أومأ أليكس برأسه وهو مُحدِّق بجده ودون أن يرمش:

– أنت تقصد عندما نفضتْ ليزا شعرها المبلول علي؟

– لا، لم أقل شيئًا عن ليزا ونفضها لشعرها المبلول عليك، أنا أقول عندما تستعيد طاقتك سنتكلم.

رمى أليكس رأسه على مخدته الطرية البيضاء وأغمض عينيه وشعر بنفسه يغرق في نوم عميق.

= من مذكرات أليكس عن شبابه =

اندفعت السيارة على طريق يشق غابة كثيفة، لم تسلكه أو تراه جانيت سابقًا، حدَّقتْ في الطريق:

– أين تأخذنا يا أليكس؟ ومتى ستشرح لي ما يحدث؟

– عندما تنام الطفلتان.

نظرت جانيت إلى المقعد الخلفي، لتجد طفلتيها نائمتين...

– هما نائمتان فأخبرني بالذي يجري.

نظر أليكس في مرآة السيارة الداخلية المكسورة، ليرى طفلتيه وقد استغرقتا في نوم عميق بفعل اهتزاز السيارة المتواصل والذي يشبه هدهدة السرير...

– حسنًا... إن ما تحلمين به صحيح يا جانيت، فتيمور لا يزال حيًّا وقد استأجر عصابة ليقتلني ويقتل طفلتينا كما ترين بالحلم تمامًا.

– كيف هذا؟! فأنا أعرف تيمور جيدًا، فهو ليس قاتلاً، وخصوصًا إذا ما تعلق الأمر بالأطفال، فهل يعقل أن يقتل طفلاً... لاهذا مستحيل! اسمعني يا أليكس لقد مللتُ من الأسرار أخبرني بكل شيء تعرفه بوضوح، وكُفْ عن اختزان الأسرار التي تُخفيها عني طوال الوقت، منذ بداية زواجنا كنتُ أبتعد عن الإكثار من الأسئلة، وكلما شعرتُ بأنك تخفي شيئًا

عني، لم أطالبك بالبوح به، لأني أحترم حريتك واستقلالك، أما الآن فالوضع تغيَّر، ويبدو أن ما تُخفيه قد يُسبِّب موت طفلتينا، فعليك أن تخبرني بكل شيء بدون مواربة، وإلا نزلتُ من هذه السيارة المهترئة، وذهبتُ إلى قسم الشرطة فورًا.

بدأت السيارة تهتز ويُوشِك محركها على التوقف وكأنها سمعت الإهانة التي وجَّهتها جانيت لها.

- لم يعد هنالك أسراريا جانيت، سأُخبركِ بكل شيء.

- هيا إذن لتبدأ.

- إن ما لدي كثيرجدًا، لذلك سأختزله.

- حسنًا تكلَّم.

- لقد رأيت تيمور أول مره بالصدفة عندما كان يدفن جُثثًا في الغابة.

رفعت جانيت من حاجبيها وهي تُحدِّق بأليكس، الذي تابع:

- وبعدها بدأت بمراقبته لأجمع الأدلة وأُخبِر السُّلطات، فتكشَّف لي بأنه يتاجر بالممنوعات والمخدرات، ويقوم بدفن من يقتلهم بمقبرة جماعية. ثم بدأتْ أتقرَّب منه وأراقبه لكي أجد دليلاً ماديًا فأُقدِّمه للشرطة... وفي أحد الأيام التقيتُه صُدفة على الطريق، وتبادلتُ الحديث معه، ثم طلب مني أن أرافقه إلى داخل الغابة. وعندما دخلنا، تبيَّن أنه على علم بتتبعي له، ولذلك استدرجني إلى مكان المقبرة ليقتلني ويرميني في حفرة جهزَّها مُسبقًا لجثتي.

كانت جانيت تنظر إليه وقد فتحت فمها استغرابًا:

- ما الذي تقوله ؟!

- وبعدها هاجمني وأراد قتلي، فدافعتُ عن نفسي، فقُتِل هو؛ أو هذا ما ظننتُه حدث وقتها؛ فقمتُ بدفنه في الحفرة التي كان سيدفنني بها.

حاولتْ جانيت استجماع قدراتها الذهنية:

- ولماذا لم تُخبِر الشرطة ؟

- وكيف سأثبت لهم بأني كنت أدافع عن نفسي ؟ فلا يوجد أُناس في الغابة ليخبروهم بذلك، ولا كاميرات، كانوا سيظنون بأني من استدرجتُه وقتلته، هذا إذا لم يتهموني بكامل المقبرة، وكنت سأقضي حياتي في السجن، أما الآن وبعد أن تبين أنه لا يزل حيًّا؛ سأُخبرهم بكل شيء.

- حسنًا... ولكن كيف قتلتَه ولا يزال حيًّا؟ وكيف علمتَ بأنه سيأتي إلينا ؟ بعد أن خرجت من المنزل وجلست في الحديقة لمدة خمس دقائق؟ ولماذا أحرقت المنزل؟ وسيارتينا ؟ ولماذا لم نذهب للشرطة ؟ هيا يا أليكس تكلّم، أخبرني بكل شيء.

- اهدأي يا جانيت، لا يمكن أن أُجيبك عن كل تلك الأسئلة بسرعة، يجب أن تصبري علي قليلاً.

- حسنًا أنا صابرة، تفضل.

- لقد تظاهر تيمور بأنه ميت في تلك الأمسية، ولكي لا أفضح أمره غادر البلدة وذهب إلى مدينة «كاترين»، وتابع أعماله هناك، بينما رجاله هنا قاموا بإزالة كل القبور والجثث من المقبرة ونقلوها ولم يتركوا أي أثر، وقاموا بتنظيف كل الجرائم التي قام بها في بلدتنا وأخفوا أدلتها، وبعد أن أنهى ذلك

عاد لينتقم ممن يظن بأنه هزمه وتزوج خطيبته؛ أي أنا.

- أنت تهذي يا أليكس، وما الذي يريده من الطفلتين ليقتلهما؟

- لأنه لا يزال يحبك ويريدك، ولكنه يريدك كما كنتِ قبل أن آتي إلى حياتك، يريدك تلك الفتاة التي لا تملك شيئًا سواه، ويريد أن يراكِ تبكين ليل نهار على زوجك وأطفالك وتدخلين في حزن شديد، وبعد هذا سيأتي هو ليقف بجانبك، ويظهر كالملاك الذي يخرج من العتمة ويُنقذكِ من الصعاب، إنه يريد أن يفعل كما ظنني فعلت، فهو ظن بأني قتلته وذهبت إليكِ لأواسيكِ، وأكون فارسًا وملاكًا بالنسبة لكِ، ومن ثم تزوجتك، هكذا عقله المريض يصوِّر له الأمور، إنه مريض يا جانيت يريد أن تحدث الأمور كما يريد لينتقم من الماضي.

رفعت جانيت حاجبيها متعجبة ونظرت إلى أليكس بنظرة شك ما بعدها نظرة:

- وكيف علمت أنت بهذه المعلومات؟

- ستتأكدين من هذه المعلومات عندما ترين تيمور على شاشة التلفاز والمذيع يعد جرائمه.

- لا تهمني شاشة التلفاز ولا المذيع ولا الإمساك بتيمور، أريد أن أعرف كيف وصلت هذه المعلومات إليك أنت يا أليكس، هيا أجب.

نظر أليكس إلى جانيت قليلاً، ثم أعاد نظره إلى الطريق وهو يفكِّر في نفسه: (كيف سأشرح ذلك الآن؟).

= من مذكرات أليكس وهو يافع =

- ها أنت تتحسن بعد أسبوع كامل من النوم والراحة.

كان أليكس اليافع جالسًا على السرير بعد أن استيقظ للتو، وينظر إلى الأرض بنوع من الخمول والشرود.

- جدي، هل يمكن أن نتحدث وأفهم ماذا حدث؟

- بالتأكيد، وقد أعددتُ طاولة لنجلس ونتحدث بكل الأمور.

- حسنًا، أنا جاهز.

ثم وقف أليكس وابتسم:

- أين هي تلك الطاولة اللعينة؟

- إنها هناك بجانب البحر.

- هل تُمازحني؟! نحن في الغابة ولا يوجد بحر هنا، أم أن الأمور العجيبة ستزداد من الآن فصاعدًا؟

ضحك الجد:

- لا، لا لن تزداد، فلقد حجزت طاولة في مطعم كوخ «هات فاسينيشن» على شاطئ البحر، سنذهب لهناك ونتحدث، هيا اذهب وارتدِ ثيابك بسرعة، سأنتظرك في السيارة.

- لماذا لا نتحدث هنا يا جدي؟

- هيا ارتدِ ثيابك ولا تكن كسولاً.

- إف، كوخ على البحر.

توجَّه أليكس وجده إلى مطعم «هات فاسينيشن»، وكما لم يتوقع أليكس فقد كان المكان أخَّاذًا، فهو عبارة عن كوخ صغير، تديره فتاةٌ نحيفةٌ ونشيطةٌ، ويحتوي على أربع طاولات خشبية فقط بجانب البحر مباشرةً، فتكاد الأمواج تصل إلى رجلي الجالس، وعلى كل طاولة شمعة اسطوانية كبيرة مغطاة بأنبوب زجاجي، والمكان مُضاء بالمشاعل المنتصبة التي تتحرك نيرانها بداخلها كراقصة؛ بفعل الهواء، والكوخ الصغير مليء بالأضواء الصفراء، وتظهر من خلال نوافذه الفتاة النحيفة ورجل سمين ذو شارب ظاهر ولحية طويلة، يتساعدان في إعداد الأطعمة والحلويات التي يقدمها الكوخ للزبائن.

وقف أليكس والجد بالقرب من الكوخ، فحضرت الفتاة لاستقبالهما وطلبت منهما بكل أدب ودلال وبلكنة أمريكية أن يخلعا حذائيهما، وأضافت:

- إنها طقوس المطعم الغريبة التي سننتها بنفسي.

وضحكت. شاركها الجد الضحك، وأضاف:

- إنها طقوس رائعة فما نفع رمل البحر وموجه وأنت منتعل؟

أومأت برأسها مؤيدة كلامه، ثم سألها مُلاطِفًا:

- هل نخلع ثيابنا أيضًا؟

ضحكت وحرَّكت يدها كطفلة، وغادرت وهي تقول:
- سأفكِّر بإضافة ذلك.

أما أليكس اليافع فلم يشارك بالحديث بل بقي كتمثال من الرمال، كان ينظر إليها فقط ويراقب كل تفاصيلها، واعترته رغبة جامحة في أن يضاجعها، وكأنه لا يستطيع أن يمنع نفسه عن ذلك، كان يريد أن يرميها على رمال البحر ويضمها ويتدحرج معها حتى يدخلا البحر ثم يغرقا إلى قاعه، ولا يخرجان أبدًا.

استمر بالنظر إليها كهِرٍّ يراقب حبلاً وهي تبتعد، حتى شعر بيد جده على كتفه، ولكنه لم يشعر بأي حياء، بل استمر بالنظر إليها. قال الجد:

- هيا اخلع حذاءك، وضعه على ذاك الرَّف.

خلع أليكس حذاءه، وحشا جوربه به ورماه على الرف، ومشى بجانب جده حافيًا.

= عبد الرحمن =

أخذت القذائف تنهمر على المدينة، وبدأ البناء الذي يقطنه عبد الرحمن يهتز من ضغط الانفجارات، فلقد كانت الأسلحة المستخدمة تصدر ضجةً ضخمةً وأصواتًا مرعبةً وضغطًا في الجو، إنها أسلحة روسية مخصصة لزرع الرعب في من يسمعها، حيث تصل أصواتها والضغوط الهوائية التي تسببها لمسافات بعيدة جدًا، مُرسِلةً الرعب في كل الاتجاهات.

كان البناء الذي يقطنه عبد الرحمن يهتز مع أصوات الانفجارات، فانتفضَ واقفًا عن أريكتهِ بعد أن سمع خطوات وأصوات جيرانه راكضة باتجاه الملجأ، وبدأ بجمع أغراضه المهمة: النقود والبطاقة الشخصية والبطاقة النقابية وبطاقة الصراف وبطاقة البنزين وبطاقة الغاز والخبز والسكر والرز... - وللتوضيح، فقد كان زمن عبد الرحمن هو زمن البطاقات والبيدونات، فكل رجل في زمانه كان يمشي وفي يديه بيدونا وفي جيبه العديد من البطاقات، أما البطاقات فكما ذكرت، وأما البيدون فهو لتعبئة ما ينتج عن البطاقات مما يسد الرمق والحاجة بعد الوقوف لساعات على طوابير التوزيع -..... ثم فواتير الهاتف والكهرباء والماء، فقد كانت حواجز الجيش تمنع مرور أي مواطن لا يُظهر هذه الفواتير وذلك لقمع الإضراب المدني عن دفع الضرائب، ولكن يمكن أن تحمل أي

فاتورة دفع ولو كانت قديمة أو لجارك مثلاً، لأن معظم عناصر الحواجز لا يحسنون القراءة بل ينظرون إلى لون الفاتورة لمعرفة ماهيتها، ومن ثم إلى عينيك ليكتشفوا إن كانت لك أو فيها أي تزوير، مستخدمين بصيرتهم وحدسهم، وإذا أعطيتهم بعض النقود، ستكفي نفسك جلسة التحديق تلك.

وضع عبد الرحمن بعض الأغراض الأخرى وخرج من الباب بسرعة وشرع بقفلهِ عندما اهتز البناء هزَّة شديدة، فكاد قلبه يتوقف بسبب هذا الاهتزاز، ثم أقفل الباب وضمَّ حقيبته التي تحتوي الأغراض إلى صدره وباشر بنزول السلالم باتجاه الملجأ في أسفل البناء.

رأى عبد الرحمن أطفالاً يتجاوزوه راكضين باتجاه الملجأ، ثم سمع خطوات أمهم لاحقة بهم، والتي اصطدمت به وتجاوزته دون اعتذار، ربما هي لم تشعر باصطدامها بالأصل فقد كانت بحالة توتر شديد. عرف عبد الرحمن هذه المرأة، فهي جارته في الطابق العلوي من البناء وقد زارها الأسبوع الفائت ليعزيها بزوجها الذي قُتِل برصاصة عندما كان ذاهبًا ليشتري الخُبز من الفرن، وبينما هو يراقبها تعبر أمامه رآها تصطدم بالحائط ثم تسقط وتنزلق على الدرج على ظهرها محُافظةً على الطفلة ذات السنتين التي تحملها، جاعلةً إياها على بطنها لكي لا تتأذى، تاركةً ظهرها ليتلقى كدمات حافات الدرج، وعندما وصلت إلى أخر الدرج وقفت بسرعة بعد أن امتلأ ثوبها بالغبار الأبيض والبني، وتابعت الركض دون أي استمهال، وكأنها لم تسقط بالأصل، وهي تدفع أحد أبنائها الذي عاد ليساعدها،

ورغم صغر سن هذا العائد إلا أنه يبدو أكبر الأطفال الهاربين، ربما كان عمره أحد عشر سنة تقريبًا، لقد كانت مرتعبة للغاية وأطفالها كذلك.

توقَّف عبد الرحمن عن المشي متأثرا بما رآه، وكأن رؤية هذه المرأة وأطفالها قد سحب من قلبه الخوف، وبدأت الدموع تنهمر من عينيه...

اتجه إلى النافذة التي في مطلع الدرج وأخرج سيجارة طويلة من علبة التبغ المفتوحة في جيبه، بينما المبنى يهتز على أصوات الانفجارات، وأشعلها وبدأ يدخنها مع سقوط بعض عَبَرَاتِهِ: (لم أعد أخاف من الموت لقد استوت عندي الحياة مع الموت) وبينما ينظر من الشباك، رأى النيران وأضواء الانفجارات تظهر في كل مكان من المدينة، ثم نظر إلى الأسفل فرأى شخصًا طويلاً ونحيلاً يقف أمام البناء ولا يبدو عليه الخوف أو الرعب، لقد بدا كشيطان يقف بمعزل عن ضوضاء المحيط، وكان ينظر إلى عبد الرحمن مباشرةً وبتمحيص وتركيز.

جفل عبد الرحمن من منظر هذا الرجل المُحدِّق به، وبدأ يسأل نفسه: (من هذا الشيطان الذي يقف في الأسفل؟)

وبدأ يتمتم في نفسهِ سور المعوذات: (بسم الله الرحمن الرحيم أعوذ برب الفلق من شر ما خلق...) ويدقِّق النظر... (أليس هذا الرجل هو صاحب المذكرات، ماذا كان يُدعى؟ أليكس نعم أليكس ما الذي يفعله هنا؟)... كان يُفكِّر بذلك

بينما لا يزل الرجل في الأسفل محدِّقًا به كتمثال.

= من مذكرات أليكس وهو يافع =

أخذ الشرشف الذهبي الذي يُغطِّي الطاولة يتمايل مع هبوب نسيم البحر الهادئ، وكان الهواء المنعش وصوت الموج يُزيِّنان المكان برهبة البحر.

جلس أليكس على كرسيٍّ خشبي أنيق ومريح، وقد وضع يديه على الطاولة، وشعر بسعادة وراحة لم يشعر بها في حياته كلها، فأحس بنعومة الإسفنج تحته، ثم حرَّك رجليه اللتين انغمستا بالرمال، وشعر ببرودة الرمال كما لم يشعر بها من قبل، أحسَّ بالهواء يصطدم بيديه ورقبته ولم يكن يعير هذا الإحساس اهتمامًا في ما مضى.

لاحظ الجد إحساس أليكس بنفسه وبالنادلة وإنصاته لصوت البحر، فابتسم:

- هذه هي العلاوة يا أليكس.

أجاب أليكس وهو لا يعير كلام جده الكثير من الاهتمام بسبب اندماجه مع الطبيعة المحيطة:

- أي علاوة؟ ماذا تقصد؟

- المشاعر يا أليكس، المشاعر التي تشعر بها الآن هي مكافأتك الوحيدة، وأجرك الوحيد على مساعدة أي أحد، والتجول خارج جسدك.

- وأيضًا لم أفهم؟ لا تُكثر من الأحاجي في هذه الليلة يا جدي، فدماغي خدِر وأشعر برغبة عارمة في أن أسترخي، وأن أجلس مع تلك النادلة، لا معك.

ابتسم الجد:

- حسنًا، سأوضِّح لك: أُجرتك هي الراحة، الراحة لا غير.

أومأ أليكس برأسهِ وابتسم وهو يشعر بأنه في سُكر، وعيناه تذهبان إلى النجوم في الأعلى والتي بدت قريبة بشكل مبالغ به، ثم تعودان إلى الرمال، ثم إلى البحر.

وبينما هو يتأمل الطبيعة حوله، أتت النادلة تحمل صينية مستديرة عليها أطباق الطعام وهي مبتسمة، فاستدار أليكس ونظر إليها كما لم ينظر إلى فتاة من قبل، حتى أنه استغرب نفسه، فهو لا يفعل ذلك عادةً، كما أن الفتيات النحيفات لا يَرُقنَه، ولكنه لم يُصدِّق حجم التفاصيل التي كان يستحصل عليها من المحيط، وكذلك حجم المشاعر، فهو الآن يراقب كل تفاصيل النادلة وكل حركة من حركاتها، إنه يراها بتركيز لم يعرف مثله سابقًا، وكأنه يقيس طول يدها، وأطوال أصابعها، وعدد رموشها، والألوان التي تلوِّن ثيابها، وكأن مشاعره وادراكه ملتهبان كنار المشعل الذي بجواره.

وقفت النادلة بمحاذاة الطاولة وقد أربكها استدارة أليكس وتحديقه المخيف بها وكأنه حيوان مفترس، وضعتْ السمك المقلي أمام الجد،و صحنًا آخر أمام أليكس، وبدأتِ بتوزيع الصحون الأخرى وهي ترتجف قليلاً، وأليكس محدِّقًا بها دون أن يرمش... ولتغطية توترها هذا قالت للجد مُبتسمة:

– كان ينبغي أن تصطحب صاحبك إلى مكان آخر، فحالته مزرية.

وضحكت ضحكة خفيفة شاركتها خنة من أنفها بصوت الضحكة.

عندها رمى أليكس اليافع بيديه على الطاولة بشكل مفاجئ مُصدرًا صوتًا قويًا، مما أخافها، فأوقعت ما كان في يدها من صحون وأجفلت وقفزت للخلف، وصاح:

– ما رقم هاتفك؟

وقفتْ مكانها مصدومة، وكذلك الجد أرجع كرسيه إلى الخلف، وراع هذا الموقف شريكها في داخل المطبخ فترك عمله ووقف عند النافذة ينظر إليهم وهو يجفِّف يديه بمنشفة.

نظرت النادلة إلى أليكس بعد أن تمالكت أعصابها وقالت:

– حسنًا، سأعطيك رقم هاتفي، ولكن بشرط واحد...

– ما هو؟

– أن تكُفَّ عن النظر إلي طيلة وجودكما في هذا المطعم.

– أعِدكِ بأني سأُخفِّف من ذلك.

ابتسمتْ وحركت رأسها يمينًا ويسارًا، وكأنها تقول أن أليكس شخص لا تنفع معه الحلول.

سحبتْ من جيب يتوسط مريولها بطاقة عليها صور مطعمها وأعطته إياه:

– رقمي هو الثاني، والأول لشريكي.

سحب أليكس البطاقة من يدها ونظر إليها، ثم مزَّقها، ورمى القصاصات الممزقة إلى الأعلى، ورفع يديه باتجاه النجوم كطفل، وصرخ:

- خذي يا نجوم خبئي لي هذه البطاقة لديكِ.

وتناثرت قصاصات البطاقة على الطاولة وحولها.

غادرت النادلة وهي تنظر إلى أليكس باستغراب وتلتفت إليه بين الحين والآخر، وهو مُحدِّق بها دون أن يرمش ككنغر شاخص إلى أضواء سيارة، ثم دخلت إلى الكوخ حيث كان شريكها يقف مستنفرًا ليعلم ماذا حصل.

أما الجد، فكان يضع يده على عينيه وجبينهِ خجلاً.

= عبد الرحمن =

نادى أليكس على عبد الرحمن بأعلى صوته:

- انزل إلى الملجأ بسرعة.

لم يدرك كيف استطاع صوت أليكس أن يدب الرعب والخوف في نفسه بعد أن استوت لديه الحياة والموت قبل قليل، فوجد نفسه يجري على السلالم متوجهًا إلى الملجأ، بينما البناء يهتز من دوي الانفجارات.

شعر بأليكس يمسكه من ساعده، ويركض برفقته باتجاه الملجأ ويصيح:

- تماسك يا عبد الرحمن.

ثم همس في أُذنه:

- هل جلبتَ مذكراتي معك؟

نظر عبد الرحمن إليه بإزدراء، فقد استغرب سؤاله في مثل هذا الوقت الحرج، وأدار وجهه عنه دون أن يجيب.

ثم تذكَّر الأشياء التي وضعها في حقيبته: البطاقة الشخصية، بطاقة النقابة، بطاقة الصرَّاف، بطاقة البنزين، بطاقة الخُبز والغاز والرز والسكر، ثم فواتير الكهرباء والماء والهاتف... وتذكَّر بعد ذلك بأنه حمل المذكرات الضخمة وفكَّر في وضعها أو تركها، ثم دفعها داخل الحقيبة ومضى...

التفت عبد الرحمن إلى أليكس وقد أوشكا على بلوغ الملجأ:

- أليكس...

وأراد أن يقول له: (إن المذكرات معي)، ولكن البناء اهتز بعُنف، وسمعا دويّ انفجار يصم الآذان.

اندفع كل من أليكس وعبد الرحمن بفعل ضغط الانفجار واصطدما بالباب الحديدي للملجأ واندفعا داخل الملجأ وسقطا على الأرض.

انهار البناء بالكامل وكأنه زلزال، وانتشر الغبار في كل مكان، وتداعى سقف الملجأ، ثم خيَّم صمتٌ مطبق.

= من مذكرات أليكس وهو يافع =

- لقد أصبحتَ الآن يافعًا، وعليك واجبات كبيرة..

نظر أليكس إلى جده ونسيم البحر يُحرِّك شعره وشعر جده.

- لقد قلتَ لي هذا سابقًا يا جدي، فلقد أصبحتُ يافعًا، أفهم ذلك، أخبرني شيئًا جديدًا.

- حسنًا، لكي تفهم يا أليكس ما أُحدِّثك به؛ لا بد أن تتوقف عن التفكير بالمنطق، فلا يمكن أن تقيس اللامنطق بالمنطق.

- حسنًا يا جدي، دعنا نحاول ذلك.

ووضع قطعة من السمك المقلي في فمه وبدأ يلوكها.

- بُنِيَ العالم على النقائض، فكما يوجد الليل يوجد النهار، وكذلك توجد المادة واللامادة، وهما موجودان، متحدان أحيانًا وأحيانًا منفصلان، والمادة لها شكلان: الأول مرئي، والشكل الآخر لا نراه، فالشكل المرئي هو كالطاولة التي أمامك والشكل اللامرئي هو كالهواء أو موجات الراديو...

- حسنًا، لحد الآن كل شيء منطقي، ابدأ باللامنطقي يا جدي، تكلِّم عن اللامنطق، فنحن مُقدِمان على مغامرة لا مثيل لها.

ودفع قطعة أخرى من السمك المقلي في فمه، ألحقها بملعقة من السلطة وقطعتين من البطاطا المقلية، ووجهه لا

يخلو من ملامح الغباء.

- ما أنت بصدده يا أليكس هو اللامادة، وهي كثيرة جدًا، وموجودة في كل الأماكن تقريبًا، ولا يمكن تشبيه اللامادة بأي تشبيه مادي لشرحها، وأنت يا أليكس تحتوي على هذه اللامادة في داخلك، ويمكنك أن تستخدمها لتتحرر من جسدك المادي لبعض الوقت والتجول أينما تشاء، وهذه الخاصة لا تتوافر لجميع الناس، بل لعدد قليل جدًا من كل سُكان هذا العالم. واللامادة هي من تختار من يمكنه ذلك.

- حسنًا يا جدي، إن كل ما تقوله لا يعدو كونه خرافة عديمة الجدوى، وغير ممكنة الإثبات، وتشبه ما كنا نتحدث عنه عندما كنا نقرأ عن الأديان في الحضارات القديمة، ونتحدث كم تضم من خرافات وأكاذيب وسياسة ومواربة.

- نعم يا أليكس، لقد أصبتَ مئة بالمئة، إن ما أُخبرك به الآن هو مجرد خُرافة ولا ينبغي أن يُصدِّقها أحد، باستثناء الأشخاص الذين عاشوها وواجهوها وجهًا لوجه، مثلك ومثلي، لأنها بالنسبة لنا لم تعد خرافة، بل حقيقة نعيشها، أما سائر البشر فلن تستطيع أن تثبت لهم شيئًا، باستثناء من تريد اللامادة أن تثبت له ذلك.

- ما هذا الكلام الغريب؟! أنت أخرق يا جدي، قرِّب لي ذلك الصحن من جوارك.

- تأدَّب يا أليكس وأنت تتكلم معي، وقُمْ وأحضر الصحن بنفسك.

- أعتذر، أنا آسف، لم أنتبه لكلامي.

= عبد الرحمن =

خيَّم صمتٌ مطبق على المكان، وكان عبد الرحمن لا يسمع سوى أزيز حادا في أذنيه، ولا يرى شيئًا بسبب الغبار.

بدأ يفكِّر بما حلَّ بالرجل الأسترالي الذي كان بجواره.

كان أليكس مرميًا على بُعد مترين من عبد الرحمن ولا يسمع سوى الأزيز، ولا يرى سوى الغبار كحال صديقه، فكوَّر جسده وبدأ يتحسسه بيديه من الأسفل إلى الأعلى ليرى إن أصابه مكروه. في حين بقي عبد الرحمن مُمددًا على الأرض يشعر بالحزن الشديد والألم، وليس لديه إرادة لأن يتحرك أو يفعل أي شيء يذكر، فهو مُحطَّم من الداخل بسبب ما حلَّ به وببلادهِ من خراب. وضع يده على بطنه الكبير وأزاح القميص ليشعر بيديه تمتلئان بالدماء...

- إني أنزف...

قال ذلك ثم قرَّب يده إلى وجهه ليشتمَّ رائحة الدماء.

بدأ أليكس يسمع أنين بعض النساء، وأصوات بكاء بعض الأطفال بصوتٍ خافتٍ مُرافقٍ لصوت الأزيز الذي في أذنيه، ثم بدأ يزحف باتجاه عبد الرحمن حتى وصل إليه وبدأ يتحسَّسه:

- هل أنت بخير؟

- نعم، ولكني أنزف.

تفحصه أليكس وقال:

- لا تقلق، إنه جُرح خفيف يحتاج لبعض القطب وحسب.

وفجأة، اهتزت الأرض لسقوط قذيفة في مكان قريب من البناء، ودوى صوت الانفجار ليملأ المكان من جديد بالضجيج، وعاد الأزيز إلى أذني أليكس وعبد الرحمن.

بعد بعض الوقت هدأ المكان نسبيًا، فانتصبَ أليكس وأخذ يسير في الملجأ الذي تهالك جزءٌ منه، وقِطعٌ متهالكة من الإسمنت منتشرة في أجزائه. حاول أن يرى من خلال الغبار، فوقع نظره على بعض الأشخاص الذين يتحركون وينفضون الغبار عن أجسادهم، ولكنه كان يسمع عويل امرأه في مكان ما، وكأنه صوت حيوان جريح، أو أنه صراخ مكتوم يخرج من حنجرة غير قادرة على إطلاقه... توجَّه باتجاه الصوت فرأى امرأة في زاوية الملجأ المنهارة، وكانت تلطم وتضرب على الحائط المنهار، وتحاول أن تصدر صريخًا من حنجرتها ولكنها لا تستطيع، فيصدر كعويل مكتوم. اقترب أليكس منها ووضع يده على كتفها وأدارها باتجاهه:

- ما بكِ؟

كان وجه المرأة مليئًا بالرمال وغبار الإسمنت ولطخات دماء على رقبتها، والرمال والغبار ملتصق في فمها ولسانها يمنعها من الكلام. حاولت أن تقول شيئًا ولكنها لم تقوَ على اللفظ، وكان جسدها منهارًا فلم تستطع أن تومئ أو تشير، مع أنها بدت بأنها تحاول ذلك.

قرَّبَ أليكس أذنه من فمها ليسمع ما الذي تريد أن تقوله، وعندما أوشكت على النطق دوى انفجار آخر ناتج عن سقوط قذيفة بالجوار وملأ صوته المكان بالضجيج مجددًا، فلم يسمع أليكس شيء من كلام المرأة، ولما أدركت أن أليكس لم يسمعها ولن يسمعها ولن يفهم ما تريد، انهارت بالكامل، وسقطت على الأرض جالسة، وبدأت تضرب على الحائط وهي منهكه، أدرك أليكس من حركتها هذه أن تحت هذا الحائط أحدًا يخصها.

= من مذكرات أليكس وهو يافع =

– تبًّا للألغاز يا جدي.

ورمى قطعة من السمك في فمه، قبل أن يتابع الكلام:

– أنت تقول بأني استثنائي، وبأنك كذلك، وبأننا نستطيع أن نغادر جسدنا ونتجول في كافة أنحاء الأرض لمساعدة أي شخص نختاره، وبعد ذلك تجدني أبقى منهارًا لأربعة أيام، وتعلقُ لي السيرومات لأبقى حيًّا، أين العدل في ذلك برأيك.

ورمى ملعقة من السَّلطة في فمه وقطعتي من البطاطا المقلية ووجهة لا يخلو من البلاهة.

– لن يستمر ذلك طويلاً، فستزداد قوتك بمرور الزمن، وفي المستقبل لن تحتاج إلى أربعة أيام لترتاح، بل لبضع دقائق، وبعدها ستستعيد كامل طاقتك.

– حسنًا، ولكنك ستكون بجانبي وتُعلِّمني دائمًا.

– سأبقى بجانبكَ بالتأكيد، ولكن لن أُعلِّمك شيئًا أكثر مما أخبرتُك به الآن.

فتح أليكس فمه مُستغربًا:

– لماذا يا جدي؟

– ستتنقل بين العديد من المُعلِّمين من مختلف أنحاء الأرض، وهم سيقومون بتدريبك وتأهيلك.

– هل هُم أشباح؟

– بعضهم لامادة، وبعضهم بشر.

– سأحتاج إلى جواز سفر والكثير من المال.

– لن تحتاج لشيء من ذلك، كل ما تحتاجه هو أن تجلس على الأريكة وتسترخي.

= عبد الرحمن =

أزاح أليكس المرأة المنهارة عن الحائط، وبدأ يحاول التنقيب وتحريك قطعة الإسمنت المتداعية، ولكنها كانت ثقيلة ولا تتحرك، ثم شعر بيد توضع على كتفه وسمع صوت عبد الرحمن من خلفه: (دعني أساعدك).

كان قميص عبد الرحمن ممزقًا وبطنه ظاهرٌ ومجروحٌ والدماء تسيل منه لتلوِّن سرواله باللون الأحمر القاني.

أمسكا بالحائط المتداعي وبدآ بالسحب، ولكنه لم يتحرك. عدَّل عبد الرحمن من وضعيته ليصبح بجانب أليكس، قائلاً:

- دعنا نحاول أن نسحب من جهة واحدة يا أليكس.

سحبا من زاوية واحدة في محاولة لتحريك القطعة الإسمنتية الكبيرة، وبالفعل تحركت لبضع سنتيمترات، وبدا إثر ذلك شعر أسود ملأه الغبار وجزء من رأس فتاة صغيرة، الأمر الذي زاد من عويل المرأة خلفهما والتي انهارت بالكامل وسقطت جاثية خلف أليكس ومدت يدها لتمسك بحزامه، وبدأت تسحبه وهي تقول: (احفروا احفروا، أخرجوها)، بصوتٍ مكتومٍ بالكاد يخرج من حنجرتها.

أمسك عبد الرحمن بيد المرأة وأبعدها عن حزام أليكس ثم قال:

- أليكس دعنا نسحب معًا وبقوة أكبر.
- حسنًا. واحد، اثنان، ثلاثة.

سحبا بكل قوة، فتحرك الحائط لبضع سنتيمترات أخرى وانكسرت قطعة الإسمنت التي يمسكها أليكس فسقط للخلف على المرأة المنهارة خلفه، فدفعته ليسقط بجانبها وعندما حاول النهوض أمسكته من قميصه: (أين خديجة؟ أين هي؟).

كان عبد الرحمن قد انتصب بجانب الجدار، فأدخل يديه بحذر وانتشل فتاةً بعمر السنتين، كانت الفتاة وبرغم سقوط الحائط عليها وجزء من سقف الملجأ إلا أنها لم تتأذى بالمطلق فقد صنع الركام هرمًا فوقها، وغطَّاها الغبار بالكامل، ولا تزال بوعيها فاتحةً عينيها وناظرةً دون أن تتكلم، فقد كانت مصدومة.

انتصبت المرأة بعد أن رأت طفلتها بين يدي عبد الرحمن ينفض الغبار عنها ويكلمها، وعندما رأتها الطفلة دفعت نفسها بيدها ورجليها من بين يدي عبد الرحمن واثبةً باتجاه أمها والتي ضمتها وأجهشت بالبكاء.

= من مذكرات أليكس وهو يافع =

تغيَّرت حياة أليكس المراهق بالكامل عما كانت عليه، فها هو يذهب إلى الجامعة بنشاط وقوه ويدخل مبنى الجامعة رافع الرأس، مندفعًا دون أن يُعير اهتمامًا لأحدٍ سوى نفسه، يشعر بالطاقة والرضى والمحبة، وزادت ثقته بنفسه، لأن شيئًا يميزه عن سواه، «فلم يعد من دون لون» على حد تعبيره.

وبينما هو منشغل في التفكير بذلك، رأى ليزا تقف بجانب خزائن الأمانات، وعلى غير عادته ودون أن يشعر بأي خجل، توجَّه مباشرةً إليها، وأخذت ليزا تراقبه من بعيد وهو مندفع ناحيتها، شعرت وكأنها تراه للمرة الأولى، فقد أحسَّت بإحساس مختلف اتجاهه، فلطالما رأته شخصًا لا يستطيع السيطرة على أفكاره ولا يثق بنفسه، وخجولاً ويبدو غبيًا أحيانًا، وتصرفاته طفولية، وتعتقد بأنه يحتاج إلى الكثير من الدروس ليصبح شابًّا، وينال قلب فتاةٍ، ولطالما لاحظت جماحه الجنسي اتجاهها، وكان ذلك يُضحكها ضحكة غير نابعة من القلب، ويجعلها تشعر بالتقزز من التفكير بالجنس معه...

ولكن الأمر يبدو مختلفًا هذه المرة بنسبة كبيرة، فهو يبدو وسيمًا بشكل مُلفت، وكذلك واثقًا من نفسه، ورياضيًا، تساءلت في داخلها: (كيف لم أره بهذه الصورة من قبل).

أقبَلَ أليكس مندفعًا باتجاهها وكان يرتفع وينخفض أثناء المشي بسبب سرعته، فهي كانت تراه وكأنه يثب بين الطلاب الكُثر الواقفين يتبادلون الأحاديث.

استغربت ليزا طريقة مشيته هذه واندفاعه بين الطلاب وسرعته في اجتيازهم، فلم تره كذلك منذ أن عرفته، فبدا كلاعب كرة سلة يتجاوز اللاعبين الآخرين برشاقةٍ، ولاحظ غيرها من الطلاب سلوك أليكس الغريب.

وبينما هي تراقب أليكس الذي يحدق بها والمندفع باتجاهها بدأت تشعر ببعض القلق من هذا السلوك، فهو لم يُبطئ من مشيته رغم أنه يوشك أن يصل إليها، ثم بدأ الأمر يصبح مريبًا، فلم يبقَ سوى خطوتين ليصل إليها، صاحت به: (أليكس) ووضعت يديها على وجهها ومالت قليلاً متهيئةً لاصطدامٍ متوقعٍ...

ولكن هذا الاصطدام لم يحدث وخيّم سكون للحظات وهي مغمضة العينين وتنتظر، ولما طال الانتظار للحظات أخرى فتحت عينيها فوجدت أليكس لا يبعد عنها سوى نصف متر وحسب، ابتسمت وقالت:

- ما بك يا أليكس؟ هل فقدت المكابح؟

ضحك أليكس:

- لماذا لم تزوريني أبدًا يا اليزابيث رغم أننا نعرف بعضنا منذ زمن ما رأيك أن تزوريني غدًا وتتعرفين على جدي؟

سكتت ليزا مستغربة، وأحسَّت بأن هذا الشخص قريب منها لسبب ما، وكأنه رافقها لزمن ما وشاركها أفراحها وأحزانها، لم تستطع أن تفسِّر هذا الشعور.

- حسنًا، سأعتبر سكوتك هذا موافقة.

= من مذكرات أليكس عن شبابه =

- اصبري يا جانيت سأوضح لكي كل شيء، ولكن أعطني بعض الوقت، أشعر بأني أمام ضابط يحقِّق معي.

- انتهى الصبر يا أليكس، أنت تخفي عني الكثير من الأمور وطوال فترة زواجنا، وهذه الأمور تهدد حياة طفلتينا، ومع ذلك تريدني أن أهدأ، فما الذي يثبت لي بأنك لست المجرم وتيمور هو الضحية، هاااا؟، أخبرني كيف أثق بك بعد اليوم وكنت بجواري وتغازلني ومع ذلك تخفي كل ذلك عني؟ كيف تريدني أن أهدأ بعد ذلك يا أليكس؟ خذني إلى قسم الشرطة حالاً.

- أرجوكِ اهدأي، سنتحدث قليلاً ثم نقرر ماذا سنفعل، وإذا قررتِ الذهاب للشرطة، سنذهب معًا.

استدارت السيارة عن الطريق العريض الذي يشق الغابة ودخلت في طريق ترابي تحيط به الأشجار، بدأت الشكوك تساور جانيت: (هل يعقل أن يكون أليكس مجرمًا، وكل كلامه وأفعاله لتغطية هذه الجرائم؟ وأين يأخذنا الآن، هل من الممكن أن يفعل شيء لي وللطفلتين؟ هل سيسجننا؟)

بدأت كل هذه الوساوس تدور في ذهنها بسرعة، مما زاد من توترها، وبعد قليل أبصرتْ بيتًا خشبيًا ضخمًا مؤلفًا من

طابقين وأمامه باحة كبيرة، بدا البيت ذا هيبةٍ وجمالٍ أخّاذ...

- لمن هذا البيت يا أليكس؟

- إنه لي.

- لم تخبرني بذلك سابقًا.

- هيا يا جانيت لنحمل الطفلتين للداخل وسنُكمل الحديث بعد ذلك.

= من مذكرات أليكس وهو يافع =

- لم أتوقع بأنك تعيش في غابة يا أليكس وبشكل منعزل.
- نعم يا ليزا أنا ذئبٌ يهوى الحرية.

قالها مبتسمًا.

كانت التفاصيل التي تحصل عليها ليزا من الحديث مع أليكس أثناء جلوسها بجانبه في سيارته تزيد من إعجابها به ومن مكانته لديها، وهي التي قبلت هذه الزيارة، لكي تتخلص من تفكيرها المتواصل بمرضها ومخاوفها، ولكنها الآن تتفاجأ من الأسرار التي كان يخبِّأها أليكس طوال معرفتها به في السنة الأولى والثانية من الجامعة، فلم تعلم بأنه يعيش بشكل منعزل في غابة كبيرة تبعد عن الجامعة ساعة ونصف سيرًا بالمركبة، ولا يوجد فيها سوى منزله فقط، ويعيش مع جده لوحدهما.

كان أليكس يقود سيارةً قديمةً، تحتوي على أربع مقاعد وعربة خلفية، والسيارة تهتز بسبب ضعف النوابض والمخمدات.

- إن الركوب في هذه السيارة فيه مُتعة غريبة، رغم أنها قديمة ومهترئة، ألا تشعر بالخجل من منظرها أمام الأصدقاء يا أليكس؟

– لا طبعًا، بل أشعر بالسعادة من خلال المتعة التي تحدثتِ عنها، فأنا مصمم فطريًّا على عدم الاعتناء بكلام الأصدقاء وأفكارهم مطلقًا، فأنا مسنن في هذا الكون، ولا يحتاج سوى للتزييت.

استغربت ليزا كلمة مسنن وعبارة تزييت، ولكنها ابتسمت، وتابعت النظر إلى أشجار الغابة وهذا الطريق العريض الخالي والذي لا توجد عليه سوى سيارة أليكس المترنحة، كانت هذه المناظر واهتزاز السيارة يمنحانها شعورًا بالراحة والجمال، فالطبيعة تبعدها عن المشاعر المزعجة، ثم انعطفت السيارة في طريق شبه ترابي فرأت منزل أليكس الخشبي الكبير الذي تخفيه الغابة عن الناظر سوى من يدخل إلى داخلها ويجتاز الطريق الترابي.

رأت منزلاً كبيرًا يتألف من طابقين وأمامه باحة واسعة تحتوي على بعض الدجاجات، وجَدي صغير وحصان أحمر اللون، وقد وُضِعت هذه الحيوانات بتخطيط من أليكس فقد طلب من «كين» – المزارع الذي يعتني بمزرعة وبيت جده – أن يحضر الحصان الأحمر الجميل والجدي الصغير رائع الهيئة، ويضعهما في باحة المنزل ليكونا أول ما تراهما ليزا عندما تصل، أما الدجاجات فكانت إضافة شخصية من «كين».

كانت ليزا مسحورةً من جمال المنظر ومن روعة هذا المكان الذي يجمع بين الحياة البدائية والحضارة، فهناك منزل كبير حضاري وأمامه باحة تضم موقدَ نارٍ وإبريقًا من الفُخَّار،

وطاولةً خشبيةً ومقاعد مُصممةً من جذوع أشجارٍ ضخمةٍ، والحيوانات متناثرة في الباحة الكبيرة، لقد كان الجو ساحرًا...

- هل تعيش هنا يا أليكس؟

- نعم.

أمسكتْ بيده وكأنها خائفة أن تضيع في كل هذه التفاصيل المحيطة. ثم اقتربا من المنزل، فانفتح الباب واستوى عليه رجل ضخم لديه ذقن طويلة موشحة بالشيب، كان حجمه يغطي باب البيت بالكامل، فاتكأ على أحد جوانب الباب، لقد بدا ذا هيبة كبيرة. تمهلت ليزا وهي متجهة إلى البيت رهبةً من هذا الشخص، بينما الرجل ينظر إليها وكأن نظراته تخترق جسدها وتسبر ما يجول في ذاتها ويراقب أبسط تفاصيل حركاتها...

تمتمت ليزا لأليكس:

- هل هذا جدك؟

- بشحمه ولحمه.

- يبدو ذا هيبة كبيرة.

- لا يخدعك الحجم، فجدي ضخم الجسم، ولكن قلبه كقلب الأطفال الصغار.

- حسنًا، سنرى ذلك.

رحَّب الجدُّ بهما، ودخلا إلى المنزل لترى ليزا جمالاً يوازي ما رأته في الخارج، فبعدما تجاوزت الباب وأصبحت داخل المنزل بدت وكأنها انتقلت من عالم إلى آخر مختلف كُليًّا، فالمنزل واسع ودافئ، وفيه العديد من نباتات الزينة مختلفة الألوان

والأشكال، وكانت نوافذه كبيرة تبدو كنوافذ القلاع، ومنظر الباحة التي تظهر منها يزيدها جمالاً، بالإضافة إلى المكتبة الضخمة التي تعطي هيبة وراحة للمكان، والمطبخ يحتل جزءًا من الطابق السفلي الكبير، وفي وسط المطبخ شاهدت طاولةً كبيرةً تحتوي على طعام، يبدو بأنه أُعِدَّ خصيصًا من أجلها.

ابتسم الجد:

- سنأكل اليوم من هذا الطعام، ولكن إن بقيتِ للغد يمكن أن نذهب في نزهةٍ ونصنع الغداء في الطبيعة.

= من مذكرات أليكس عن شبابه =

دخلت جانيت وأليكس البيت الخشبي الكبير، وكان نظيفًا ومرتبًا وغايةً في الرهبة والجمال، فقد كان «كين» يشرف على تنظيفه دائمًا...

حمل أليكس إحدى الطفلتين النائمتين، وجانيت الأخرى، وتوجها إلى الطابق الثاني. كانت جانيت تتبع أليكس أينما ذهب، ودخلا إلى غرفة كبيرة، نظرتْ حولها فرأت صور أليكس وهو صغير ومراهق تملأ المكان، وضعا الطفلتين على السرير الكبير وكان منحوتًا على صدره الخشبي بخط عريض عبارة: (ليزا أحبك كثيرًا، كان يومًا رائعًا) ورُسِم بجانبها صورة قلب وكُتِب تاريخٍ يوثق اليوم والسنة بجانب هذه العبارة.

قام أليكس بتقبيل طفلتيه وتغطيتهما بغطاء رقيق بمودة وهدوء، وبدأت جانيت تتجول في الغرفة، كانت صور أليكس وهو صغير تملأ زاويةً من الغرفة، وصوره وهو مراهق تملأ الجهة الأخرى منها، أخذت تلقي نظرة على صوره وهو طفل، وابتسمت فقد عرفته من عينيه، فعيناه لا تزالان كما هما منذ أن كان طفلاً.

بدأت تتأمل الصور، فبإحداها يضم أليكس خروفًا أبيض وبصحبته فتاة صغيرة لا تعرفها وكانا ضاحكين وإحدى أسنانه الأمامية مفقودة، وكذلك الفتاة التي بجانبه لديها سنتان

مفقودتان... وفي صورة أخرى يقف وقفة رياضة الكونغ فو الصينية ويبتسم... وأخرى يحمل سيفًا وهو عابس الوجه... وأخرى يصعد شجرة وسرواله ممزق مُظهرًا جزءًا من مؤخرته ويضحك.

ثم ذهبت إلى الزاوية الأخرى من الغرفة لترى صوره عندما كان يافعًا، فرأت صوره وهو في الجامعة وفي يوم التخرج، وصوره مع أصدقائه وصديقاته اليافعين، وصوره وهو يركب إحدى الدراجات النارية الضخمة.

لقد كانت الصور تحمل تاريخ أليكس بالمجمل وكأنها تُصوِّر مراحل حياته.

- هل عشت طفولتك ومراهقتك هنا يا أليكس؟

- نعم.

توجهتْ نحوه ووقفت أمامه مباشرةً:

- أنا أشعر بشعور مزعج الآن، أشعر بأني غبية، فكيف سمحت لك بألا تخبرني عن حياتك بالتفصيل واعتبرت ذلك مسألة شخصية طوال فترة زواجنا، وأنت بكل برود لم تخبرني من تلقاء نفسك، وهذا المكان مليء بصورك وبالأسرار، لماذا تخفي أسرارك عني؟، أشعر برغبة جامحة بأن أضربك يا أليكس، لماذا تتكتم على حياتك وماضيك؟

- كنت أريد أن أحدِّثك عن حياتي، بل كنت أتمنى ذلك، ولكني لم أكن أعرف كيف أخبرك بذلك، ففي حياتي أشياء لا يمكن تصديقها، وهي التي تمنعني من إخبارك.

أمسكتْ بيده :

- تعال معي إلى الأسفل ففي هذه اللحظة سأعرف كل شيء، ولن أصدِّق أي شيء تقوله لي.

أخبرها أليكس بكل شيء عن حياته، وبكل التفاصيل، وبأنه يستطيع أن يغادر جسده، وبكل ما حدث معه، وكيف كشف أمر تيمور... وجانيت منصتة، ولم تتلفظ بأي كلمة.

بعد أن انتهى بقيت صامتة طوال المساء تتجول في البيت دون أي كلام رغم أنها بدت أحيانًا تهم بأن تسأل أليكس عن شيء ما، ولكنها تتراجع عن السؤال وتعود للصمت، فيما انشغل هو بصُنع الطعام فقد كان طاهيا جيدًا، والطفلتان تحبان الطعام الذي يصنعه هو، لا الذي تصنعه جانيت.

في اليوم التالي عندما استيقظت كان أليكس قد أعد القهوة ولا تزال الطفلتان نائمتين، وكان جالسًا تحت إحدى الأشجار في الحديقة الخارجية، أتت جانيت وهي تتمايل - كونها لم تستيقظ بشكل كامل بعد - وتجرها رائحة القهوة كما تجر الهرة رائحة اللحم المشوي.

جلستْ بجانبه على جذع الشجرة الذي أُعِدَّ ليصلح للجلوس، وبينما كان يسكب لها القهوة قالت له:

- اسمع يا أليكس، أنا أُصدِّق كل ما قلته لي البارحة، ويجب أن تعلم بأني أحبك وأثق بك، وسأبقى معك مهما حصل.

ثم ضمَّته ومالت على كتفه، فكاد أن يسقط عن المقعد، ولكنه تدارك نفسه.

= من مذكرات أليكس وهو يافع =

جلبت زيارة ليزا لأليكس وجدّه السعادةَ إلى نفسها، وقد استهلكت معظم الوقت بالحديث مع الجد، فقد رأت في شخصه لطافةً وحكمةً لم تجدها في أحد قابلته من قبل، فكانت تتحدث معه وأليكس يجلس بجوارها ينظر إليهما ويشارك أحيانًا في توجيه الأسئلة إلى الجد.

شعرت وكأنها تجلس وسط عائلتها، هذا الشعور الذي لم تجده في عائلتها الحقيقية، وعندما حلَّ الليل وذهب الجد للنوم بقيت ليزا ممددة تتثاءب على الأريكة أمام التلفاز وأليكس يبحث في الثلاجة عن طعام يريده، ثم استوت جالسة وقالت:

- يجب أن أنام الآن.
- تعالي لأدلك إلى غرفة نومك.

صعدا السلم الخشبي حتى وصلا إلى غرفة كبيرة يتخللها سرير واسع، كان يبدو دافئًا ومغطى بغطاء صوفيٍّ يشبه فراء دب قطبي أبيض، والغرفة مكيفة وحرارتها معتدلة.

اتجهت ليزا إلى السرير ولمست الزغب الطويلة للغطاء بحركة تبدو كبداية لرقصة، ثم استلقت على السرير، نظر أليكس إليها وكأنه يحاول أن يلتقط أكبر عدد من الصور قبل

أن يغادر الغرفة ليتمعن بها كذكريات لاحقًا.

- تُصبحين على خير يا ليزا سأراك صباحًا، سأنام في الأسفل، إذا احتجت لشيء أخبريني.

أدار وجهه واتجه إلى الباب مغادرًا، وعندما وصل إلى الباب سمع صوتها خلفه:

- انتظر قليلاً.

تسمَّر في مكانه، ليشعر بيديها تُوضعان على كتفه. التفت إليها فنقلت يديها لتضعهم مجددًا على كتفيه، ثم ابتسمت:

- أليكس السرير كبير، تستطيع أن تنام بجواري، وخصوصًا أن الليل مظلم والغرفة كبيرة وباردة.

شعر بدوار خفيف، فما كان يتمناه يحصل ودون سابق إنذار، أحسَّ بموجه كبيرة من الأدرينالين تتدفق في جسده وتذكر أن هناك جنود كثيرين في الحرب العالمية الثانية قد لقوا حتفهم بسبب تدفق الأدرينالين بنسبة عالية في أجسادهم، ثم أبعد هذه الفكرة من رأسه، وفجأة أصبح عاجزًا عن الحركة تمامًا، وتشنج جسمه وتصلب واحمر وجهه وأصبح تنفسه صعبًا، وكان هذا الوضع يزداد سوءً كلما فكَّر بأنها ربما تقصد من كلامها أن ينام بجوارها ويُعانقها، فبدأ العرق ينهمر من جبهته، وسال ماء أنفه فبدأ ينشقه.

لاحظت ليزا حاله وتوتره وعجزه عن الكلام، أما هي فكانت هادئة وتشعر بالسعادة، فهذا المنزل وسُكانه أخرجوها من تفكيرها المستمر بمرضها والمعاناة المحتملة وجعلوها تحيا يومًا

رائعًا، وهذا الشاب الذي أمامها يبدو بسيطًا وطيبًا ووجهه يتدفق بالنور وكأنه بائع سمك - على حد رأيها، فكان لديها اعتقاد بأن كل بائع سمك يملك وجهًا منيرًا وبريئًا، لأنها تعرف ثلاثة بائعي سمك يملكون وجوهًا بريئة ومنيرة - ولمَّا وجدته على هذا الحال، أمسكت بيده وحاولت جعله يمشي، ولكنها تفاجأت أنه متسمِّر في مكانه، فموجة الخجل التي أتته هذه المرة كتسونامي دمَّرته من الداخل وجعلته تمثالاً من صخر.

علمت ليزا أن تقديرها لمستوى خجله كان أقل من الواقع، فاقتربت منه وقبَّلته على شفتيه المتجمدتين، وهمست في أُذنهِ بلُطف ودلع مصطنع:

- هيا يا طفل إلى الفِراش، فقد تبرد هُنا.

ولكنها تفاجأت مما حدث بعد ذلك، فقد زاد وضعه سوءً، فكلماتها زادته تجمدًا وكأنه تحول إلى لوح خشبي، وازداد تساقط العرق على جبينه ورقبته، وأصبح يفكر بالجنود الذين قضوا نحبهم بالأدرينالين في الحرب العالمية الثانية.

عندها أدركت ليزا بأنها يجب أن تُعالِج الموقف بسرعة قبل أن يموت، فأمسكته بقوة وقادته قسرًا ورمته على السرير فسقط عليه كلوح خشبي، تحرَّك قليلاً ثم جمد، ثم وقفت بجانب السرير وبدأت تخلع ملابسها، بينما أليكس اليافع يراقبها بزاوية عينه ويشعر بالسُّكر دون شراب، وكأنه تحول إلى طفل منذ أن رمت عليه تلك التعويذة السحرية: (هيا يا طفل إلى الفراش...) فهو يحس بأنه طفل ويكاد يضع إبهامه

في فمه... (كيف علِمتْ بأني طفل صغير، وبأني محتاج إلى أُمٍّ جديدة لأعود طفلاً فورًا، أو أنها لم تعلم ذلك؟).

أخذتْ تجول هذه الأفكار في خاطر أليكس اليافع بصورة مشوشة بينما يراقبها وهي تخلع ثيابها، (إنها كتمثال أفروديت - العارية - آلهة الحب والجمال عند اليونانيين، ولكنها أسمن قليلاً.

أمَّا ليزا فلم تكن الأمور بالنسبة لها على هذا النحو، فهي كانت تخلع ملابسها كمن يقوم بعمل ما، تريد أن تجعل أليكس سعيدًا لتُعبِّر له كم هي سعيدة بهذه الزيارة، فلم تكن تفكر بالحرب العالمية الثانية أو بسحر الكلمات أو بآلهة اليونانيين أو بكيفية تحويل الفتيان إلى أطفال أبدًا، هي لم تكن تفكِّر بقدر ما كانت تشعر؛ تشعر بجمال هذا المكان، وجمال الجد، وجمال أليكس وبراءته وطيبته، وجمال الطبيعة... كل ذلك كوَّن لديها شعورًا بالجمال والإغواء، وبأنها يجب أن تكون جزءًا من هذا الجمال بطريقة ما، بل تريد أن تكون أهم جزء في هذا الجمال وذلك بتحويل قطعة الخشب التي على السرير إلى عجينة لينة، لتريها بُعدًا آخر لكل هذا الجمال المحيط، فكأن لسان حالها يقول: (أنا هنا، وأنا لُبُّ هذا الجمال وجوهره).

استلقت ليزا بجانب أليكس، ولم تزعج تلك الليلة أحدًا سوى الجد، الذي كان ينام في الطابق السفلي، لأن سرير اليافعين كان يُحدث صريرًا مسموعًا للأسفل، هذا الصرير الذي لم يهدأ طوال الليل، مما أثار استغراب الجد: (من أين يجدان كل هذه الطاقة؟). ولكنه كان سعيدًا أيضًا لسعادتهما.

= عبد الرحمن =

هدأ القصف، وخيَّم سكونٌ مطبقٌ على الحي، وبعد بعض الوقت بدأت تُسمع أصوات الناس وصفارات الإسعاف والصيحات في مختلف نواحي الحي، فقد عرف الأهالي بانتهاء القصف وبدأوا يخرجون من الملاجئ والأقبية، ليسعى كل منهم حسب مِحنته، فمن رُدِمت عائلتهِ ركض ليجد حفَّارة ويُسجِّل دوره عندها لتأتي بعد أن تنتهي من الحفر في المكان الذي تحفر به للبحث عن الجُثث والناجين. ومن عنده جريح يبحث عن سيارة إسعاف لتنقله إلى المستشفيات الميدانية التي أُقيمت كخِيام في زوايا المدينة المنكوبة.

أمَّا عبد الرحمن فلم يكن لديه عائلة، فهو مُكلَّف بالعناية بمشاعره وأحزانه فقط، لذلك سعى باتجاه باب الملجأ وأليكس يساعده على المشي حتى وصلا إلى خارج الملجأ، وتفاجآ من المشهد الذي شاهداه، حيث كانت جميع أبنية الحي قد دُمِّرت وسقطت على الأرض، وكذلك البناء الذي يسكنه، فقد سقط بالكامل ولكنه سقط عكس اتجاه مدخل البناء مما سمح بإمكانية الخروج من باب الملجأ، في حين كانت الكثير من الأبنية قد سقطت على أصحابها وأغلقت المنافذ عليهم، ونصف السكان في هذا الحي؛ وإن لم يكن أكثرهم؛ إما ميتون وإما تحت الأنقاض ينتظرون من يُخرِجهم.

نظر عبد الرحمن إلى هذا المنظر المُروِّع وجلس بمساعدة أليكس على أحد الأعمدة الإسمنتية المتهاوية وسحب من جيبهِ علبة التبغ المليئة بغبار الإسمنت واستخلصَ منها سيجارة ونفخ عليها لتنظيفها من الغبار، ثم أشعلها وأخذ يتأمل منظر بلدته المُدمرَّة، وبدأت الدموع تتساقط من عينيه.

حدَّق به أليكس والذي جلس بجوارهِ ويملأه غبار الإسمنت وربت على كتفه:

- لا تبكِ يا عبد الرحمن، لا تبكِ، هذا ليس وقت البكاء.

أجاب عبد الرحمن وهو ينفُّ الغبار من أنفه:

- وقت ماذا إذًا؟

- إنه وقت الهروب يا عبد.

= من مذكرات أليكس وهو يافع =

بدأ أليكس يستفيق، ولكنه لم يستطع أن يُحرِّك أي عضو من جسده، وشعر بخدر شديد في جسمه، وبالكاد استطاع أن يفتح إحدى عينيه، ليرى شعر ليزا على وجهه يمنعه من الرؤية، ويرى كتفها من خلاله. كان مستلقيًا على بطنه، ووجهه مغموس في الفِراش بعيدًا عن المخدة، والتي استحوذت عليها ليزا إضافة لمخدتها.

حاول أن يتحرك، ولكن كان نصف جسدها على رجليه، وهي مكتنزة، بينما هو نحيف، شعر وكأن ماردًا كبيرًا يجثم فوقه. بدأ بسحب رجليه شيئًا فشيئًا من تحت خصر ليزا، حتى تمكَّن بعد جهد جهيد من سحبهما.

التفتَ إلى الساعة التي كانت تشير إلى الثانية عشر من منتصف النهار، استغرب كيف استغرق في النوم إلى هذا الوقت دون أن يستيقظ كعادته. وقف مترنحًا وأخذ يسير وهو يشعر بالدوار وبنشوةٍ عارمةٍ.

نزل إلى الطابق السفلي وفتح الثلاجة وشرب الكثير من الماء، ثم نظر إلى جسده: (أين يذهب كل هذا الماء؟ هل أنا أُسرِّب الماء؟ وابتسم. كانت السعادة تملأه، هذه السعادة التي لم يشعر بمثلها في حياته.

نظر حوله فوجد أن جده قد جهَّز طعام الفطور ووضعه على الطاولة، تذكَّر أن جده يعيش في هذا البيت أيضًا. ارتبك لهذه الذكرى، فقد كان عاريًا تمامًا، فأمسكَ مخدة بسرعة وستر بها عورته، وأخذ يبحث حوله، فلم يجد أحدًا، بل رأى ورقة على المائدة وقد كُتِب عليها: (لقد غادرتْ ولن أعود، إلا في المساء، اعتني بليزا... جدك).

اِبتسم أليكس ورمى المخدة بعيدًا، ثم سمع صوت خطوات خلفه فنظر ليجد ليزا تنزل السلالم، وتتجه إليه وهي نصف نائمة وقد لفَّتْ جسدها بأحد أغطية السرير الرقيقة، ساترةً نصفه، ورمت نفسها في أحضانه وهي مسترخية ومبتسمة.

= من مذكرات أليكس عن شبابه =

منذ وصول أليكس الشاب إلى منزل جده، ورغم شعوره بالقلق من تيمور، إلا أنه يحس ببعض السعادة والرضى أيضًا، فمنذ أن تزوج جانيت وهو يظن بأنه قتل إنسانًا، وطوال تلك السنين كان يُعيد هذه الجُملة في رأسه: (هل كنتُ بحالة دفاع عن النفس؟ أم أني بالغتُ في ذلك؟). أما الآن فرغم أن منزله احترق وعائلته مُهددة، إلا أنه شعر بالسعادة لأن تيمور لا يزال حيًّا فقد أنقذه من تأنيب الضمير الذي كان يزوره بين الحين والآخر، فلو أن تيمور لا يهدِّده، لذهب إليه وضمَّه لأنه لا يزال حيًّا. فهل يمكن أن تجتمع مشاعر البغض مع الحب معًا، فهو يشعر بأن تيمور أنقذ ماضيه من الشعور بالذنب رغم ظنه بأنه لن يستطيع أن يُغيِّر أي شيء في هذا الماضي بالتحديد.

مشاعر أليكس المختلطة لم تكن فريدة من نوعها، فجانيت تشعر بمثيلتها، فرغم أن منزلها قد احترق وعرفت بأن تيمور مجرم ويريد أن يقتل عائلتها، إلا أنها تشعر بشوق لتيمور وللسنين الخوالي التي عاشتها معه، وكذلك تتذكر حزنها على فقده، فلو أنه الآن لا يُهدِّد عائلتها لكانت ذهبت إليه وضمَّته وقبَّلته.

فلو لم يكن تيمور يهددهما لكان كلٌّ من أليكس وجانيت يطرقان بابه ويضمانه ويقبلانه، أليكس لأنه رفع عنه شعوره

بالذنب، وجانيت اشتياقًا.

ولكن تيمور بعيد عن هكذا مشاعر، فهو لا يُفكِّر سوى بالانتقام وهذا الانتقام يكون بقتل أليكس وإعادة جانيت إلى سُلطته كما كانت قبل أن يأخذها منه أليكس، أي دون أطفال.

= من مذكرات أليكس وهو يافع =

ها هو أليكس اليافع وكل شيء تغيَّر من حولهِ، فأصبح يعي بأن شيئًا ما مستورًا في هذا العالم قد انكشف له، أصبح يعرف بأنه يستطيع القيام بأشياء لا يستطيعها غيره، مع أنه لم يفهم حتى الآن كل شيء عن ذلك ولم يفهم ما قاله جده، ولكنه لا زال يذكر المشاعر التي أحسَّ بها عندما غادر جسده، وعندما زار ليزا، وحالة الغيبوبة والسكون العقلي والإحساس المضاعف بطعم السمك والنسيم والنادلة والبحر... إنه يفكِّر بكل ذلك. كان كله غريبًا بالنسبة له.

جلس على كرسي أمام منزله الذي يتوسط الغابة وأخذ يفكر ويتأمل العصافير التي تتنقل بين أغصان الأشجار ويسأل نفسه: (كيف حصل كل هذا؟ وكيف يمكن للإنسان أن يتنقل خارج جسده؟ ولماذا هو وليس غيره؟

ثم نظر إلى السماء فرأى من بين الأشجار بعض الغيوم، فتنفس بعُمق وقال: (أيتها اللامادة: لماذا أنا؟) ولكنه لم يسمع أي رد.

بعد يومين؛ كان أليكس اليافع مُستلقيًا على الأريكة البيضاء المريحة ينظر إلى النجوم ويرى السماء بمنظرها البديع والنجوم قريبة وكأنه يستطيع أن يمسكها، وكان جده يجلس

على كرسي بجانبه:

- إنها تجربتك الثانية يا أليكس، وهذه المرة لن تذهب حيث تريد، بل ستذهب حيث يجب أن تذهب.

- ما الذي تقصده يا جدي؟

- ستتعرف هذه المرة على معلمك الأول.

- حسنًا.

أغمض أليكس عينيه، ثم وجد نفسه يسقط من جسمه ببطء ليرى جسده ثم الأريكة من الأسفل ورجليّ جده، ثم زادت سرعة سقوطه، وانزلق في دوامة سوداء باتجاهٍ لا يعرفه، ولم يرَ سوى السواد وأحيانًا ما يشبه الحجارة السوداء المقطعة وكأنه يسقط في بئر، تذكر سقوطه وهو صغير في الجرف واصطدامه بالماء، فشعر بقشعريرة تجتاحه.

ثم هدأت سرعة سقوطه وبدأت تخف شيئًا فشيئًا، ثم وجد نفسه يسقط كريشة على أرض مكسوة بحجارة سوداء مصقولة، بدت كالآثار الرومانية، بدأ يتلمس هذه الحجارة فقد كان يعرف الكثير عن الحضارة الرومانية ولم يأخذ لُبَّه كالفن المعماري الروماني طوال دراستهِ للآثار في جامعة تشارلز.

جلس أليكس على ركبتيه ونظر حوله، ليجد غرفة كبيرة مصنوعة من الحجارة البازلتية السوداء وتغطيها قُبَّة كبيرة من الحجر الأسود المصقولة، وفي وسطها طاولة مصنوعة من

البازلت أيضًا وكرسيان من الحجر وموقد للنار ولكنه مخمد، وبجانبه رفٌّ حجري مثبَّت على الحائط عليه إبريق وكأسان.

التفت أليكس حوله ليستكشف المكان، وعندما عاد بنظره إلى اتجاه الموقد وجد رجلاً ضخمًا يدير ظهره، ولكن ضخامته كانت غريبة، فكان مدورًا ككرة ضخمة كبيرة، ويرتدي عباءة سوداء طويلة وأكمامها طويلة أيضًا حيث تظهر أربع أصابع من أخر كل كُمّ، وهي أصابع طويلة وداكنة، وبنهايتها أظافر طويلة ومعكوفة كأظافر حيوان الكسلان، وكان رأسه من الخلف مدورًا ويحتوي على صلعة يحيط بها الشعر على شكل هلال، وهذا الشعر أشعث ويتخلله البياض، وطويل يصل إلى كتفيه.

كان منظر الرجل من الخلف يبعث الرعب والخوف، ولكن على العكس من ذلك فشعور أليكس اتجاه هذا الوحش الذي يدير ظهره كان الحب والحنان وكأنه يعرفه منذ مليون سنة.

رفع الرجل يديه وهو لا يزال مستديرًا وأمسك بالكأس والإبريق والتفت باتجاه أليكس قائلاً دون أن يحرِّك شفتيه:

- أهلاً وسهلاً بالنجم الجديد، يسعدني أن أكون مُعلِّمك الأول.

بدا وجه الرجل الضخم مليئًا بالتجاعيد، ولكنها تعطي مظهرًا جميلاً، كمن ينظر إلى وجه جدته العجوز، أو إلى تجاعيد شجرة معمِّرة لعب تحتها وهو طفل.

اتجه إلى الطاولة وهو منحنٍ قليلاً ووضع الكأس والإبريق

ثم ملأ الكأس، وقال:

- تفضَّل يا أليكس. أم تريد أن نتكلم وأنت واقف؟

اتجه أليكس إلى الكرسي وجلس عليه وأخذ يراقب وجه مضيفه المبتسم.

= عبد الرحمن =

كان عبد الرحمن جريحًا، وقد تطلَّب الطريق وقتًا طويلاً حتى وصل إلى المشفى الميداني، والذي يضم مجموعة من الخيام البيضاء المتوزعة هنا وهناك وبداخلها أَسِرّة ومسعفون.

دخل عبد الرحمن إحدى الخيام بمساعدة أليكس الذي همس في أذنه:

- علينا أن نُضمِّد جراحك ونغادر هذه المدينة، فقد يعود القصف في أية لحظة.

بدأ المسعف الذي يبدو حديثًا في المهنة بشق قميص عبد الرحمن ليرى الجرح، ولما رآه قال بصوت مرتجف:

- إنه يحتاج إلى إحدى عشر قطبة أو أكثر.

بدأ المسعف بتهيئة الأدوات ويداه ترتجفان، وعندما رأى أليكس ذلك قال:

- أستطيع أن أقوم بهذا العمل عِوضًا عنك.

حدَّق المُسعف به:

- هل أنت طبيب؟

- شيء من هذا القبيل...

ثم قال في نفسه: (طبيب إذا قِستني بك).

بدأ أليكس بتنظيف جرح عبد الرحمن وتعقيمه، ثم نظر إلى الطبيب المُبتدئ:

- هل لديك مُخدِّر موضعي؟

- نعم.

- هيِّئ لي إبرة المُخدِّر.

ثم قام بحقن عبد الرحمن بها ببراعة خبير، وصبر قليلاً حتى أخذ المخدر مفعوله، ثم بدأ يقطب الجرح.

وبعد أن أنهى عمله، طلب المُسعف منه مساعدته في خيام أخرى، فهمس في أُذن عبد الرحمن:

- سأساعدهم ريثما ترتاح وتستجمع قواك، وبعدها سنغادر.

تجوَّل أليكس مع الطبيب المبتدئ في أنحاء المستشفى الميداني، وكان يساعد في التضميد وإعطاء الإبر وتقطيب الجروح، وكذلك في تضميد الكسور، بينما كان عبد الرحمن قد غطَّ في نوم عميق، وبعد فترة شعرَ بصوت ويد أليكس تهزه:

- استيقظ يا عبد، يجب أن نرحل من هذا المكان حالاً.

شعر عبد الرحمن بأن لسانه وشفتيه جافتان ولا يقوى على النطق، قال بصعوبة: (ماء).

قام أليكس بإعطائه بعض الماء، ثم ساعده على الوقوف وقاده باتجاه شاحنة تقف بالقرب من خيام المشفى الميداني، تفاجئ عبد أن الوقت أصبح ليلاً، وكان يشعر بالهواء البارد والمغبَّر يلفح وجهه، بينما أليكس يُعينه على المشي.

لم يستطع عبد الرحمن أن يفتح عينية كثيرًا بسبب الغبار، ولكنه كان يسمع صوت الطبيب المبتدئ يطلب من أليكس أن يبقى في المشفى، ولكن أليكس كان يعتذر:

– لا أستطيع، أنا مضطر لأن أغادر، وأقترح أن تنقلوا المشفى من هذا المكان فهو قريب من المدينة وقد يطاله القصف.

وصل عبد الرحمن إلى العربة الطويلة للشاحنة، والتي كانت مليئة ومكتظة بالنساء والأطفال والرجال المصابين والسليمين، فتمتم: (لا مكان لي في هذا الزحام).

عندها شعر بيدي أليكس تحمله وتدفعه إلى الداخل فارتمى فوق الناس، حيث انكمشوا وتجمعوا ابتعادًا عن جسدهِ الضخم والمترخ، ثم أخذوا يدفعونه يمينًا وشمالاً حتى استقر به المطاف في زاوية العربة وبملاصقة الباب الحديدي لعربة الشاحنة، والتي انطلقت، ثم شاهد أليكس يركض خلفها ثم يقفز ليستوي فوق الباب بالقرب منه، وبقيت رجلاه خارج مقطورة الشاحنة، كان يسمع في الشاحنة أصوات أنَّاتٍ وولولاتٍ أحيانًا، وسبابًا للرئيس.

نكز عبد الرحمن أليكس فقرَّب أُذنه:

– ماذا يا عبد الرحمن؟

– هل حقيبتي معك؟

– نعم.

– أعطني سيجارة منها.

– إنها بجوارك، فخُذ منها ما شئت.

= من مذكرات أليكس وهو يافع =

بدأ الرجل الضخم مكوَّر الجسم بالتحدث مع أليكس دون أن يحرِّك شفتيه أو أن يصدر صوتًا واحدًا، فكان الصوت يصل إلى ذهن أليكس مباشرةً مع نظرات عيونه.

علم أليكس أن هذا العجوز طويل الأظافر سيكون مُعلِّمه، ولا شك أنه ليس بشري، إنه كائن مختلف.

فتح هذا المعلم كتابًا كبيرًا مليئًا بالرموز الغريبة، وأخذ يشير إلى الرموز والتي بدت لأليكس وكأنها نقوش أثرية تجمع بين ثقافات العالم جميعها، ومكتوبة بخليط كبير من مختلف لغات العالم، إنها رموز متشعِّبة، وقد عرف أليكس ذلك تبعًا لخبراته الجامعية، فقد كان ينظر في هذه الرموز وفي الأماكن التي يدله عليها مضيفه، كان ينشَدُّ إليها بغرابة، وكأن عقله كله قد انشغل بتفسير هذه الرسوم وتحليلها، ولكنه لم يكن يفهم أي شيء بالطُّرق العادية والمنطقية، ففي المنطق هو لا يفهم شيئًا، وفي ذات الوقت كان يشعر بأنه يفهم أشياء غاية في الأهمية.

بدأ المضيف بيديه الغريبتين وأظافره الطويلة يُقلِّب صفحات الكتاب ويشير إلى النقوش، حتى مضى وقت طويل ووصلا إلى منتصف الكتاب...

توقَّف المضيف ونظر إلى أليكس، فسمع أليكس صوته داخل ذهنه: (انتهينا اليوم، سأراك قريبًا).

ثم انتصب واقفًا عن الكرسي وانحنى لأليكس. وبعد ذلك وجد أليكس نفسه وقد استيقظ على الأريكة التي في القُبة الزجاجية، ولكن هذه المرة تمكَّن من السير على قدميه وعبر النفق ووصل إلى غرفته واستلقى على سريره، دون أن يجرّه أو يحمله أحد. ثم تمتم: (ما الذي يحدث معي بالتحديد؟)

ثم ذهب في نوم عميق.

= من مذكرات أليكس عن شبابه =

بينما أليكس يتجول في البيت في تلك الأمسية؛ سمع صوت جانيت تتكلم مع نفسها وهي تفكِّر، ثم رفعت صوتها لكي يصل إليه في أخر الصالة: (لماذا لا نتفاهم مع تيمور فيتركنا وشأننا؟)... (لن ينجح هذا يا حبيبتي).

لم يقُل أليكس ذلك، كون تيمور مجرم فلا يمكن التفاوض معه، بل هناك الكثير من المجرمين الذين يمكن التفاوض معهم، ولا لأن تيمور حاقد؛ فهناك الكثير من الطرق لعلاج الحقد. بل لمعرفتهِ بعدم الجدوى النفسية من المفاوضة معه، فلدى تيمور شعور مريع بالنقص يسيطر عليه، فهو يشعر بأنه خاسر دومًا، فحتى لو انتصر بشيء ما فهو سيشعر بالهزيمة، فلا فائدة من أي تنازل أو وعد أو مال يُقدمانه مقابل أن يتركهم وشأنهم.

لقد اطلع أليكس على ماضي تيمور والطريقة التي يفكر بها، حتى أنه قرأ مذكرات والده التي يحتفظ بها في مكتبه، فعلم بأنه نشأ لدى أب يمارس طقوسًا عسكريةً على أفراد عائلته باستثناء زوجته، التي كانت تفرض طقوسها عليه، فأول نزاع لهما بخصوص تيمور كان على اسمه، فكان والده يريد أن يسمِّيه «آرثر» وليس تيمور، رغم أن هذا الاسم متكرر بشكل مبالغ به في عائلته، فإذا ما اطلعت على شجرة

العائلة ستصاب بزوغان البصر من كثرة ورود اسم آرثر بها، وهذا الأمر كان يحدث هيجانًا وتشنجًا عصبيًا لوالدة تيمور، فكانت تقول:

- وكأن البشرية عجزت عن إيجاد اسم غير آرثر، آرثر آرثر آرثر، أكاد أتقيأ من عائلتك يا إدوارد.

- حسنًا، ماذا ستُسمِّي ابننا بدل اسم آرثر الملكي الجميل التاريخي؟ أتعلمين بأني لا أزال أنقم على والدي لأنه لم يسمني آرثر بحجة أن اسمه هو آرثر.

- سأُسميه كما أريد.

- وماذا تريدين أن تسمينه؟

- سأُسميه على اسم البحر الذي يطل عليه بيتنا الصيفي، «بحر تيمور»، سأُسميه تيمور.

ابتسم إدوارد وهو يحاول أن يُخفِّف نوبة الهيجان التي أصابت زوجته:

- حسنًا يا روز، سنسميه «تيمور» كما تشائين. ولكن دعينا بين الحين والآخر ندلعه «آرثر».

= من مذكرات أليكس وهو يافع =

جلس أليكس على الأريكة وأغمض عينيه ليهبط إلى الأرض ويرى نفسه يدخل في طبقاتها، ثم يصل إلى قاعة منزل مُعلمه، اصطدم بها اصطدامًا هذه المرة.

كان أليكس يشعر بارتياح كبير لهذه الزيارة، فبعد الليلة التي قضاها مع ليزا شعر بأن أعصابه كلها قد ارتاحت، وبأن عقله وصل إلى أعلى درجات الراحة.

أخذ يتذكر تلك الليلة الرائعة، ثم استوى واقفًا والتفت إلى الخلف ليرى معلمه كما لم يره من قبل، لقد كان عبارة عن وجه ضخم يحدِّق به مباشرةً على بعد بضع سنتيمترات من وجهه، لقد كان وجهه بمساحة كامل حجم أليكس وعينيه الكبيرتين تحدقان في أليكس بتمعُّن. ورغم أن المشهد كان مرعبًا للغاية، لكن أليكس لم يشعر بأي فزع، فهذا المعلم الذي يستطيع أن يغيِّر شكله كما يريد قد أنشأ رابطة لا مادية بينه وبين أليكس لا يمكن وصفها، إنها محبة خالصة.

عاد المعلم إلى حجمه الطبيعي، رجل كبير الحجم وسمح الملامح، ولكنه بدا حزينًا.

اقترب أليكس وجلس على الكرسي، ابتسم المعلم وأخذ يحدِّثه وهو مطبق الفم، وعندها فهم أليكس ما الشيء الذي

يُحزنه، فقد كان هذا اللقاء هو الأخير بينه وبين معلمه الأول، ولن يراه بعد ذلك إلا نادرًا.

انهمرت بعض الدموع من عيني المعلم، فلقد ارتبط بأليكس ارتباطًا قويًا وأحبَّه حُبًا جمًّا، وبعدها بدأ بالبكاء دون عويل.

كان أليكس حزينًا لأنه لن يلتقي بمعلمه مرة أخرى، ولكن لم يصل حزنه إلى درجة البكاء، ولا إلى انهمار أي دموعٍ. بل على العكس، فرغم حزنه الطفيف هذا، فقد كان متشوقًا للتعرُف على معلمه الثاني، فلقد أخبره معلمه الحالي بأن المعلم الجديد سيكون بشريًا وليس من اللامادة، وأنه من الهند ويجب أن يذهب إلى هناك لإيجاده. كان الخبر مُلفِتًا لأليكس، فكيف سيذهب ويبحث ويجد معلمه المزعوم هذا؟

ودَّعه معلمه واختفى. بقي للحظات في الغرفة الحجرية يتأملها، ثم شعر بنفسه يصعد ويعود إلى عالمه المادي.

= من مذكرات أليكس عن شبابه =

كانت الجريمة الأولى التي ارتكبها تيمور والوحيدة التي يرفض الاعتراف بها حتى لنفسه، ويحاول أن يصدِّق الكذبة التي لفّقها وأخبرها لوالديه بأن الأمر كان حادثًا، حدثت عندما كان بعُمر الخامسة عشر، هذه الجريمة التي لا يعلم بأمرها أحد سوى تيمور، وأليكس الذي عرفها بتصفحه لذكرياته.

كان تيمور في صغره محطَّ اهتمام والديه اللذين ينفذان له كل طلباته، حتى أصبح يشعر بأن كل شيء له؛ حتى أمه وأبوه، هذا الشعور الذي لم يستطع أن يتغلب عليه عندما جاء أخوه آرثر إلى الحياة والذي يصغره بأربع سنوات، بعد أن رضخت الأم لإرادة الأب بتسميته آرثر، ففقد تيمور اسم الدلع الذي كان يناديه به والده: «آرثر» بمجرد قدوم آرثر الحقيقي، والذي أخذ ينازعه على كل شيء: الاهتمام والأملاك والألعاب والأماكن. ورغم أن والديه بقيا يهتمان به حتى أكثر من آرثر لانتباههما إلى الغيرة وحب التملك اللذين يعتريانه، وشعوره بأن كل شيء هو بالأصل له، وأي مالك جديد هو سارق ومالك بالمصادفة.

تحمَّل تيمور تلك المشاعر، والتي بدأت تنمو بِكُرهٍ لأخيه والابتعاد عنه وعدم صُحبته إلا عند الاضطرار، وأخيرًا كانت الجريمة التي عاد بها الابن الوحيد لهذه العائلة الثرية...

كان يجلس هو وأخوه على منحدر بعد أن ابتعدا عن رفاقهما في الكشافة التي نظمتها المدرسة، وهو في الخامسة عشر وآرثر في الحادية عشر من العمر، وبالأصل كانت مشاركتهما في هذه الرحلة بتخطيط من الأبوين لإنشاء علاقة مودة بينهما، ولكن ما حدث عكس ما أرادا.

كان تيمور صامتًا ينظر إلى الطبيعة، بينما أخوه آرثر يتحدث ويتحدث عن إنجازاته في المدرسة، وما جلبه له رفاقه من هدايا، وكذلك عن أصدقائه من الفتيات والفتيان، وعن والديه وكيف يتعاملان معه بحُب. كان آرثر كثير الكلام ويكثر من القصص والأخبار، أما تيمور فكان صامتًا ولا يعير حديث آرثر ولا إنجازاته أي اهتمام، ولكن بدأت هذه الأحاديث تزعجه وكأنها موجهة إليه بالتحديد، وأخذ يشعر بالإهانة بطريقة أو بأخرى. وكأن أخوه يقول له: (أنت لا شيء يا تيمور، وأنا آرثر العظيم الذي أحظى بحُب الجميع).

كظم تيمور غيظه، ولكن آرثر لم يتوقف.

نظر تيمور إلى آرثر الذي يتحدث بجواره دون توقف ودون أن ينظر إليه بل يراقب الطبيعة، ولم يعلم حتى الآن كيف ارتفعت يده ودفعت آرثر، الذي سقط عن المرتفع وصرخ، ثم اصطدم بشيء ما ولم يعد يُسمَع له أي جلبة.

استمر تيمور بالجلوس مكانه، كان يشعر بشعورين متناقضين: الأول بالارتياح لأن آرثر ذهب إلى الجحيم، والثاني بالحُزن وكأن جُزءًا منه قد انسلخ وسقط في الجرف ومات.

لم يشعر تيمور بأي قلق أو خوف، وبقي جالسًا لمدة عشر دقائق على هذه الحالة. ثم انتصب واقفًا وأخذ يركض باتجاه الكشافة، وعندما أوشك على الوصول أخذ يبكي ويصرخ:

- أنجدوني، أنجدوني. لقد انزلق آرثر ووقع من أعلى الجُرف.

= من مذكرات أليكس وهو يافع =

في ذلك المساء سار أليكس اليافع في أحد الشوارع، وهو يراجع العديد من الذكريات والأحداث في ذهنهِ، ثم جلس على طاولة في أحد المقاهي ذات الواجهات الزجاجية الملاصقة للشارع، وأخذ يتأمل الطريق، عندما سمع صوت فتاة خلفه تقول: (مرحبا).

نظر إليها، لقد كانت النادلة التي التقاها في مطعم الكوخ الذي على الشاطئ. تابعت الفتاة الحديث:

- لا تبدو غريب الأطوار هذا المساء!

- أهلاً ماتيلدا، أعتذر منك عما حدث في ذلك اليوم، تفضلي اجلسي.

استمرا بالحديث لأكثر من ساعتين، ثم دعته إلى منزلها، حيث كانت تسكن مع والدتها، وتفاجأ بهذه النادلة التي كانت أغرب مما توقع، فقد كانت فتاةً واقعيةً للغاية تعيش الواقع بكل تفاصيله وبتركيز قوي على كل أحداثه، ومتكيفة للغاية مع الحياة.

خلال الأشهر التي لحقت هذا اللقاء علَّمتْه الكثير من الأمور عن الحُب والجنس، وأدخلته في مُتعة لم يتوقع أن يجدها أو يعيشها.

في هذه الفترة شهدت حياة أليكس اليافع العاطفية تغيرات كثيرة، وتحرَّر شيئًا فشيئًا من الخجل الذي يعتريه، وتعرَّف على العديد من الفتيات، وأصبح يتنقل من واحدة إلى أخرى، ولكنه لم يشعر بالحب سوى مع ليزا، فقد كانت حُبه الحقيقي، ولم يشعر مع الأخريات سوى باللذة، فالحب الذي أحبَّه لليزا لم يتكرر سوى عندما أصبح شابًّا وأحبَّ جانيت.

في هذه الفترة كان أليكس اليافع يشعر بأن الحياة تفتح له أبوابها من كل صوب وناحية، فهو عاشق وحوله الفتيات، ولديه القدرة ليخرج من جسده ويتنقل بين المعلمين في مختلف أنحاء العالم، وصحته جيدة وجسمه رياضي وشكله جذَّاب. كان يشعر بسعادة خالصة وبأن الحياة جميلة للغاية وتُقدِّم له ما لا تُقدِّمه لغيره.

لكن هذه السعادة لم تستمر لفترة طويلة بالنسبة له... (فعندما تكون مُعلمتكَ هي الحياة؛ فدرسُك القادم هو المعاناة).

هذه العبارة بالتحديد هي ما عنون بها أليكس مذكراته، قبل أن يبدأ بسرد ذكرياته الأخيرة مع ليزا.

= من مذكرات أليكس عن شبابه =

بعد مُضي ربع ساعة على إشعال أليكس لبيته، أوقف خمسة أفراد من العصابة المكلفة بقتله وقتل عائلته سيارتهم بالقُرب من منزله الذي كانت النيران والدخان يتصاعدان منه، وتُحيط به سيارات الإطفاء والشرطة...

اتجه أحد الرجال إلى قائد الشرطة الذي كان يتكلم على جهاز الاتصال اللاسلكي، وأخرج بطاقة مزورة تدل على أنه من المباحث الجنائية:

- ما الذي يحدث أيها القائد؟

حدَّق الشرطي بالبطاقة للحظات ثم أجاب:

- لقد احترق بيت «أليكس بارتونسن»، ومن المرجح أن ساكنيه قد لقوا حتفهم في الداخل.

- ولماذا تُخمِّن ذلك؟

- لأن السيارتين اللتين يملكونهما لا تزالا مركونتين، وهما محترقتان، وكذلك هواتفهم النقالة معطلة ولا تجيب، فهذا يرجح بأنهم لم يتمكنوا من الهرب قبل انفجار أنابيب الغاز، وخلال الساعات القادمة قد نجد الجُثث.

أخرج رجل العصابة هاتفه النقال وابتعد عائدًا إلى سيارته وأمر رجاله بالمُضي.

تكلَّم أحد الرجال في المقعد الخلفي متسائلاً:

- ما الذي حدث؟

- لقد احترق المنزل ولم يعثروا بعد على أليكس وزوجته وأطفاله.

- هل هم أحياء؟

- لا أعرف.

- إذًا لنخبر تيمور بما جرى.

- طبعًا لن نفعل، بل سنخبره أننا أتممنا المهمة ونطلب منه الدفعة الثانية من المبلغ فعلى الأغلب أليكس وزوجته والطفلتان قد لقوا حتفهم وسيكون لدينا يومان لنتأكد من ذلك.

- ولكن ماذا لو كانوا أحياء؟

- عندها سنعود ونقتلهم ونُقودنا معنا، فالمهم أن نحصل على الدفعة الثانية من النقود، هل تفهمون ذلك؟

ابتسم الرجل الذي بالخلف والذي كان يسأله، فسقطت من فمه السيجارة التي كان يُدخنها، فالتقطها ونفخ عليها لتنظيفها ثم تابع تدخينه، وفتح هاتفه الخليوي وبدأ يكتب رسالة محاولاً ألا يراه أحد؛ وكان يكتبها باللغة الاسبانية: (المهمة لم تُنفذ، فقد وجدنا البيت محترقًا من قِبل فاعل مجهول والأهداف مفقودة، والرجال هنا لا يفكرون سوى بالنقود، سأوافيك بالتفاصيل عندما أستطيع). وكان اسم المرسل إليه مكتوبًا بالإسبانية « تيمور».

– والآن وبعد يومين من ذلك؛ لا يزال أليكس في منزل جده يُقلِّب أفكاره وخياراته لكيفية التعامل مع تيمور، وطفلتاه تلعبان في الرحبة أمام المنزل، وجانيت تراقبهما من النافذة، لقد لفَتَ انتباه جانيت عبارات: (ليزا، وأعشقك ليزا، وُحبي الأبدي...) وغيرها من العبارات المنتشرة في البيت وفي الحديقة، فهي على السرير، وعلى بعض الجدران الخارجية للبيت، وتملأ سيارة أليكس القديمة، وعلى بعض الأشجار خارج المنزل. سألته جانيت وهي تراقب الطفلتين:

– مَنْ هي ليزا التي يملأ اسمها الجدران والأنحاء؟

أجابها بينما كان يصنع القهوة:

– إنها فتاة كنتُ أحبها عندما كنتُ في الجامعة.

– يبدو أن حبكما كان كبيرًا.

كان يرد عليها من المطبخ في أخر الصالة وبصوت مرتفع:

– أجل كان كبيرًا للغاية يا جانيت.

–ولكن كيف افترقتما؟ وأين هي الآن؟ هل تزوجتْ؟

فكَّرت جانيت في نفسها: (هل يُعقل أن يكونا على علاقة حتى الآن؟؟).

– سأُخبركِ بهذه القصة لاحقًا يا جانيت.

– حسنًا، ولكن تذكر يا أليكس بأنه لا مزيد من الأسرار من الآن فصاعدًا.

– أؤكِد لكِ بأنه لا مزيد من الأسرار.

= من مذكرات أليكس وهو يافع =

كان أليكس اليافع يقضي حياة رائعة مع ليزا؛ تخييمًا وزيارات للأماكن الجميلة وحدائق الحيوانات، ولم تكن ليزا تعطي بالاً لعلاقات أليكس مع غيرها، بل كانت تتجاهل أي معلومة تصلها عن ذلك، فقد كانت سعادتها به لا تُوصف، ولا تريد لأي شيء أن يفسد هذه السعادة، وخصوصًا بأنها تفكِّر بمرضها وتتلقى العلاج على أمل الشفاء منه.

بعد ستة أشهر من بدء تعرفُهما وحياتهما السعيدة هذه؛ بدأ وضع ليزا الصحي يتدهور شيئًا فشيئًا، واستمر أليكس بمرافقتها، وزاد الأمر كلما ساء وضعها، حتى تفرغ لها في النهاية وابتعد عن كل معارفه ومشاغل حياته، وأصبح يرافقها إلى عيادة الطبيب ويعود معها إلى بيتها، ويُعد لها الطعام، ويذهب أيضًا معها إلى المشفى لتتلقى الجرعات، كما يساعدها على المشي بعد أن أصبح المشي صعبًا عليها شيئًا فشيئًا، وفقدت شعرها. وبالنهاية هجر أليكس منزله بالكامل وأصبح يتواصل مع جده على الهاتف فقط، ويقضي كل الوقت في منزل ليزا وينام عندها، وتعوَّد أهلها على وجودهِ وأصبح كأنه شخص من العائلة.

كان أليكس يشجع ليزا على الاستمرار في تلقي العلاج

ويخبرها بأنها ستشفى، وبعد فترةٍ أصبحت ليزا مستلقيةً على السرير لا تقوى على السير، وبإقامة دائمة في المستشفى.

وكانت هي سعيدة بهذا الصديق وهذا الحب غير المتوقع ولم تتخيل بأن يكون أليكس بهذا الوفاء الذي لا يوصف، فقد خفَّف عنها الكثير من الألم والحزن.

لكن الأطباء أخبروا أليكس اليافع وعائلة ليزا أن العلاج لم يعد ذا نفع، وما هو إلا وقت حتى توافيها المنية.

لم يتقبل أليكس كلام الطبيب الذي كان يجلس في غرفة الأطباء، ويخبره ووالديها بحالها هذا، فوقف عندها وقال:

- هذا الكلام ليس صحيحًا، ليزا ستشفى وتعود لها صحتها، أنا متأكد، لقد قرأت ذلك في كتاب المستقبل الذي لا يرى، إنها ستشفى.

وركض خارجًا من غرفة الطبيب.

لم يفهم أيّ من الموجودين ما قصد أليكس بما قال، ولكنهم فهموا بأنه يحب ليزا ولا يقبل بموتها، فبدأت والدتها بالبكاء وقام والد ليزا بضمها والبكاء معها، أما الطبيب فقد كان متأثرًا ويزم شفتيه.

كان قلب أليكس ينفطر على ليزا ويشعر بأنه هو المريض بدلاً عنها، ومع ذلك فقد كان دائمًا يحاول أن يبدو سعيدًا أمامها ليعطيها العزيمة، ويقص عليها أخبارًا مفرحة، ورغم أنها كانت تتكلم بصعوبة، ولكنها كانت تتأمل وجهه الذي ينظر إليها دائمًا ويبتسم لها محاولاً إسعادها، وتضغط على

يده دائمًا عندما تعجز عن الكلام.

استمر هذا الوضع المحزن والجميل قرابة الشهرين، وبقي أليكس اليافع بجانب ليزا. إلى أن طلبت منه وهي تتكلم بصعوبة وبطء ذلك الطلب الذي وضعه باضطراب نفسي لم يشهد مثله من قبل...

- لا تدعني أتعذَّب، ولا تدع هذا الأمر يطول.

- ماذا تقصدين؟

- اقتلني يا أليكس.

- ماذا؟

- انزع حبل السيروم، وأفرغ حقنة فارغة في القسطرة المغروسة في وريدي.

- مستحيل أن أقوم بذلك.

- أرجوك يا أليكس، إذا كنتَ تحبني اِفعل ذلك.

= عبد الرحمن =

أخذت الشاحنة تسير بسرعة، بينما جميع من على متنها يصطدمون ببعضهم، وعبد الرحمن ينفث الدخان من فمه، وعرى قميصه محلولة، وكرشه مُتدلٍّ ويضطرب مع حركة الشاحنة، ويضع يده على بطنه مُثبتًا ضماد الجرح.

وفجأة سمع الجميع صوت إطلاق نار عن مسافة ليست ببعيدة، وأصوات انفجارات، فتوقفت الشاحنة بشدةٍ، لتصدر عجلاتها صريرًا على الطريق المُعبَّد، واندفع كل من في المقطورة متراكمين فوق بعضهم البعض، ثم خرج السائق هاربًا وصاح بالركاب المتراكمين: (اِهربوا، هناك من يطلق النار باتجاهنا).

اندفع الجميع من المقطورة هاربين كل منهم باتجاه، وزجاج الشاحنة يتطاير بفعل الرصاص الذي يصيبها، فأُصيب بعض الركاب الهاربين وسقطوا أرضًا، أما أليكس وعبد الرحمن فقد ركضا مبتعدين عن الطريق وهما يسمعان أزيز الرصاص يمر حولهما.

أخذا يركضان في البادية المجاورة للطريق المُعبَّد، نظر عبد الرحمن حوله للبحث عن شجرة أو صخرة يحتميان خلفها، ولكن الأرض كانت جرداء ولا تحتوي سوى على بعض

الأعشاب والأشواك، ومستوية كصفحة كتاب أصفر. إنها بادية تنبئك بأنك تسير باتجاه صحراء قاحلة.

= من مذكرات أليكس وهو يافع =

كان على أليكس اليافع أن يختار، إمَّا أن يرفض طلب ليزا ويتركها على حالها تُعاني، أو أن يقبل ويحقن حقنة من الهواء في القسطرة المثبتة في الوريد فتموت، وهذا ما جعله يقضي يومين في منزله متوترًا لا يعرف أيهما الصواب، ولا يجرؤ على استشارة جده، ولا يحسن اتخاذ القرار.

أما ليزا فقد شعرت بأن هذين اليومين هما أطول يومين مرَّا في مرضها وأكثرها حُزنًا.

في اليوم الثاني من هذه الغيبة قدَّر أليكس بأن ليزا قد تكون بحاجة له فاتصل بها، ووضعت والدتها الجوال بالقرب من أذنها وكانت عاجزة عن الكلام الا بصعوبة بالغة...

- سامحيني لأني ابتعدتُ عنكِ اليومين الماضيين، ولكن سأكون عندك في هذا المساء، أُحبك كثيرًا.

وبعد الكثير من التفكير والتردد والبكاء، وضرب رأسه بالجدار أحيانا، ويده بالطاولة أحيانًا أخرى، اتخذ القرار الذي ظنَّه مناسبًا...

جهَّز الحقنة الفارغة ووضعها في حقيبة الكتف خاصته وتوجه إلى المشفى، وعندما وصل جلس بجانب ليزا والتي بدت سعيدة بعودته نظر إلى عينيها وأمسك يدها وقبَّلها وهي تنظر

إليه وهي مبتسمة...

- هل لازلتِ عند طلبك؟

ابتسمت وأومأت بجفونها مؤكِّدة.

اقترب منها وقبَّلها، فضغطت بيدها التي بين يديه. ثم توجَّه إلى حقيبته وأخرج الحقنة، وتوجَّه إلى السيروم المُعلَّق وعيناه مثبتتان على ليزا وتذرفان الدموع.

حاول رفع يده لنزع الأنبوب الواصل إلى يد ليزا من القسطرة الموضوعة في الوريد، ولكنه شعر بثُقل في يده وكأنه لا يقوى على رفعها، فأرغم نفسه على رفع يده والتي كانت ترتجف وأخذ يتصبَّب عرقًا وسحب الأنبوب من القسطرة، فبدأ الانبوب يقطر ماءً بجانب السرير. ثم رفع الحقنة وأخذ يحاول تثبيتها على ثقب قسطرة اليد، وهو ينظر إلى عيني ليزا بين الحين والآخر وهو يرتجف ويتصبب عرقًا.

وقبل أن يحقن الهواء في القسطرة لاحظ أن عيني ليزا لا تتحركان فأُصيب بخوف مفاجئ ورمى الحقنة على الأرض واندفع إليها وحرَّكها بلُطف، لكنها لم تُبدِ أي استجابة، وبدأ الجهاز الذي بجانبه يصدر طنينًا.

وما هي إلا لحظات حتى أتى الطبيب ومساعدوه وأخرجوه من الغرفة.

بعد بعض الوقت فُتِح الباب، فاندفع أليكس إلى الداخل. كانت ليزا مسترخية وجامدة دون حِراك. نظر إلى الطبيب

الطويل والأنيق:

- هل تُوفيت؟

- نعم.

انحنى أليكس على السرير وبدأ ينظر إلى وجهها ويتلمّسه ويبكي، ثم ابتعد عنها وهو يبكي، واندفع راكضًا خارج الغرفة.

وبينما هو يركض في الرواق ليخرج من المستشفى كان والد ليزا قد أتى ودخل من الباب، وعندما اقترب أليكس فتح يديه له ليضمه وهو حزين، ولكن أليكس أبعد يديه وتابع بالبكاء والركض خارجًا من باب المشفى.

عاد إلى منزله والدموع تملأ وجنتيه، ودخل وهو يمسح خديه بأكمام كنزته. وكان جده في الداخل يُعِدّ الطعام.

= عبد الرحمن =

استمر عبد الرحمن وأليكس يسيران بأسرع ما يمكنهما في البادية باتجاه المجهول، ولا زال صوت إطلاق النار مسموعًا، تمتم عبد الرحمن:

– سنموت في هذه الصحراء، فنحن لا نملك ماءً.

– لقد وضعتُ قنينة مياه في حقيبتك.

– وماذا سنفعل بها؟ فهي لن تكفينا لساعة واحدة بعد أن تشرق الشمس.

– لا يهمنا الماء الذي فيها، بل تهمنا هي.

تفاجأ عبد الرحمن:

– كيف ذلك؟؟

وأضاف متهكمًا:

– أتقصد بأننا سنملأها من صنبور الماء الذي يُوضع في وسط الصحراء عادةً؟

– ومن قال لك بأننا سنتوغل إلى وسط الصحراء، فإذا أردتُ أن أنتحر يومًا ما فلن أختار الضياع في الصحراء كطريقة لذلك.

– ولكن إذا طلع الصباح ونحن لا نزال على مقربة فسوف يرانا الجنود وسيطلقون علينا النار أو يتبعوننا، والأرض هنا

مسطحة ولا يوجد مخبأ.

- ومن قال لك بأننا سنبقى فوق الأرض؟

- بماذا تفكِّر بالضبط يا أليكس.

- لا عليك، دع الأمور لي، وفكِّر كيف تسرع من خطواتك.

- حسنًا، ولكن المنطقة مليئة بالكلاب الشاردة وقد تهاجمنا في أي لحظة.

- نعم أعلم ذلك، وهذا ما نريده يا عبد الرحمن.

نظر عبد الرحمن إليه وكأنه يراه لأول مرة في حياته، ثم قال له:

- مَنْ أنت؟ هل التقينا سابقًا؟!

= من مذكرات أليكس وهو يافع =

اعتزل أليكس مغادرة جسده وكره اللامادة، معتبرًا بأنها خدعته وقالت بأن ليزا ستشفى من مرضها عندما قرأ ذلك في كتاب اللامادة. أحبَّ أن يعيش كأي إنسان عادي لا يعرف شيئًا أو يحس بشيء، ولا يرى غير الذي يراه الناس بالعادة.

لم يعترض جده على ذلك بل احترم رغبته.

ولكنه بعد فترة اشتاق إلى مغادرة جسده والشعور بتلك الحرية ورؤية الأمور العجيبة، فأتى إلى جده وقال:

- ما رأيك بقراري بعدم مغادرة جسدي.

- إنه خيارك وأنت حُرٌّ به، فأنت كمن يملك سيفًا تستطيع أن تستخدمه، وتستطيع أن تضعه جانبًا، هذا خيارك.

- ولكن كتاب الأمل اللامادي كذب علي وزعم بأن ليزا ستشفى، ولكنها توفيت.

- هنالك ثلاثة أمور لا تعرفها عن هذا الكتاب.

- ما هي؟

- إن هذا الكتاب يُخبر عن المستقبل لبعث الأمل، ولكن المستقبل ليس ثابتًا، بل قد يتغير بحسب ما نقوم به في الحاضر، ومهمة هذا الكتاب هي زراعة الأمل في النفس، فهو لا يُخبر الصدق إذا كان الصدق مُزعجًا أو مُرًّا إلا لمن يستحق.

- وكيف ذلك؟

- فلو قرأت في الكتاب بأن ليزا ستموت هل كنت ستعيش معها كل تلك الأيام الجميلة، وهل كنت ستشجعها على الاستمرار في ما تبقى لها من الحياة؟

- لا، ربما لم أفعل.

- فربما لم تعلم الحقيقة لهذا السبب.

- ربما معك حق يا جدي.

- ومن قال لك يا أليكس بأن الموت أمر سيء؟ بل هو شفاء للإنسان عندما يصبح جسده حِملاً عليه.

شرد أليكس وأخذ يفكِّر بكلام جده، وبعد قليل استأذنه وذهب إلى غرفته، وقرَّر أن يعود لمغادرة جسده والتعرُف على عالم اللامادي، واقتنع بأن عدم معرفته الحقيقة دفعته ليقضي حياة رائعة مع ليزا بما تبقى لها من أيام، ولم يقتنع بأن الموت شفاء أو بأن المستقبل يتغير.

ولذلك جلس على الأريكة وهو يفكِّر: (إلى أين سأذهب الآن يا ترى؟). كان يعلم في قرارة نفسه بأنه سيذهب إلى الهند كما أخبره مُعلمه السابق. أغمض عينيه على مهل وهو يرى نار الموقد المشتعلة ويراقب منظر الأخشاب المحترقة والجمر يصدر صوت فرقعة هادئة، ثم أخذ يتذكر ليزا وشعر بشوق عارم لها، وأحسَّ لوهلة برغبة بالنوم. ثم رأى نفسه يغادر جسده، وبلمح البصر وجد نفسه في مدينة هندية كبيرة، وكان ينبغي عليه هذه المرة أن يجد مُعلمه بنفسه.

تجوَّل في شوارع المدينة المكتظة بالمارَّة والباعة وأصناف الطعام والخضار والتوابل، كان يجوب الشوارع دون أن يراه أحد...

– أين سأذهب الآن؟

هذا هو السؤال الوحيد الذي كان يدور في خُلده، فينبغي أن يكون المعلم في مكان ما من هذه المدينة. كان يراقب الناس السُّمر والأشخاص الفقراء هناك، ويصب انتباهه على من يظهر بمظهر الناسك والدرويش.

وبينما كان يسير سمع أُناسًا يتحدثون باللغة الهندية، ولكنه تمكن من فهم معنى كلامهم، فكانوا يتحدثون عن رجل ما، وفهم من حديثهم أنه شيخ عالي المقام يقصده الناس لينصحهم وينقذهم من أي مرض أو سحر، ثم علم أن هذا الرجل يقيم في معبد مجاور.

انتقل بلحظة إلى ذلك المعبد ليرى المتعبدين والنُسَّاك يرتدون عباءاتٍ طويلةً بألوان مختلفة وتظهر أكتافهم عارية من خلالها، ورأى فئرانًا كانت تجوب أرض المعبد دون خوف، فشعر بهيبة غريبة للمكان وراحة كبيرة، وقد أوشكت تفاصيل المكان أن تنسيه سبب قدومه إلى هنا بالأصل، فأخذ يتجول بسرعة بين أقسام المعبد كطفل، ويقف ليغمس نفسه بالماء فيتدفق من خلالهِ أو ليستنشق رحيق وردة أو ليتبع جرذًا بموازاة سرعته، ولم يكن أحد يراه.

تهيَّأ له أن إحدى النساء المارَّات قد نظرت إليه فتبعها

ليرى إن كانت فعلاً تراه، وكانت ترتدي فستانًا أخضرَ جميلاً، وايشارب ملونًا بالأخضر والأحمر، وتضع حلقًا فضيًا في أذنيها، وآخر كخرزة صغيرة على أنفها، وهي في العشرينيات من عمرها. نظر إليها عن قرب ووقف أمامها ولكنها لم تعره انتباهًا وتجاوزته، توقف وأخذ نفسًا عميقًا: (ما الذي سأقوم به الآن؟ لا بد أن أذهب إلى المُعلم، ولا بد أنه الشيخ الذي يعتمر قلب هذا المعبد، سأذهب إليه من فوري).

انطلق إلى قلب المعبد ودخل من الباب العريض الذي كان الناس يدخلون ويخرجون منه ليرى ما لم يكن يتوقعه، فرأى بهوًا كبيرًا ذا سقف عالٍ، ويتخلل البهو بعض الأعمدة، وأرضه مليئة بسجاد من مختلف الألوان. أخذ يتفقد المكان وجماله، فهو طوال حياته لم يرَ شيئًا كهذا، توجه إلى عتبة مرفوعة في مكان قاصٍ من المعبد يحتلها شيخ أسمر مائل للسواد نحيف الجسم، وقد كان يجلس متربعًا ومغمض العينين، كان منظره مهيبًا. ابتسم أليكس وتمتم: (يا له من معلم عظيم هكذا يكون المعلمون، أو فليذهبوا للجحيم).

دار حول المعلم دورتين، ثم أخذ أحد الأماكن بجواره وجلس جلسة تشبه التي يجلسها المعلم متربعًا وقلَّده تمامًا وأغمض عينيه أيضًا وتمتم: (لا شك بأنه يراني ولكنه لن يتحدث معي حتى يقرر ذلك).

بعد هنيهة قدم باتجاههم ثلاثة هنود، رجل وزجته وابنتهما اليافعة، وجلسوا أمام الشيخ الذي لا يزال مغمض العينين

وبدآ يخبرانه بحال ابنتهما بشكل سريع ومتوتر، والشيخ بقي مغمض العينين، لقد فهم أليكس كل شيء، فكانا يرويان قصة ابنتهما التي تعاني من تعبٍ شديدٍ ودائم، ويصران أن سبب ذلك هو الأرواح الغريبة والشريرة.

فتح الشيخ عينية أخيرًا ونظر إلى أليكس مباشرةً، فرفع أليكس يده مسّلمًا، وحركها وكأنه مسافر في القطار يودع أخاه، ولكن الشيخ كان ينظر فحسب، ثم حجب نظره عنه ونظر إلى الفتاة وبدأ بالحديث، كان يتحدث عن أمور لم يفهما أليكس تمامًا مثل التأمل والصلاة، وأن هذه الفتاة يجب أن تخضع للقدر، وبأن تحفز الشاكرات لديها لتقوِّي عمل طاقتها، وبأنه سيساعدها.

بعد قليل ظهر وراء المعلم فتاة جميلة كطيف وتوجهت باتجاه الفتاة المتعبة مباشرةً - شعر أليكس بالحماسة فها هي قدرات معلمه تظهر أخيرًا - وبدأت بتغيير مشاعر الفتاة المريضة وطاقتها وكانت تنظر باتجاه أليكس أحيانًا وتبتسم له، في حين كان الشيخ لا يتوقف عن الكلام حول الشاكرات والتأمل والرضوخ لإرادة الله للتخلص من الذنوب، ثم بدأ الشيخ يتحدث عن الطعام ويسألهما عن طعامها فأجاباه بأنها تأكل حسب تعليماته وتوجيهاته: الخضار والبقول وخبز الشعير. وتبتعد عن اللحوم والحليب واللبن والبيض. قال الشيخ: (أحسنتما، يجب أن تستمرا على ذلك).

أحسَّ أليكس بأن طيف الفتاة الذي يدور حول الفتاة

الهندية المريضة يُحدِّثه بأفكار تظهر في عقله مباشرةً:

- ما رأيك بهذه الفتاة؟

نظر أليكس إلى الفتاة المريضة، وأجاب:

- إنها جميلة بالمقارنة مع سُكان المنطقة.

سمع ضحكًا خفيفًا من الطيف:

- لا أقصد شكلها، بل ما رأيك بسبب مرضها؟

نظر أليكس إلى الفتاة فرأى بأنها مرهقة ومنهارة:

- أعتقد أنها أرواح شريرة كما يقول والداها، والشيخ.

سمع ضحكًا مرةً أُخرى من الطيف:

- لا يا غريب.

- ماذا إذًا؟

- انظر، هذه الفتاة تعاني فقرًا بالدم، ونقصًا للحديد، والخضروات والبقول التي تتناولها لا تستطيع أن تعوض هذا النقص.

- وماذا يجب أن تفعل؟

- يجب أن تأكل اللحوم.

- ولكن اللحوم مُحرَّمة حسب ما ذكر الشيخ.

لم تجب الفتاة اللامرئية، بل تركت الفتاة المريضة واتجهت إلى الشيخ ووقفت بجانبه، ثم وضعت يدها على كتفه، فبدأ الشيخ يتكلم كلامًا عجب منه هو نفسه، كانت الكلمات بسيطة ولكنها مخالفة لمعتقده:

– يجب أن تأكلي اللحم الأحمر كل يوم لمدة عام.

اندهش الأبوان والفتاة وكذلك الشيخ الذي يتكلم، ولكنه تابع الكلام وهو مندهش:
– ولن يصيبك أي إثم أو ذنب، فلديكِ حالة مرضية تجعلك ملزمة بذلك، واياكم ألا تفعلوا ما أوصيتكم، وخصوصًا خلال الثلاثة أشهر القادمة.

ثم اختفت الفتاة المعالجة، وذهب الضيوف المرضى متعجبين ومطيعين لكلام الناسك. ولم يبقَ سوى أليكس ومعلمه، فحاول طوال النهار أو ما تبقى من النهار أن يتحدث مع معلمه، ولكنه لم يسمعه ولم يُجيبه على شيء.

انزعج أليكس وعاد إلى أريكته مقهورًا، فتح عينيه وقام بوضع قطع الحطب من جديد بالموقد بغضب، وأنهى ذلك اليوم من التعلم بقوله: (تبًّا لهذا النوع من المُعلمين، إنه لا يحسن التعليم ولا يحس بوجودي).

= عبد الرحمن =

اعتاد عبد الرحمن طوال عمله في المحاماة، بأن يتفرَّس في وجوه الآخرين من شهود ومُتهمين أو خصوم، ليعلم كيف يفكرون وماذا يضمرون. ولكن أغرب وجه رآه في حياته هو وجه أليكس، هذا الرجل الذي يميل للكبر، فقد استشفَّ منه، وجود شيء يُخفيه في داخله عن الناس، وهذا الشيء هو سعادة دائمة، فبرغم الظروف المأساوية التي يمرَّان بها، ورغم كل الظروف الصعبة التي مرَّ بها أليكس حسب ما ورد بمذكراتهِ التي صاغها عبد الرحمن، إلا أنه كان سعيدًا، فهنالك طريقة مختلفة يفكر بها أليكس تختلف عن سائر الذين عرفهم.

وبينما هو ممدد على التراب والنجوم تملأ السماء؛ قرَّر أن يسأله:

- أليكس، أنت سعيد من الداخل، لذلك طاقتك دائمة ومتجددة، فكأنك تدير تفكيرك وعواطفك كطفل، هل ما أشعر به صحيح؟

- نوعًا ما، فأنا سعيد من الداخل وأشعر بالحزن أحيانًا، لكن بنسبة أقل من الكثيرين، وسعادتي تفوق سعادة الكثيرين أيضًا وتفوقها استمرارًا، وهي تغيب في بعض الأحيان أيضًا، أما بالنسبة لرؤيتي العالم كطفل؛ نعم، فأنا أراه كذلك، ولكن هذا الأمر لا يحدث دائمًا، فأحيانًا لا أصل إلى هذه الدرجة.

ابتسم عبد الرحمن:
وضِّح لي أكثريا أليكس.

- اسمع يا عبد الرحمن، أنا لم أذكر كل الأمور في المذكرات التي أعطيتك إياها، فجدي واللا مادة أخضعوني لدروس نفسية وطاقية كثيرة، فينبغي على من يغادر جسده ويرى ما في قلوب الناس، أن يكون صافيًا ونقيًا كالأحجار الكريمة، وهذا بالضبط ما قاله لي أحد المعلمين الذين مررتُ عليهم، وأضاف بأن رؤيتي للحياة يجب أن تكون كرؤية الأطفال لا بالسذاجة وعدم الفهم، بل بطريقة تعاملهم مع الصعوبات، وإدارة عواطفهِم وتقبلهم للواقع، وعندها سأصبح لا أُقهر.

- وكيف فعلت هذا؟

- في الحقيقة لم أُتقِن ذلك بعد، ولا زلت أتعلم، ولا زلت في مدرسة الحياة إلى الآن.

- حدِّثني أكثر كيف تعلمتَ أن تصبح طفلاً يتقبل الحياة.

- عندما كنتُ يافعًا زرتُ مُعلِّمًا إفريقيًا يعيش في كينيا، ويُدعى «جومو»، وكانت بلاده تعاني من المجاعة، وقال لي بأني لكي أصبح طفلاً يجب أن أفهم الإنسان بكل مكوناته وأعمل على دمجها، ثم قال هذه العبارة: (لكي يقف الإنسان يحتاج إلى رِجلين للجسد ورِجلين للنَفْس ورجلين للعقل) وأعطاني أسبوعًا لأحل هذه الأحجية. وبعد أسبوع عدتُ إليه لأخبره بأني لم أجد لها حلاً ولا تفسيرًا، وكنت في ذلك الزمن أراها أسخف أحجية سمعتها في حياتي. نظر إلي بخيبة أمل وكان يأكل حبوبًا موضوعةً في كأسٍ حديديٍ، وكانت عِظامه

تبدو واضحةً من تحت جلده لشدة نحفهِ، ثم قال: (الرِجلان الماديتان هما رجلاك اللتان تراهما، فإن عرفتَ كيف تُحرِّكهما عرفتَ كيف تحرِّك جسدك، ورِجلا النَفْس هما الجنس وإثبات الذات، فإن أدركتَهما أدركتَ كيف تديرها وفهمتَ نفوس الآخرين، ورِجلا العقل هما المنطق والوهم «الخيال»، فإن فهمتهما عرفتَ كيف تدير عقلك وتفهم عقول الآخرين. انبهرتُ حينها من هذا الحديث ولم يكن هذا الانبهار بسبب نظرية معلمي الإفريقي وحسب، بل لكونه أُميًّا ويتحدث عن أكثر الأشياء التي تحدَّث عنها علماء النفس وهما الجنس واثبات الذات، ولم أتوقع أن يكون مُعلمي بهذه الأمور من إفريقيا، فظننته سيكون من أوربا بلاد «فرويد وبياجية وآدلر وديكارت» وغيرهم، وإذا نظرت في كلامه فكأنه يقول بأن رِجلي النَفْس هما فرويد وأدلر، ففرويد تكلَّم عن الجنس وأدلر عن الشعور بالنقص، فهذا زاد استغرابي في ذلك الزمن كيف لشخص أُميٍّ أن ينطق بهذه الأمور. وانطلق بعد ذلك يشرح لي «الليبدو» وشرح إثبات الذات، وفصَّلَ في الشعور بالنقص وتحدث عن الخيال والادراك والمنطق واستمر على هذا الحال يشرح لمدة أربعة أشهر من زياراتي المتكررة له، وبعد أن أنهى هذه الأحاديث وشعرتُ بأني دخلت في علوم النفس فيمكنني أن أُفسِّر سلوك أي إنسان وأساعده في التخلص من مشاكله، عندها وقف المعلم واتكأ على عصاه الطويلة ونظر باتجاه الشمس التي كانت تغيب وكان هنالك مجموعة من الفيلة تسير بعيدًا وكأنهم يمرون عبر الشمس الغائبة وقال لي: (هل رأيتَ كم هذه العلوم النفسية والعقلية التي أخبرتُك بها

مهمة ؟) فقلتُ له : (بالطبع يا مُعلم فيمكنك أن تفهم سلوك أي شخص وتُغيِّر سلوك أي فرد وحتى أي مجتمع)... (لا يا أليكس)... (ما الأمر يا معلم؟)... (كل هذه العلوم لا تساوي قشرة بصلة)... (وكيف ذلك يا معلم؟)... (كل هذه العلوم لا تساوي قشرة بصلة بدون إدراك الجزء اللامادي من الإنسان فمن يتجاهله ويُدقِّق على النفس وكأنها آلة حاسبة إذا فعلت كذا ستحصل على كذا وإذا فكَّرت هكذا ستجني كذا وإذا كانت المشكلة النفسية كذا عليك أن تقول كذا، فلن يستفيد شيئًا، ولن يجني سوى التعاسة، ولن يجد حلولاً لأي شيء. فبدون إدراك الجزء اللامادي فيك وإعطائه حاجاته ودمجه مع ما ذكرنا من علوم النفس والعقل لن تستفيد شيئًا من كل معارفك)... (وما حاجات الجزء اللامادي؟)... (حاجات جُزءك اللامادي بسيطة ومعقدة بذات الوقت، فهو يريد أن يتواصل مع هذا الكون ولو لأوقات قصيرة من كل يوم لكي يهبه الكون إكسيرًا كونيًّا يُمكِّنه من دمج كل المعارف داخله ويمكّنه فيما بعد من دمج ذاته مع الطبيعة)... (وما هو الكون هذا؟ هل هو الله ؟)... (هناك أديان كثيرة في العالم...) قاطعتُه :(نعم يا معلم هناك أكثر من ٤٣٠٠ دين)... (وهناك العديد من الفلسفات التي تُفسِّر العقل الباطني والكون والطاقة، ورغم عدد هذه الأديان وعدد هذه الفلسفات والعلوم إلا أنها لا تتحدث سوى عن شيء واحد وهو قدرة عظيمة صنعت كل شيء، وبعدها سمِّها ما شئت، وهذه القدرة هي ما يحتاج جُزءك اللامادي التواصل معها)... (وكيف يمكن للإنسان أن يفعل هذا؟)... (يُمكنه أن يتعلم التواصل باتباع المُعلِّمين

العُظماء الذين مَرّوا على هذا العالم ويقرأ لهم ولسيرتهم إن كانوا تركوا كُتبًا أو أقوالاً ويمشي على خُطاهم)... (نعم يا معلم ولكني لم أفهم، أريد طريقة أبسط لأتعلم هذا التواصل، فهل يوجد؟)... (نعم يوجد، فيُمكنك أن تراقب وتتعلم من أعظم المعلمين الموجودين دومًا وفي غالبية الأماكن ومتوفرين للجميع تقريبًا)... (ومن هم أعظم المعلمين يا جومو؟)... (هم الأطفال والحيوانات، فمن يستطيع أن يكون مثلهم بالتعامل مع الحياة وبذات الوقت يحتفظ بعقله؛ سينال السعادة والتواصل وإكسير الدمج)... عندها قلتُ له: (ولكن هذا غبي قليلاً، يا معلم جومو)... فطردني وأمرني أن أتوجه إلى معلم آخر غيره، وأضاف: (أنت فتى غبيّ ومُرَفَّه وتحتاج إلى العديد من الصفعات المؤلمة من الكون حتى تفهم ما أقوله لك)... فغادرتُه ولم أعد إليه من وقتها، مع أني أحببتُه حُبًّا جمًا، فقد كان حكيمًا وذا هيبة. والآن بعد مرور عشرات السنين وبعد أن تلقيتُ بعض الصفعات التي تحدَّث عنها المعلم جومو؛ أصبحتُ أعي كلامه وأسير عليه، فكلما رأيتُ طفلاً أخذتُ أنظرُ إليه، سارقًا من تصرفاته وحزنه وفرحه وأمله وتشوقه ما يزيدني طاقة، وعلى كمبيوتري المحمول صِور لحيوان الكسلان، أنا أتحدى كل الناس وأتحداك يا عبد الرحمن أن تنظر إلى وجه حيوان الكسلان وبعدها سيزول أي هَم من قلبك ومهما كان، وستبتسم لا محالة.

= من مذكرات أليكس وهو يافع =

كان أليكس يجلس بجانب التلفاز، ويقضم شطيرة من الجُبن، وكان متوترًا ويتمتم لاعنًا المعلم الهندي الذي لم يأبه به ولم يهتم بوجوده، عندها أتى الجد ليجده على هذا الحال:

- ما الأمر يا أليكس؟

- المُعلم يا جدي، الغبي الذي أرسلتني اللامادة إليه...

وقضم قضمةً كبيرة من الشطيرة.

- ما به؟

أخذ يتكلم بفم مملوء بالطعام:

- إنه لا يُحسن التعليم مطلقًا، ولا يُحسِن سوى الجلوس متربعًا مغمض العينين، قضيت كل الوقت أقفز أمامه ككنغر وأُحدِّثه وأصرخ، وفي النهاية أخذتُ أسُبَّه، مع ذلك لم يلتفت إلي، ولم يكلمني ولم يعطني أي اهتمام، هل كان يتجاهلني قاصدًا؟ يجب أن يُعفى هذا المعلم من مهنة التعليم، إنه يحوِّل الطالب إلى مجنون ببلادته وتربعه ذاك. من المسؤول عن تعين المعلمين يا جدي أخبرني؟

ابتسم الجد:

- ستتعرف عليهِ لاحقًا.

- حسنًا يا جدي، ولكن يبدو بأنك تعرفه، لذلك أخبره رجاءً

بأن يعزل هذا المعلم الهندي من سلك التعليم بأقرب وقت، لكي لا يُنشئ جيلاً مجنونًا.

ضحك الجد:

- حسنًا سأُخبره، ولكن لماذا لم ينتبه لك المعلم ولم ينظر إليك؟ فالمفروض أن المعلم يعرف تلميذه ويخبره بأنه معلمه ولو بالإيماءات، وبعدها يصبح دور التلميذ ليقنع المعلم بأنه أهلٌ للتعلُم.

- قُلْ هذا الكلام لذلك المعلم المتربع النائم.

ثم توقَّف أليكس عن الطعام وانتصب واقفًا ونظر إلى جده وقال:

- ماذا قُلتَ يا جدي؟

- قلتُ إن المعلم يعرف تلميذه ويُظهر له قدرته على التعليم، وبعدها يجب على التلميذ أن يثبت للمعلم بأنه أهلٌ للتعلُم.

- نعم يا جدي، ربما لم يكن هو المعلم، بل من المؤكد ذلك فلم يكن هو.

- ماذا تقصد يا أليكس.

- لم يكن هو المعلم، كيف لم أنتبه لذلك؟ فهو لم يفعل شيئًا، فقط كان يمتلك قدرة هائلة على النوم وهو متربع، أما تلك الفتاة فهي من ساعدت الهنود، وهي من أجبرتْه على الكلام على خلاف معتقداته، نعم، وهي كانت تراني وتبتسم وخاطبتني ذهنيًا، وأيضًا رأيتُها في حديقة المعبد عندما نظرتْ

إلي وابتسمت، وكانت بجسدها المادي آنذاك، لا شك أنها هي.

قضم قضمةً كبيرةً من شطيرته:

– سأذهب حالاً.

– انتظر يا أليكس، لقد عُدتَ منذ قليل ويجب أن ترتاح، فيمكنك الذهاب غدًا.

– لن أرتاح إلا بالذهاب الآن.

= من مذكرات أليكس عن شبابه =

استيقظتْ الطفلتان، وملأتا البيت والرحبة بالسعادة والنشاط، فكانتا سعيدتين للغاية بكل تفاصيل البيت والأشجار والبحيرة الصناعية في زاوية الرحبة، والتي يسبح بها بطتان وثلاث أوزات.

انتبه أليكس وجانيت إلى هذه السعادة، وأخذا يراقبانهما، نظرت جانيت إلى أليكس:

- إنهما سعيدتان، ينبغي علينا أن نُنهي أمر تيمور بأقرب وقت لتعود الحياة لما كانت عليه سابقًا.

- هذا ما سأفعله.

اتجه إلى الطاولة الخشبية ووضع بعض الأوراق والأقلام أمامه، تبعته جانيت وجلست على الكرسي. بدأ يفكر بصوت عالٍ:

- من المؤكد بأنهم لن يخبروا تيمور بكل الأمور، سيخبروه بأنهم أتموا العملية وأحرقوا المنزل، ولكنه سيكتشف الأمر عاجلاً أم أجلاً، لذلك يجب أن أجد حلاً ما، وأجمع كل المعلومات التي تثبت جرائم تيمور واسلمها للنائب العام.

فتح كمبيوتره المحمول، وبدأ بفتح صورة للأقمار الصناعية للغابة المجاورة للبلدة:

- يجب أن أُحدِّد للنائب العام مكان المقبرة الجماعية بدقة.

- ولكن يا أليكس ربما قاموا بنقل الجُثث من هناك.

- حتى لو فعلوا ذلك فالمقبرة قديمة فسيجد المحققون بقايا دقيقة في التراب جراء تحلل الجثث وسيكتشفون الأمر. ولكن ما يشغلني هو أكثر من ذلك.

- ما هو؟

- كيف أثبت أن تيمور هو من صنع هذه المقبرة وليس غيره، فلن نستفيد من كشف مكان المقبرة إذا لم نثبت بأن تيمور هو من صنعها.

بقيت جانيت صامتة تُفكِّر:

- ليس في ذهني أي حل الآن ولكن لا بد أن يكون تيمور قد أخطأ بشيء ما.

وبعد قليل ابتسمت جانيت وأخذت نفسًا عميقًا وقالت:

- اسمع يا أليكس، عندي حل لكل ذلك.

= من مذكرات أليكس وهو يافع =

توجَّه أليكس بسرعة إلى غرفته وجلس على كرسي المكتب وأغلق عينيه ليجد نفسه بجانب المعبد، ولكن الليل كان قد خيَّم هناك وأضواء أعمدة الكهرباء الصفراء تعطي المكان رومانسية ملفتة، ذكَّرته بليزا، وشعر بحُزنٍ وشوقٍ لها: (ليتها حيَّة، وليتها معي الآن لترى جمال هذا المكان).

بدأتْ الرياح تحرِّك الغبار وأكياس النايلون المنتشرة في الأرجاء، (والآن ماذا سأفعل؟... يجب أن أجد المعلمة).

بدأ يتذكر تلك الفتاة ويُفكِّر بها، وما هي إلا ثوانٍ حتى وجد نفسه جالسًا في غرفة متواضعة في منزل هندي قديم، كانت الجدران تحتوي على الكثير من الشقوق الدقيقة، وكذلك طلاء الغرفة قد زال في العديد من الأماكن، ويوجد سجادات صغيرة مزخرفة مُعلَّقة على الجدران، وفي زاوية الغرفة تقف فتاة طويلة مرتديةً فستانًا ملونًا بالأحمر والأخضر، ومستديرة باتجاه الحائط.

أخذ أليكس يتفقد المكان بنظره، كانت الغرفة توحي بأن سُكانها فُقراء، فهي قليلة الأغراض لا يوجد فيها سوى مِرآة معلقة وبأسفلها طاولة صغيرة مغلفة بورق جرائد طُبِع عليه صور لـ«شاكيرا» وصورة للممثل الهندي «روشان»، وعليها

مشط ودبابيس للشعر، ثم جلس على الأرض متربِّعًا وتابع التحديق.

خلعت الفتاة الإيشارب، ليسقط على ظهرها وكتفيها شعرٌ أسودٌ كثيفٌ غايةٌ في الروعة، وصل بسقوطه إلى بداية خصرها، كان شعرها كلوحة فنية، ثم سمع صوتها تقول:

- ها أنت مُجدَّدًا.

نظر أليكس حوله بحثًا عن أي شخص آخر في الغرفة ولكنه لم يجد أحدًا، ثم استدارت وحدَّقتْ فيه لبضع ثوانٍ، ثم تابعت عملها في الغرفة وهي تقول:

- ما الذي تريدينه أيتها الروح الهائمة؟

تشجَّع أليكس عند ذلك وبدأ بالكلام:

- أنا أليكس من أستراليا، جئتُ إليكِ لتكوني مُعلِّمتي وأتعلم منكِ أي شيء تريدين أن تعلميني إياه.

ابتسمت الفتاة وجلست القرفصاء أمامه مباشرةً:

- لا يهم من أين أنت يا أليكس أو من أي بلدة، فكل هذه الدول وما تظن بأنكَ تنتمي إليه من أعراق، ليس سوى وهم، فأنت في هذا العالم لا جنسية تعنيك ولا بلد ولا فلسفة، بل جميعها لك وأنت خليطٌ منها، فانبذ السيء منها وتمسك بالجميل، وعندما تبلغ هذه العقيدة ستبلغ الحرية، فبالأجساد توجد المورثات، ولكنها ليست سوى مادة ونحن أكثر من ذلك، وعندما يدرك البشر أن الجنس والعرق والتعصب لأي شيء أمر غبي، سيضعون أول خطوة على طريق النور. أمَّا بشأن أنك

تريدني أن أكون مُعلمتك؛ فهذا أمر يتوقف علي، وقراري يحتاج لوقت. وبخصوص استفسارك عمَّا سأُعلِّمك - في حال قبلتك كتلميذ - فهو شيء واحد، ولن تفهم ما أعنيه الآن، وهو هذا...

وحرَّكتْ يدها التي كوَّرتها كقبضة وأخرجت منها إصبعها الأوسط ووضعته على رأسها فالتوى قليلاً من مقدمته وابتسمت، هذا هو. ثم انتصبت واقفةً:

- ولكن إلى أن يأتي الوقت الذي أقبلك تلميذًا عندي يجب أن تجيب عن جميع أسئلتي.

أُعجِب أليكس بكلامها وشعر بأنه يحتوي على الكثير من المعاني وقال في نفسه: (حتى لو رفضتْ أن تكون معلمتي فإن ما قالته للتو يكفيني، فهو كلام جميل).

- حسنًا أوافق، اسألي ما تشائين.

وقف أليكس وسار بجانب «آيشواريا» الهندية ولا يبعد عنها سوى نصف متر وينظر إلى وجهها الأسمر مباشرةً ويتمحصها بعناية.

وقفت «آيشواريا» أمام المرآة وبدأت بشك الدبابيس الطويلة في شعرها. قال أليكس:

- ماذا تقصدين برأسك الذي أشرتِ إليه؟ فماذا يا ترى سأتعلم منه؟

ابتسمت وقالت:

- بعد أن أوافق على تعليمك؛ ستعلم ذلك، وإذا لم أوافق لن تعلم.

- حسنًا، لنكُن أصدقاء الآن، وسأجيب عن أسئلتك، فما الذي تريدينه من صديقك يا آيشواريا.

- أريدك أن تُحدِّثني عن نفسك، وكيف تعيش، وعمَّن حولك، وباختصار شديد.

ثم مشت باتجاه الباب وفتحته، وأليكس بجوارها يبتسم. أراد أن يُمازِحها:

- كيف تريدين أن أُخبرك عن كل تفاصيل حياتي تلك وباختصار شديد، فإذا أردتِ ذلك سأقول لكِ: أنا أنا، وحياتي مثل حياتي. هل هذا يكفي؟

ابتسمت آيشواريا ودخلت إلى المطبخ المفتوح على صالة المنزل وقد بدا المطبخ قديمًا، وفيه أوانٍ كثيرة متسخة، ويتدلى من المجلى ستائر قماشية متسخة أيضًا، ورائحة المطبخ غريبة، فهي تبدو كرائحة قوية لخليط من آلاف التوابل والبهارات وكأنك في محل للتوابل، وأخذتْ تضع في صحنها شيئًا ما لا يعرفه أليكس يبدو كحساء بُني فيه العديد من الألوان على سطحه. ثم قالت وهي تسكب الحساء:

- تحدَّث بأي شيء تريده عن حياتك.

- حسنًا...

وعندما همَّ بالكلام دخل مجموعة من الرجال والنساء إلى المطبخ، وكانوا جميعًا مستعجلين قليلاً. جفل أليكس من دخولهم. بدأوا يتناقشون ويتكلمون بسرعة مع بعضهم بهندية لم يفهمها؛ كما كان يفهم حديث آيشواريا.

تدخلتْ آيشواريا بالحديث معهم، واقتربتْ من أليكس وهمست:

- لا تخافي أيتها الروح الهائمة، فهُم لن يلحظوكِ.

وتابعت النقاش معهم.

شعر أليكس من نبرة حديثهم بأنهم سيتعاركون بعد قليل.

أخذت آيشواريا صحنًا واستدارت بقوة ليطير شعرها ويدخل في رأس أليكس ويخرج منه، ثم توجهت إلى شرفة المنزل، فتبعها أليكس المندهش من كل هذه الأمور متجاوزًا النساء والرجال الذين يتحدثون بنبرة عدائية، ولمَّا وصل إلى مُعلمته وجدها تقف على سجادة مُمددة على الأرض ويتدلى فوقها مصباح كهربائي مُضيء بضوء خافت، ثم تربعت لينهمر شعرها حول الصحن وقالت:

- أخبرني.

وبدأت تأكل بهدوء.

جلس أليكس قبالتها وتربَّع، وبدأ الحديث:

- أنا أليكس، وأعيش في أستراليا مع جدي في بيت كبير للغاية، في وسط غابة خلابة رائعة تحتوي على أشجار عملاقة..

كانت آيشواريا تنظر إليه بين الحين والآخر وتفتح عينيها متفاجئة ومستمتعة بالوصف...

- أدرس الميثولوجيا في الجامعة، وأمارس الرياضة أيضًا...

سألته آيشواريا:

- هل تأكل ما تريد من أنواع الطعام؟

- نعم، أستطيع أن أشتري أي نوع من اللحوم أو الأسماك أو النباتات والكائنات البحرية، وجدي طاهٍ بارع، ويُعلِّمني الطهو أيضًا، فهو يصنع طعامًا شهيًا للغاية. ولكن لماذا تسألين؟ ألا تأكلين ما تريدين هنا؟

ابتسمت آيشواريا:

- لا، لنقُل أحيانًا، فالأمور هنا مختلفة كثيرًا، فنحن نأكل ما يوجد لا ما نريد. أكمل حديثك ولا تعطِ لهذا الأمر بالاً. وأخبرني، هل لديك صديقات حميمات؟

- نعم، لدي العديد من الصديقات.

ابتسمت آيشواريا وانتصبت واقفة بعد أن فرغ صحنها.

- وأنتِ يا آيشواريا، ألا يوجد لديكِ أصدقاء؟

قال ذلك وهو يسير بجانبها وهي متجهة إلى الداخل، ثم بدأت بغسل الصحن الذي بيدها، وأجابته:

- لا يا أليكس، الأمور لا تسير على هذا النحو هنا، فهنا الأغلبية هم أعداء، ويجب ألا يروا منك أية زلَّة، والطريقة الوحيدة لإيجاد صديق حميم هي الزواج، فقط الزواج، ومن أي أحد، هل تفهمني؟

- هل يُعقل هذا؟! من أي أحد؟!

- نعم، وأنا منذ أكثر من سنة أقلِّب الرجال الموجودين حولي لأجد من يصلح منهم للزواج بي، ولكني لم أجد.

- هذا مأساوي. ولكن لماذا لا تعيشين الحُب مع أحد الهنود الجميلين بدلاً من الزواج؟

- الحُب في هذه البلاد ليس للفقراء، بل هو للأغنياء فقط، وإن أحببتَ أحدًا فيجب أن تعاني وتتخفى وكأنك لِص، ولن تستمتع في أي علاقة تُقيمها، لأن أي شخص يعلم بها أو يشعر بها سيضيِّق عليك ويراقبك ويحاول استغلالك، وستكون مطاردًا وكأنك تركض بلحم مسروق.

- هذا صعب فعلاً.

- نعم.

وتوجهت إلى غرفتها وبدأت تمد فراشًا على أرض الغرفة لتنام فوقه، ووضعت الأغطية عليه، وأشعلت شمعةً، وأطفأت أضواء الكهرباء، ثم دخلت تحت الغطاء ونظرت إلى أليكس:

- هيا اذهب يجب أن أنام، فغدًا لدي الكثير من المصائب لأواجهها، وسنتحدث لاحقًا.

ثم نظرت باتجاهه وابتسمت:

- تصبح على خير.

ودفعت نفسها أعمق تحت الغطاء، ولم يبقَ ظاهرًا منها سوى شفتيها وعينٍ من عينيها وخصلة شعرٍ، ثم انتفخ خدها وشفتاها ونفخت على الشمعة فأطفأتها. ليجد أليكس نفسه في ظلام دامس وسط الغرفة.

لم يكن يرغب في المغادرة، بل يريد السهر والحديث، ولكن لابد أن ينزل عند رغبة مُعلمته، لكي لا يعطي صورةً سيئة عنه منذ البداية. ثم قال وهو في هذا الظلام بصوتٍ منكسر:

- تصبحين على خير.

وأغمض عينيه ليرى نفسه يعود إلى كرسي المكتب في غرفته في أستراليا، وضوء الصباح يوشك على السطوع.

= من مذكرات أليكس عن شبابه =

- لا يمكن أن نعتمد على أخطاء تيمور يا أليكس، فقد يكون قد اتخذ كامل الاحتياطات وأخفى كل الأدلة قبل أن يظهر مُجددًا في حياتنا.

بقي أليكس صامتًا يحدِّق من زجاج الغرفة إلى الغابة.

- لدي الحل لكل هذا.

قالت جانيت هذا بعد أن أخذت نفسًا عميقًا، ثم تابعتْ:

- أنا سأتولى مهمة كشف تيمور.

رفع أليكس حاجبيه، وقال:

- وكيف ذلك؟

- تيمور يريدني أن أبقى حيَّة، وأنا سأستغل هذا وأتظاهر بأني نجوتُ من الحريق، وسأتقرب منه، وبعد ذلك سأضع في منزله ومكتبه كاميرات صغيرة كتلك الموضوعة في الشركة التي أعمل بها، وبذلك سأجلب ما يثبت بأنه مجرم.

- يا سلام، لو أنك لا تفكرين لكان أفضل، هذا محال فتيمور خطير للغاية وقد يؤذيكِ في أي لحظة.

- لن يفعل يا أليكس، فكل شيء يقوم به الآن هو للحصول عليّ، وقبل ذلك سيكون في غاية الرقة، فأنا أعرفه جيدًا.

- أنتِ تعملين مديرة وأُمًّا لطفلتين، ولستِ شُرطية من

المباحث لتستطيعي التعامل مع المجرمين، في ذلك خطورة بالغة يا جانيت، يجب أن يكون هناك طريقة أفضل، فأنا لا أقبل أن أزجَّ بكِ بين يدي مجرم.

– لقد اتخذتُ قراري يا أليكس، ولن تمنعني، فلا بد أن أحمي طفلتيّ، وهذا ما سأقوم به.

رفض أليكس هذا الرأي وقال لجانيت:

– هذه المخاطرة مرفوضة كُليًّا، غدًا نذهب إلى الشرطة ونُخبرهم ما لدينا وحسب، وليقوموا بعملهم.

– ولكنك قلتَ بأنهم إذا لم يثبتوا بأن تيمور مجرم سيبقى طوال العمر يهددنا ويقلق راحتنا.

– نعم قلتُ ذلك، ولكن الذهاب للشرطة أفضل بألف مرةٍ مما تفكرين به.

– ولكن يا أليكس...

– اِنسِ هذا الأمر يا جانيت، ولا تعودي إليه مطلقًا.

سكتت جانيت وغادرت الغرفة غاضبة.

في اليوم التالي استيقظ أليكس ليجد ورقة على مائدة الطعام كُتِب عليها رقم هاتف، وتحته كُتِب:

– هذا رقم مُربية الأطفال «فانيسيا» اتصل بها لتأتي إليك وتعتني بالأطفال ريثما أعود، سأقوم بما أنوي فعله، فتعاون معي يا أليكس، وخلال يومين سيكون كل ما تريده عن تيمور بين يديك، ثق بي هذه المرة فيجب أن نحمي طفلتينا... زوجتك المخلصة جانيت.

قال في نفسه مُنزعجًا: (المُحقِّق «شارك هولمز»، تظن نفسها المُحقِّق شارك هولمز).

وبينما أليكس يقرأ الورقة غاضبًا، كانت جانيت تقف أمام منزلها المحترق وتتظاهر بالبكاء على زوجها وابنتيها المفقودتين والتي لم تعثر الشرطة بعد على جثثهم، وذلك بعد أن أجابت على مجموعة من الأسئلة التي طرحتها عليها الشرطة.

وفجأة شعرت بيد توضع على كتفها وصوت دافئ يقول:

- جانيت، ستكون الأمور على ما يُرام.

نظرت جانيت إلى الخلف لتجد تيمور جاثيًا وعيونه ملأى بالدموع. أرادت التظاهر بأنها متفاجئة، ولكنها لم تكن تحتاج للتظاهر، فقد تفاجأت حقًا، فوجه تيمور لم يكن يبدو كما كانت تعرفه، ولا حتى كما كانت تراه في الأحلام...

- من أنت؟

سألته وهي تُحدِّق به، فلم يُجبها، فأردفت:

- أنت... تيمور؟ هل يُعقل هذا؟

- نعم، أنا هو.

- أين كنت؟ ظننتك متَّ.

- سأخبرك بكل شيء.

وقام بضمها إلى صدره.

بقيت جانيت متفاجئة، فيما نظر تيمور في عينيها مباشرةً:

- جانيت لقد سمعت بما حدث، وأتيتُ من فوري إلى هنا، مع أني كنتُ في مكان بعيد عن هذه المدينة.

هزَّت رأسها وأخذت تمسح دموعها بيديها.

- لا يجب أن تبقي هنا بجانب البيت، تعالي معي، سنذهب إلى منزلي لترتاحي.

أومأتْ بحركة من رأسها تعني الرفض:

- لا أريد، سوف أبقى هنا حتى يظهر أطفالي أحياءً أو أمواتًا.

- أرجوكِ يا جانيت تعالي معي.

أمسكها من ساعِدِها وساعَدَها على النهوض، ثم قادها إلى سيارته، بينما هي بقيت صامتة ومطرقة في الأرض.

- سأصحبكِ إلى منزلي لترتاحي، والشرطة ستخبرنا في حال علمتْ بشيء، وسنوصيهم بذلك.

لم تُجب ممثلةً دور من دخل في صدمة أفقدته الإرادة والقرار.

وبعد بعض الوقت كانت جانيت وتيمور أمام منزله، دخلت بمساعدته، ورمت نفسها على الأريكة، متمتمة بأسماء طفلتيها: (سكارليت، أرورا. أين أنتما الآن؟) . وأخذت تبكي.

- اِهدأي يا جانيت، فالمباحث لم تجد أي جثة حتى الآن، ربما نجا زوجك وأطفالك، ونحن على تواصل معهم وسيخبروننا عندما يجدونهم.

- هل تتوقع ذلك؟

- نعم، نعم.

- تيمور كيف تجرؤ على المجيء إلي ومواساتي، وقد تركتني

فجأة جاهلةً أين ذهبتَ، فقد ظننتُك ميتًا، ولِمَ لم ترسل لي أي رسالة أو أي شيء؟! أنت شخص غير مسؤول.

وقفت جانيت لكي تغادر، أمسكها تيمور من يدها:

- كنتُ أحبذ أن أؤجل هذا الموضوع لوقت آخر، ولكن إذا كُنتِ مُصِّرة سأخبركِ، وبعدها تستطيعين الذهاب إن شئتِ.

- حسنًا أخبرني.

- لا أعرف كيف أبدأ بالأمر، ولكني سأُخبركِ به بأبسط العبارات وكما حدث معي... في اليوم الذي تركتكِ فيه كنتُ أمشي على الرصيف عندما شاهدتُ أليكس يقبل صوبي.

- أليكس زوجي؟

- نعم، لقد كنت أظنه شخصًا جيدًا ومثاليًا كما تظنين أنتِ الآن، ولكن تبيَّن بأنه لم يكن كذلك.

- كيف تقول ذلك عن أليكس؟ هذا الكلام لا يُعقل.

- أرجوكِ يا جانيت اسمعيني إلى أخر الحديث، وسأثبت لكِ كل ما أقوله.

- حسنًا.

- فطلب مني أن أرافقه إلى داخل الغابة، وقال بأنه سيُريني مكانًا يعرفه من صِغرهِ قام بإنشائه هو وجدّه، وأمام إصراره قبلتُ بذلك، وعندما أصبحنا في داخل الغابة وبينما أنا أسأله متى سنصل إلى وجهتك؛ تفاجأتُ بأنه ينوي قتلي.

فتحتْ جانيت عينيها مُتفاجِئة.

- نعم يا جانيت، إنه مجرم، وهو يحفظ تلك الغابة

بجذافيرها، فقد تربَّى هناك، حتى أنه يُطلق على الأشجار والعصافير أسماءً ويعرفهم بها، وكان قد هيَّأ لي قبرًا هنالك في مقبرة جماعية يجمع بها ضحاياه.

بقيتْ جانيت متفاجِئة.

- كان يريد أن يحصل عليكِ، وهذا ما حدث للأسف، ولقد قام بضربي وخنقي، وأنا تظاهرتُ بالموت، وقام بدفني، بل بتأبيني وإلقاء كلمة الأقارب على قبري لشدة إجرامه، وقد سمعتها بأُذني، ثم غادر. وبعد ذلك قمتُ بالخروج والزحف حتى وصلتُ إلى بيتي، وأخذتُ أبحث عن معلومات عن أليكس وتاريخه، فعلمت أنه رجل مجرم هو وجده، ويمتلكان عصابة خطرة، ففكرتُ بأنه إذا علم بأني لم أمُت فسوف يقتلني، وقد يؤذيكِ أيضًا، لذلك قرَّرتُ بعد مرارة وعناء شديد أن أترك المدينة ودون أن يعلم أحد ولبعض الوقت... وبعد أن تركتُ المدينة ببضع شهور تفاجأت بأنك وأليكس تحضِّران للزواج، فدخلتُ في اكتئاب شديد، وقرَّرتُ ألا أراكِ ثانيةً، واضعًا بالحسبان بأني لا أريد أن أُعكِّر صفو حياتك الجديدة أيضًا، وحافظتُ على عهدي هذا، وخصوصًا بعد أن علمتُ بأنك سترزقين بطفلتين... ولكن عندما قرأتُ في الصحف نبأ احتراق منزلك انهيتُ هذا العهد ولم أستطع أن أفعل شيئًا سوى أن اندفع وآتي إليكِ بسرعة.

استوقفت هذهِ القصة جانيت، وشكل تيمور الذي بدا صادقًا وبريئًا للغاية، واستمرت بالنظر إليه مُتفاجِئة، وتمنَّت لو تضمه.

– أنتِ الآن متعبة، ولا أريد أن أزيد الأمر سوءًا، لنأمل أن يكون أليكس والطفلتين بخير، وسنتحدث بكل شيء لاحقًا، وسأثبت لكِ ما قلت، أما الآن فعليك أن تستريحي.

بقيت جانيت صامتة ومصدومة بالفعل هذه المرة ودون تمثيل، فهي لا تعرف ماذا تقول، فقصة تيمور مُقنِعة، بينما قصة أليكس خيالية، فهو يقول بأنه غادر جسده حتى علم بأن تيمور يريد قتلهم... فأيُّهم صادق؟

– أرجوكِ يا جانيت توقفي عن التفكير الآن، واقبلي عرضي بالبقاء في منزلي ريثما تجدين بيتًا مناسبًا للسكن، فهذا البيت كبير ووحدي من يسكن به، وهناك في الأعلى غرفة كبيرة للضيوف تسكنها أختي بين الحين والآخر، لذلك يتوافر فيها كل ما تحتاجينه من ثياب نسائية وكل شيء قد يلزمك، استحمي وارتاحي وستُحل جميع الأمور غدًا، ولا تفقدي إيمانك فالرَّب معكِ وسوف ينقذهم، فلدي احساس قوي بأن طفلتيك على قيد الحياة. لا تخافي، هيا اصعدي ولا تفكري بأي أمر الآن.

هزَّت رأسها موافقة واتجهت إلى الغرفة التي في الطابق الأعلى واستحمت ثم ارتدت ملابسًا من الملابس الموجودة في خزانة الغرفة، وكانت الملابس على مقاسها تمامًا، ونظرت لترى صورة أخت تيمور موضوعة على منضدة بجانب السرير.

استلقت على السرير وبدأت الأفكار تدور في عقلها بسرعة، وبدأ الشك يدخل إلى نفسها، فهل يا ترى أليكس هو من يخدعها، فقد كان وجه تيمور بريئًا للغاية ولا يبدو مُخادِعًا

والقصة التي رواها يمكن أن تحدث وهي منطقية أكثر مما روى أليكس، وخصوصًا عندما قال بأنه غادر جسده واكتشف بأن تيمور يريد قتلهم، وقد أخفى عليها الكثير من الأمور عن حياته ولا يزال.

أرخت جانيت جفنيها لتتهيأ للنوم، وقامت بنفخ الهواء من صدرها لتخفف من الحيرة التي تعتريها لاكتشاف الحقيقة، وبعد برهة، ابتسمت وهي تنظر إلى صورة أخت تيمور: (تيمور هو الكاذب الوحيد)، وحملت الصورة وقربتها من عينيها: (جميع الثياب التي في خزانة هذه الغرفة لا تصلح لأخت تيمور، إنها على مقاسي حصرًا، ولا يمكن أن تصلح بحال من الأحوال لهذه الفتاة الأسمن مني، لقد دبَّر تيمور كل ذلك، فلا يزال لديه هوس في حفظ ومعرفة مقاس أي فتاة يُحب؛ كما كان سابقًا.

ثم أرجعت الصورة إلى مكانها وقالت في نفسها: (شُكرًا لأخت تيمور التي كشفت لي كذب أخيها).

ثم أرسلت رسالة من هاتفها إلى أليكس: (الأمور تحدث كما أريد، وأنا بخير.. زوجتك المخلصة).

نظر أليكس إلى هاتفه وقرأ الرسالة، وكان منزعجًا من فعل جانيت ومخالفتها لرأيه، وأصبح ينزعج من عبارة «زوجتك المخلصة» والتي بدأت تذكرها في رسائلها له، سواء في تلك الورقة التي تركتها على الطاولة أو الرسالة الإلكترونية الآن، فكأنها تقصد بهذه العبارة: (لستُ في أحضان تيمور الآن).

وضع أليكس يده على شعر رأسه وبدأ يحك رأسه كحركة يقوم بها عندما يفكِّر، ثم كتب لها رسالة وأرسلها: (زوجك المخلص الذي يوشك على بلوغ الجنون بسبب أفعال زوجته).

قرأت جانيت الرسلة وضحكت، ثم أغمضت عينيها لتنام، وهي تقول في نفسها: (غدًا سأضع ثلاث كاميرات صغيرة في هذا المنزل).

= عبد الرحمن =

استغرب عبد الرحمن كيف أن نظرته لأليكس تتغير باستمرار، فعندما رآه أول مرة في مكتبه؛ رآه رجلاً غريب الأطوار متطفلاً مزعجًا ويبدو غبيًا وثقيل الظل، ولكن بعد أن قرأ مذكراته؛ وجده شخصًا يُحسن سرد القصص، فبدأ يراه بعين مختلفة، وعندما جعله يرى فساد النائب العام، رآه شخصًا عجيبًا للغاية، أما في المشفى الميداني وهو يخيط له جرحه ويضمده رآه طبيبًا خبيرًا. أما الآن وهما في الصحراء فهو يراه ضابطًا عسكريًا يخطِّط لكل شيء ويدرك ماذا يفعل.

تمقل عبد الرحمن أليكس وأخذ يُفكِّر: (من يكون هذا الرجل بالتحديد؟ هل هو بطل أسطوري مثل سبايدر مان). فكر بنفسهِ وابتسم.

توقف أليكس وقال:

- سنرتاح قليلاً هنا.

فجلس عبد على التراب، وقال:

- أليكس، أريد أن أسألك.

- اسأل يا عبد الرحمن.

- هل أنت خارق؟ هل أنت سبايدر مان يا أليكس؟

نظر إليه أليكس بقليل من الشرود وهو يحاول تفسير

السؤال، وبعد ذلك انفجرا في الضحك هما الاثنان...

- نعم أنا أُشبهه، ولكني لا أُخرج الخيوط من يدي.

- من أين تُخرجها إذن؟

- من أنفي يا عبد الرحمن، فالجميع يخرجونها من هناك.

وأخذا يضحكان.

- لا تضحك كثيرًا، فالضحك قد يفتح جرحك مجددًا، اسمعني يا عبد: أنا إنسان عادي، ولكني حظيت بتربية جيدة وببعض الميزات من الكون.

- ولماذا هذا الكون لا يوزع الميزات على الجميع يا أليكس؟

- إنه يفعل ذلك، ولكن يعطي كل شخص بحسب استحقاقه.

= من مذكرات أليكس وهو يافع =

- أنتِ يا مُعلمة لا تُفكِّرين سوى بالزواج.

نظرت معلمة أليكس الهندية «آيشواريا» ناحيته ورفعت حاجبيها، وكانت تجلس على كرسي وتقوم بعملها المعتاد في أحد معامل صباغة الأقمشة بالطرق التقليدية، حيث كان أمامها حوض ماء مصنوع من الحجر، ومليء بالمياه الحمراء الممزوجة بالصباغ، وهي تقوم بوضع الأقمشة به وتُحرِّكها...

تابع أليكس الكلام:

- ربما لن أتعلم من عقلك الذي أشرتِ اليهِ سابقًا سوى شيء واحد، وهو كيف يجد الشخص زوجًا مناسبًا.

قالها مبتسمًا، فابتسمت آيشواريا، وأجابته:

- هل تتوقع أن يحدث ذلك يا أليكس؟

- تقصدين أن تتزوجي؟

- نعم.

- حسنًا، لماذا لا تتزوجين ذاك الشاب الذي يقف هناك بجانب برميل المياه ويحمل عصا التحريك الغليظة بيده؟

هزَّتْ رأسها يمينًا وشمالاً، وعصرت شفتيها، ثم حوَّلت عينيها قليلاً وأعادتهما إلى موضعهما الطبيعي بحركة طفولية سريعة مُعبِّرة عن اشمئزازها من هذا الطرح:

- آه يا أليكس، إنه يحاول أن يتقرب مني طوال الوقت ولكنه مُقرف وكريه، اُنظر إلى أصابع رجليه، شاهد كيف تتراكم عليها الأوساخ.

نظر أليكس إلى الرجل وتمعَّن برجليه:

- فعلاً يا آيشواريا، يبدو وكأن هناك خُلجان وجُزر تَنبت على أصابع رجليه، إنها الحياة تتكون من جديد على رِجلي هذا الكائن.

ضحكت آيشواريا، فاستدعى ضحكها انتباه الفتيات والشُّبان الذين يعملون في المعمل، وسألتها إحدى العاملات:

- ما بكِ يا آيشواريا تضحكين؟

حرَّكت يدها بإيماءة تعني: دعيني وشأني.

وتابعتْ الضحك.

= عبد الرحمن =

استيقظ عبد الرحمن وبدأ يفتح عينيه بصعوبة، ليرى صورة أليكس جالسًا أمامه وكأن صورته تذهب وتعود. فرك عينيه ثم حدَّق بأليكس الذي قال بصوتٍ حازم:

- استيقظ يا عبد الرحمن، علينا أن نسير.

- حسنًا.

انتصب عبد الرحمن وبدأ بالمسير، بينما الظلام لا يزال يسيطر على المكان.

- التقط قطعة الحديد التي بجوارك يا عبد.

- لماذا؟

- افعل ذلك وحسب.

- حسنًا. لماذا لا تقوم بشيء يا أليكس؟ فكل الأمور أقوم بها أنا

لم يُجب أليكس على هذا السؤال.

- وماذا الآن؟

- الآن توقف يا عبد وابدأ بالحفر، عليك أن تحفر حفرة تتسع لك، بحيث لا يراك الجنود عندما تشرق الشمس ولكي تستظل بها، واستخدم قطعة الحديد في الحفر.

- حسنًا، وأنت؟

- لا عليك مني، سوف أغيب قليلاً، احفر بكل ما استطعتَ من سرعة.

كان عبد الرحمن يسمع أصوات انفجارات بعيدة، فبدأ يحفر باستخدام قطعة الحديد بأسرع ما يستطيع، وكان يسمع أصوات الكلاب الشاردة ويتمنى في نفسه ألا تحس بوجوده وتتجه إليه، فهو يعلم أن الكلاب الشاردة قد تكون متوحشة، تساءل في نفسه: (أين ذهب أليكس؟)، وأخذ يحفر بسرعة وبدأ يسمع أصوات الكلاب تقترب والحفرة التي يحفرها أخذت تتسع وتوشك أن تحتويه، ولكن نباح الكلاب بدأ يربكه أكثر فأكثر، وبدأ يشعر بالجوع والعطش معًا، ثم اقترب صوت الكلاب منه كثيرًا فتوقف عن الحفر، والتزم الصمت والسكون، ليرى أليكس بجانبه مباشرةً ودون أن يسمع صوت خطواته قادمة وكأنه انبثق من جانبه فجأةً، فصرخ مرتعبًا من ظهورهِ المفاجئ. ثم سمع الكلاب تركض وتنبح وتتجول بالقرب منه إثر سماعها لصوته...

- اِهدأ يا عبد الرحمن، فالآن يحدث ما نريده بالضبط.

سأل عبد وهو مرتبك:

- وما الذي نريده بالضبط؟
- نريد الكلاب، اسمع يوجد في حقيبتك مسدسًا، أخرجه.
- ومن أين أتى المسدس؟
- لقد أعطاني إياه الطبيب في المشفى الميداني، مقابل أن أبقى معهم وأساعدهم.

- حسنًا، ولكنك لم تفعل، فكيف أعطاك إياه؟

- المهم الآن أنه في حقيبتك، اجلبه يا عبد وعندما يتجمع الكلاب حولك اطلق النار على أحدهم وسيهربون.

- لماذا لا تفعل ذلك أنت يا أليكس؟

- أنا لا أستطيع يجب أن تقوم بذلك بنفسك، هيا بسرعة.

أحسَّ عبد الرحمن بالكلاب تقترب فبدأ بفتح الحقيبة والبحث عن المسدس بارتباك:

- لماذا لا أُطلق في الهواء فيهربون دون أن أطلق عليهم؟

- لا يا عبد الرحمن يجب أن تقتل أحدهم.

- لماذا؟

- لكي تأكل.

توقف عبد الرحمن عن البحث ونظر إلى أليكس:

- ماذا؟! مستحيل.

- إذا لم تفعل ذلك ستموت من الجوع.

وفجأة اجتمع خمسة كلاب حول الحفرة التي تأوي أليكس وعبد الرحمن وأخذوا ينبحون ويتأهبون للهجوم.

ودون أن يفكر سحب عبد الرحمن المسدس وأطلق النار باتجاههم وهو مغمض العينين وهو يقول: (أنا محامٍ ولا أُحسن استخدام الأسلحة). فأصابت الرصاصة أحد الكلاب فبدأ يُصدر نباحًا مريرًا، وهرب الكلاب الباقون.

- عبد الرحمن: افتح عينيك وأطلق رصاصة ثانية على

قلب أو رأس الكلب، لا يجب أن تتركه يتعذَّب حتى يموت.

- لماذا لا تفعل أنت ذلك يا أليكس؟

- هيا يا عبد الرحمن.

فتح عبد الرحمن عينيه وانتصب، بينما الفجر ينتشر والرؤية أصبحت ممكنة نوعا ما، صوَّب باتجاه الكلب الجريح وأطلق النار عليه عدة مرات، حتى توقَّف الكلب عن الحركة.

كان قلب عبد الرحمن يدق بسرعة، وشعر بأنه لم يقم بأسوأ من هذا العمل طوال حياته، وأحسَّ بالأسى على الكلب، فجثا بجانبه. فقال أليكس:

- يجب أن تقف الآن يا عبد.

نظر عبد الرحمن إلى أليكس بغضب مُفاجئ:

- ماذا تريد مني الآن، ها... ماذا؟

= من مذكرات أليكس وهو يافع =

- الصِّعاب إما أن تقضي عليك أو تجعلك قويًّا، وإذا ما صِرتَ قويًّا فستأتيك صعاب تجعلك أكثر قوة، هذا هو مجمل ما ستفعله بك اللامادة يا أليكس، لتصنع منك نجمًا في هذا الكون يؤثر في حركة الكون المادي واللامادي ويتأثر بها.

كانت آيشواريا الهندية تتحدث مع أليكس وهي تُسِّرح شعرها وتُنسِّقه، فاليوم سيتقدم لخطبتها أحد شباب الحي المجاور... قال طيف أليكس مازِحًا:

- وما هي الصعاب التي سنتعرض لها؟هل هي كيف نتزوج؟؟

ابتسمت آيشواريا:

- اسمع يا أليكس، إن الزواج هو أكبر معاناة على الاطلاق للفتاة الهندية، وهو شرٌّ لا بد منه، ولكن الصعاب التي ستتعرض لها أنت أخف من ذلك على ما أعتقد.

- حسنًا وما هي؟

- ينبغي عليك أن تبحث عن البذور النقية في هذا العالم وتساعدها.

- وما هي البذور النقية؟

- هم أناس أنقياء من مختلف أنحاء العالم ستساعدهم

على تجاوز مِحنهم وتطوير ذواتهم، وستدلك عليهم اللامادة واحدًا واحدًا.

– هذا الأمر يحدث بالفعل يا آيشواريا، فلقد تعرفتُ على عدة أشخاص من مختلف أنحاء العالم، وأنا أزورهم لا ماديًا من دون أن يعرفوا بوجودي، وأساعدهم أحيانًا، فالبارحة مثلاً، أخذتني اللامادة وخيَّرتني بين العديد من الأشخاص لأساعدهم، فوقع اختياري على طفل صغير جميل المنظرِ ومُضحِك من سورية، قُتِل والداه بأحداث حماة، حيث قامت الدولة بإبادة جماعية لحي كامل في المدينة ولم يتبقَ من كامل الحي أحدٌ سواه، فأخذه مختار الحي المجاور وسلَّمه إلى أقاربه من جهة أُمه في دمشق، وهو يعيش معهم الآن، وشعرت بأني يجب أن أُسانده طوال حياتي، لأنه فقد والديه كما فقدتُ أنا والديَّ.

– ماذا كان اسمه؟

– لقد كان اسمه مُرَّكبًا.

ثم رفع طيف أليكس اليافع رأسه إلى الأعلى محاولاً التذكُر:

– كان اسم الطفل «عبد الرحمن» على ما أعتقد.

= عبد الرحمن =

- يجب أن تقوم بأمر آخر قبل وضوح الرؤية.

توقف عبد الرحمن، متسائلاً:

- ما هو؟

- دعنا نسير بهذا الاتجاه.

- حسنًا.

سارا قليلاً، ثم قال أليكس:

- توقف هنا يا عبد الرحمن، واجمع هذا الحطب المغمور بالتراب هناك، واجلب بعض الأشواك اليابسة.

بدأ عبد الرحمن بالحفر، ونزع الحطب المُغطَّى بالتراب، أما أليكس فكان يقف أمامه دون أن يقوم بأي فعل، فكان ينظر وحسب، ويدله على أماكن الحطب أحيانًا. انزعج عبد الرحمن من سلوكه هذا، ولكنه احتفظ بانزعاجه لنفسهِ فيكفي ما يأتي به أليكس من معلومات وطُرقٍ للنجاة من هذه المحنة. جمع الكثير من الجذور ووضعها في قميصه بعد أن خلعه وربطها...

- يجب أن تعود قبل أن يطلع الضوء بشكل كامل يا عبد الرحمن، هيا بسرعة.

عاد عبد الرحمن هرولةً باتجاه الحُفرة، وأليكس بجانبه، ولكنه لم يحمل ولا حتى جذرًا يابسًا واحدًا في يده. ازداد انزعاج

عبد الرحمن من ذلك ولكنه بقي صامتًا أيضًا، ثم وصل إلى حفرته وهو حاني الظهر لكي لا يراه أحد، فالضوء بدأ يُظهِر التضاريس. وقبل أن يدخل في الحفرة التي يستلقي بجانبها الكلب الميت؛ رأى النقطة العسكرية ولكنها كانت بعيدة نوعًا ما...

– أليكس، نحن لم نبتعد عن القطعة العسكرية كثيرًا، بل دُرنا حولها.

– لقد فعلتُ ذلك عمدًا.

– لماذا يا أليكس؟

– لكي لا نتوه في الصحراء ونموت، فأنت بحاجة إلى الراحة والطعام حتى يلتئم جرحك، ولا تستطيع أن تسير لمسافات بعيدة.

– فما الخطة الآن يا أليكس؟

– هل ترى القطعة العسكرية؟

– نعم.

– بجانبها شاحنة تحمل صواريخ، بعد قليل سيبدأون بالقصف على مدينتك.

كان عبد الرحمن جاثيًا في الحفرة ويراقب النقطة العسكرية، بينما يستمع لكلام أليكس الجاثي خلفه...

– وعندما يبدأ القصف يا عبد الرحمن سيمتلئ المكان بالضجيج، وعندها يجب أن تتسلل وتملأ عبوة الماء من صهريج الماء، المركون بالقرب من مكان عمل الجنود.

توقف عبد الرحمن عن النظر إلى القطعة العسكرية ورمى نفسه في الحفرة، ورفع حاجبيه مُستغربًا:

- أنا؟!

- نعم أنت. ولكن قبل ذلك عليك أن تسلخ الكلب وتقطع لحمه وتشويه على نار الحطب وتأكله.

- ماذا؟!... لماذا أنا الذي يجب أن يفعل كل ذلك يا أليكس، وأنت تقف متفرجًا؟، ألسنا شركاء في هذه المحنة؟ لقد قتلت الكلب يا أخي فأوشكت عن الموت عوضًا عنه، والآن تريدني أن أسلخ جلده، فأنا لا أستطيع أن أنظر إليه حتى، لماذا لا تفعل ذلك أنت؟ وتريدني أن أذهب وأجلب الماء من الصهريج الذي بجانب الجنود، افعل شيئًا أنت يا أخي، لقد زادت وقاحتك عن المألوف، من اليوم الذي أتيت بمذكراتك الملعونة إلى مكتبي وأنا لم أرَ يومًا هنيئًا.

ثم عدَّل جلوسه في الحفرة وكتَّف يديه وأخذ ينفخ الهواء من أنفه، وقال:

- لن أسلخ الكلب والسماء زرقاء.

= من مذكرات أليكس وهو يافع =

كانت آيشواريا تقف أمام المرآة وأليكس اليافع يقف خلفها ويرقب انعكاس صورتها، عندما أخذ شعرها الأسود يزداد طولاً، وبدأ وجهها يصبح مُخيفًا ومُريبًا وكأنها تتحول إلى مشعوذة، فبينما كانت تسرِّح شعرها أخذ يزداد طولاً دون توقف، وأصبح شكلها في المرآة مُخيفًا للغاية.

التفتت إلى أليكس بوجهها الأسمر الذي أخذ يزداد اسمرارً وأنفها أخذ يطول، وبدأ جسدها يتضخم، صرخ أليكس بقوة:

- ما بكِ يا آيشواريا؟ ما الذي يحدث لكِ؟

رفعتْ رِجلها التي أصبحتْ ضخمة للغاية ووضعتها أمام أليكس وظهرت منها أظافر بُنية متسخة وطويلة تشبه أظافر الشاب الذي رآه في معمل الصباغ، ثم اقتربت من وجهه وهو يصيح:

- ما بكِ يا آيشواريا؟ هل أنت دراكولا؟

وببطء استمرت بالاقتراب من خده حتى بلغت أُذنه، وهمست له بصوت غليظ:

- أريد أن أتزوج.

استيقظ أليكس مرتعبًا إثر هذا الكابوس الغريب، وانتصب واقفًا بجانب الفراش، ثم اتجه إلى الطاولة الصغيرة

التي تُحاذي نافذة غرفتهِ وسكب كأسًا من الماء من إبريق زجاجي وشربها ببطء، ثم نظر من زجاج النافذة إلى الخارج.

كان الجو باردًا والرياح تُحرِّك الأشجار بعنف، فكَّر أليكس: (ما هذا الكابوس؟) نظر إلى ساعته، كانت الواحدة ليلاً، ثم رأى شخصًا في أسفل المنزل يقف مسمّرًا، فأمعن النظر، كانت امرأة عجوزًا قصيرة تُشبه الهيكل العظمي، وشعرها أبيض مشعث. حدَّق أليكس بها، كانت تنظر إليه مُباشرةً. شعر بالفزع، ولكنه أخذ يُحدِّق بها أكثر فأكثر. وفجأةً رفعت يدها ليسقط كُمُّ كنزتها الصوفية ويظهر جلد يدها المائل إلى البياض، ثم فتحت أصابعها الخمسة واحدًا تلو الآخر، وأليكس يحدِّق في وجهها الذي تبدو تفاصيله غامضة، ويبدو قبيحًا، ثم أخذت تمشي ببطءٍ مبتعدة.

نزل السلالم بسرعة إلى الطابق الأرضي فرأى جده نائمًا على الأريكة أمام التلفاز، فكّر بأن يوقظه، لكنه وجده مستغرقًا في نوم هنيء فارتدى معطفه وحمل مصباحًا كهربائيًا، ومسدسًا تحذيريًا «مسدس إضاءة»، والذي يطلق كرة نارية مضيئة، ويُستخدم عادةً للتحذير أو طلب النجدة، ولكنه مُؤذٍ إذا ما صُوب إلى شخص مباشرةً.

فتح الباب ببطء وخرج إلى الرحبة حيث الغابة الكبيرة، ليجد المرأة تبعد عنه قرابة الخمسين متر، اتجه نحوها وأضاء المصباح عليها ولكنها كانت مستديرة ولا يظهر منها سوى شعرها الأبيض الأشعث، وعندما أوشك أن يصل إليها

اختفت، وظهرت بعيدة أكثر بحوالي خمسين متر، وظلت تتخذ بُعدًا ثابتًا عنه.

استمر بمطاردتها حتى أصبح في وسط الغابة، وبعد ذلك بلغ الطريق المُعبَّد العريض، ولم يستطع بلوغها، ولكنه لا يزل يراها، فقرر العودة والتوقف عن مطاردتها.

أثناء عودته كان ينظر إلى الخلف بين الحين والآخر، فيجدها تتبعه، وبذات البُعد عنه دائمًا، فدخل البيت، وبينما هو يغلق الباب رآها تتبعه باتجاه البيت، فأوصده بسرعة وركض إلى النافذة، فرآها تقف بمواجهته مباشرةً تبتسم بوجه مخيف وترفع يدها.

عاد عدة خطوات إلى الخلف، ثم أخذ قراره (سوف أقوم بمطاردتها ولكن باستخدام السيارة هذه المرة).

خرج إلى الرحبة وأدار محرك السيارة وانطلق باتجاه المرأة الغريبة بسرعة جنونية، ولكنه تفاجأ بأنه لم يدركها فقد بقيت أمامه وبذات البُعد (خمسون مترًا) وكانت تحافظ على هذه المسافة مهما زاد من سرعته اتجاهها.

= من مذكرات أليكس عن شبابه =

تمكَّنتْ جانيت من زرع ثلاث كاميرات في غرفة نوم تيمور بعد أن غادر، وعندما رافقته إلى مكتبه تمكَّنت من وضع واحدةٍ أيضًا، وكانت الكاميرا عبارة عن كُرة صغيرة تلتقط الصوت والصور بكافة الاتجاهات وترسلها إلى هاتف خليوي ليسجلها، فوضعتها في إناء للزينة يحتوي على أوراق ورود مجففة، بينما كان تيمور ينظر من النافذة ويُحدِّثها، ولكن الشيء الذي لم تنتبه إليه بأنه لم يكن ينظر من النافذة عندما كانت تضع الكاميرا، بل كان ينظر في النافذة إلى انعكاس صورتها على الزجاج، ورأى كل شيء تقوم به.

بعد أن عادت جانيت إلى منزل تيمور ودخلت إلى غرفتها أخذت تُقلِّب الفيديوهات التي تنقل إلى جهازها من كاميرات المنزل والمكتب لتتأكد من عمل الكاميرات، فسمعت صوت خطوات تنبئ بمجيء تيمور إلى المنزل فأغلقت هاتفها الخليوي وانتبهت إلى وجود العديد من الرسائل التي لم تقرأها على جوالها، فنزلت عن السلالم:

– تيمور، هل علمتَ أي شيء عن أليكس والطفلتين من الشرطة؟

ثم نظرت إلى جوالها مرة ثانية وفتحت الرسائل غير المقروءة، كانت كلها واردة من أليكس، فوجدت كلمة واحدة

مكررة بعشرات الرسائل: (اهربي، اهربي فورًا يا جانيت).

توترت جانيت عندما قرأت هذه الرسائل.

نظر تيمور إليها دون أي كلام، فاقتربت منه وحرَّكتْ رأسها، بمعنى أنها تنتظر جوابه على سؤالها.

وفجأة صفعها بشدة، فسقطت على الأرض، وأخذت الدماء تقطر من أنفها وفمها، ولم تستطع أن تدرك بالضبط ماذا جرى، فقد صُدمِت بالكامل.

ثم شعرت بتيمور يلصق فمها بلاصق مطاطي ويديره حول رأسها عدة مرات ليغطي عينيها وكامل وجهها، ولم يبقَ منه سوى فتحة صغيرة عند أنفها، بينما هي تتحرك وتقاوم، ثم ألصق يديها، وحملها ورماها في صندوق سيارته وأغلقه، دون أن يتلفظ بأية كلمة أو تعليق، تصرَّف بصمتٍ مطلق، ثم استحوذ على هاتفها وحطَّمه برجليه، وسكب عليه مادة بترولية وأشعله، ثم صعد إلى سيارته، وأدار محركها وانطلق بسرعة، فاصطدم رأس جانيت بغطاء صندوق السيارة إثر الاندفاع المفاجئ، وكان قلبها يدق بسرعة بسبب التصرف المفاجئ من تيمور، وكانت تفكّر في نفسها: (كان يجب ألا أقوم بكل هذا).

= من مذكرات أليكس وهو يافع =

بعد ساعة ونصف من مطاردة أليكس لشبح المرأة وبأقصى سرعة ممكنة؛ وجد نفسه في بلدة والديه، والتي عاش بها عندما كان صغيرًا. أخذ يقترب من منزل والديه والمرأة لا تزال أمامه بذات البُعد وكأنها تدله على الطريق. لقد جعلت الذكريات قلبه يخفق عند مشاهدة منزله والحديقة، فمنذ أن غادرهما في صغره لم يعد إليهما ثانيةً.

كانت الشوارع خالية فلم يكن هنالك أحد في البلدة، فالساعة هي الثالثة صباحًا والجميع نيام، ولكن طيف المرأة لم يقف أمام منزله بل استمر بالتقدم. وقف أليكس لبرهةٍ أمام منزله وتأمله ثم أكمل ملاحقة الطيف الذي دخل حديقة أحد المنازل.

أوقف أليكس السيارة ونزل منها، وكان لا يزال يرتدي بيجامة النوم المخططة بالأزرق والأبيض ومشاية من الفرو، تبع الطيف ودخل إلى حديقة المنزل، فبدا المكان مألوفًا بالنسبة إليه، أخذ يتأمله ثم تذكَّر صاحبة هذا المنزل، إنها جارتهم وصديقة والدته التي كانت تزورهم في صغره، وهي من اعتنت به عندما توفي والداه، ولكنه لم يكن متأكدًا من هذه الذكرى وبأنه فعلاً منزلها.

نظر إلى الطيف فوجده يتجه إلى المنزل ويدخله، وبعد برهة رأى الطيف في داخل المنزل ينظر إليه من النافذة، اقترب أليكس من الباب، وبعد بعض التردد قرر الدخول ولم يكن الباب مقفلاً، ففتح البابَ ببُطء ودخل إلى البيت، كان طيف المرأة يقف في الممر مستديرًا لا يبدو منه سوى شعر أبيض أشعث، ولكنه لا يبتعد كالعادة، وبدأ الشعر يتغير ويتحول لشعر أسود أملس وطويل.

اقترب أليكس من الطيف ومد يده حتى كادت أن تلمس الشعر الطويل، وفجأة التفت الطيف إليه، فرأى وجه معلمته آيشواريا الهندية والتي ابتسمت ومدت يدها رافعةً إصبع السبابة، فلمست جبينه وقالت: (العقل الكوني) واختفت.

نظر أليكس حوله فلم يجد أحدًا، اختفى طيف المعلمة آيشواريا بالمجمل، والهدوء يعم المكان، شعر بأنه في ورطه حقيقية، فهو في منزل أناس آخرين، ودخله دون استئذان، وفي منتصف الليل، ومن يقطن في هذا المنزل قد يقبض عليه في أي لحظة، فمن سيصدق بعد ذلك بأنه كان يطارد طيف امرأة عجوز وبأنه ليس لصًّا. ثم هدّأ من روعه وقال لنفسه، (لا لن يظنوا أني لصًّا، لأنه لا يوجد لصٌّ في العالم يذهب للسرقة مرتديًّا بيجامة نوم ومشاية من الفرو، ولكنهم سيظنونني مجنونًا بلا شك، أنا أحمق بالكامل يجب أن أغادر فورًا).

بدأ يمشي بهدوء وعلى رؤوس أصابعهِ لكي لا يسمعه قاطنو المنزل، ثم فتح الباب على مهل، علَّه يخرج ويعود إلى

منزله بسلام، ولكنه سمع صوت حركة غريب من إحدى الغُرف تشبه الزحف...

قاده فضوله بعد الكثير من التردد والخطوات إلى الأمام والخلف للذهاب إلى تلك الغرفة ليلقي نظرة، وتفاجأ بأنها لم تكن غرفة بل كانت حمامًا وكان بابه مفتوحًا جزئيًا، وعندما استرق النظر منه رأى إمرأةً عجوزًا مُلقاةً على الأرض، سروالها مخلوع، وكانت يدها ترتعش، اندفع نحوها وأمسكها ونظر إليها، فعلم أنها جارتهم التي قضت الليل معه واعتنت به عندما توفي والداه، ولكنها الآن تبدو أكبر سنًا.

-هل أنتِ بخير؟

قال لها ذلك وهو يرفعها عن الأرض ويساعدها على النهوض ثم يرفع لها سروالها وينسق لها ثيابها، وكانت بالكاد تستطيع الحركة، نظرت إليه بعينين شبه مغمضتين وقالت:

- من أنت؟

- لا تقلقي يا جدة سنذهب إلى المشفى القريب، أنا أليكس ابن جيرانك، هل نسيتني؟

- أليكس، أليكس لا يُعقل، أين كنت غائبًا كل هذه الفترة؟

كانت تقول ذلك بينما أليكس يساعدها على المشي باتجاه سيارته في الخارج.

- ولماذا ترتدي بيجامة نوم؟ هل عُدتَ لتسكن في منزل والديك؟

لم يكن أليكس اليافع يردِّد سوى عبارة واحدة ويعيدها:
- ستكونين على ما يرام.

أوصلها إلى سيارتهِ ومدَّدها على المقعد الخلفي وقاد السيارة باتجاه المشفى. وكان يتحدث معها بين الحين والآخر، وقد بدت بأنها مسرورة لرؤيته. قالت له:

- لقد كنت أتمنى دائمًا أن أراك وأعرف أين اختفيت.

- ستكونين على ما يرام يا جدة.

اندفعت العربة الطبية ذات العجلات إلى إحدى غرف الإسعاف وعلى سطحها المُسِّنة وبجانبها أليكس والمسعفون. كانت تنظر إلى أليكس وكأنها لا تريد من هذا العالم شيئًا سوى رؤيته.

وبعد أن أوصلها إلى الغرفة، خرج إلى ممر المشفى واتصل بجده:

- جدي، أنا في مستشفى «بالمرستون الإقليمي»

صرخ الجد على الجهة الثانية من السماعة:

- في مشفى «بالمرستون»؟!، ما بك يا أليكس؟ وما الذي حدث بالضبط؟

- لا تقلق يا جدي أنا بخير، ولكني أتيت لأسعف أحدهم فقط.

- حسنًا حسنًا، سأكون عندك بعد عشر دقائق.

وأغلق السماعة بسرعة.

وضع أليكس الهاتف المحمول في جيبه وفكَّر في نفسه: (جدي المسكين إنه يخاف علي كثيرًا، أي عشر دقائق يتحدث عنها؟ الطريق يحتاج لساعتين).

أخذ ينظر من زجاج غرفة الانتظار في المشفى، حيث توجد منحوتة حجرية كبير في الخارج، ويقول في نفسه (أنا في دوامة الآن، بدأت أفهم أني لن أفهم الكثير وسأبقى طفلاً يتعلم في مدرسة الحياة، وفي كل يوم يوجد درس جديد).

= من مذكرات أليكس عن شبابه =

أيقن أليكس أن الوقت يداهمه، وبدأ قلبه يدق بشدة وكأنه شعر بأن مكروهًا قد أصاب جانيت... (عليّ أن أذهب الآن، سأذهب إلى منزل تيمور فورًا ومعي الشرطة).

بدأ يُهيِّئ نفسه وأغراضه للخروج، فرفع هاتفه واتصل بعميلة الأمن الجنائي «ليسا» التي تعمل على قضية اختفائه.

- لا تزال حيًّا؟ أين أنت والطفلتان؟

- سيدة ليسا، نحن نتعرض لتهديد من قِبَل عصابة، ويجب أن أقابلك لنتحدث بكل شيء.

- أين أنت الآن؟

- سأرسل لكِ مكاني: **SPG**.

- حسنًا وصلني العنوان، سأكون عندك بعد رُبع ساعة.

أغلق أليكس الهاتف وأخذ يجمع بعض الأوراق والصور والوثائق، ووضعها في مصنف، وبعد قليل نظر من الشباك الكبير لمنزله، ليرى أربع سيارات سوداء تدخل إلى رحبة المنزل، فكَّر في نفسه: (هل يُعقل أن ليسا أتت بهذه السرعة؟، ولكن لماذا تُحضر هذا العدد من السيارات؟).

حدق بالرجال الذين ينزلون من السيارات ويُشهِرون أسلحتهم، فأدرك أنهم ليسوا من الشُّرطة.

اندفع أليكس بسرعة باتجاه غُرفة الأطفال،كانت المُربِّية السمينة تستلقي على فراش إسفنجي ممددًا على الأرض والطفلتان تتكئان عليها، وتحمل كل منهما لعبتها، وتتابعان برنامجًا للدُّمى التي تحرك باليدين... فتح باب الغرفة بعنف واندفع داخلها بسرعة حتى بلغ الأطفال، وقال للمُربِّية:

- قِفي بسرعة يا فانيسيا.

مالت المُربِّية السمينة المستلقية بجسمها باتجاهه:

- ماذا هناك؟

- قِفي بسرعة.

وانحنى وغمرها مُحاولاً رفعها، دون جدوى.

- قِفي أرجوكِ.

وأخيرًا استجابت لرغبته، وحرَّكتْ رجليها السمينتين وجثت على ركبتيها ثم انتصبت واقفة، شعر أليكس أن فترة وقوف هذه المربية هي أطول فترةٍ عاشها في حياته، حمل طفلتيه، قائلاً:

- هيا الحقي بي بأسرع ما تستطيعين.

- ماذا هناك يا سيد أليكس؟

- اركضي بسرعة، إنه أمر طارئ.

تبعته المربية بينما هو يركض أمامها وبأسرع ما تمكنت، وتوجه إلى قاعة المكتبة، وبينما هو يجتازها ويحمل طفلتيه كان يشعر باهتزاز أرض المنزل خلفه بسبب خطوات المربية السمينة، ثم لمح من النوافذ الرجال في الخارج ينتشرون حول

المنزل لمنع أي هرب محتمل. وصل إلى أخر المكتبة والمربية تتبعه وهي تلهث، ضغط على كتابين من المكتبة فتحركت إحدى خزائنها، لتُظهِر بابًا خشبيًّا في الجدار، فتحه وأدخل طفلتيه إلى الداخل، وقال:

- الآن يا حلوتاي ستكتشفان بمساعدة المربية فانيسيا النفق السري الجميل، فأطيعاها.

ثم استدار باتجاه المُربية:

- امسكي يا فانيسيا، هذا هاتفي اتصلي بالعميلة «ليسا» رقمها هو أول رقم في السجل وأخبريها أن هناك رجالاً هاجموا المنزل وهم تابعون لتيمور لينكن، وأعطها هذا الملف الذي يحتوي على بعض الوثائق المهمة عن تيمور، وسيري أنتِ والطفلتين إلى أخر هذا النفق ولا تخرجي قبل أن تصبح العميلة ليسا هنا، هل فهمتِ ما قلت؟

نظرت فانيسيا إليه باستغراب وهي تضم المصنف إلى صدرها:

- هل يمكن أن تُخبرني ما الذي يحدث؟

حاول أليكس دفعها باتجاه الباب الذي بالكاد سيتسع لدخولها ولكن دون جدوى، وهو يقول:

- لا يمكنني يا فانيسيا، فإذا لم تتحركي الآن سنموت جميعًا.

- لن أتحرك قبل أن أعرف.

سمع أليكس ضربة قوية على الباب وسمعه ينفتح، فدفع

فانيسيا بقوة:

- هيا يا فانيسيا، افعلي ما أقوله بالضبط.

اندفعت فانيسا وتعثرت وسقطت داخل النفق على ضهرها، انصدم أليكس من مشهد سقوطها، فيما كانت تنظر إليه مندهشة وهي لا تزال تضم الأوراق إلى صدرها.

اعتذر لها وأرجع الكتب لمكانها، وأغلق الباب، فبدأت خزانة المكتبة تتحرك لتُخفيه.

وعندما أُغِلق أخر سنتيمتر من خزانة المكتب مُخفيةً باب النفق بالكامل؛ شعر أليكس بفوهة مُسدَّد توضع على رأسه.

= من مذكرات أليكس وهو يافع =

– هذا كل ما أستطيع أن أُعلِّمكَ إياه.

– في الحقيقة يا آيشواريا، أنا لم أفهم شيئًا مما تريدين أن تعلميني إياه، فأنتِ تقولين أن ما ينبغي أن أتعلمه منك، هو استخدام العقل الكوني، وهو عقل كعقلك، وهذا كل ما في الدرس، ولم تُضيفي شيئًا آخر، فماذا عساي أفهم من هذا الشرح؟

– إن جميع المعلومات التي تحتاجها وصلت إليك من خلال مشاهدتي ومشاهدة حياتي، فبالنظر إلى الأشخاص نتعلم أمورًا أكثر من الأمور التي نتعلمها من الاستماع إليهم، ولكنك تحتاج لبعض الوقت لتدرك ما تعلمته.

– أنا لم أتعلَّم من مراقبتك سوى كيف يخطط المرء للزواج، هذا كل ما تعلمته من مراقبتك.

ضحكت آيشواريا:

– لا، لقد فهمت أكثر من ذلك يا أليكس.

– حسنًا، أنت تقصدين أن العقل الكوني هو كعقلك يستطيع أن يدرك العالم المادي واللامادي معًا ويتعامل معهما سويًا وكأنهما واحد.

– ها أنت قد فهمت شيئًا غير التخطيط للزواج، نعم، فهو

لا يعني أن تتواصل مع الكون بل يعني بأن تندمج معه وتكون جزءًا من.

- قرأتُ في أحد الكتب أن العقل الكوني هو قُدرة الإنسان على استخدام عقله الباطني والتواصل معه لإيجاد الحلول، كان اسم الكتاب «القوة الخفية للعقل الباطن لجيمس فان فليت على ما أعتقد.

- بل هو أن تندمج مع الكون والطبيعة واللامادة لا أن تتواصل معها فقط.

- آه، مثل معتقدات شعوب أستراليا الأصليين ولكن كيف يمكن أن تجعلي أحدًا يُصِّدق ذلك؟

- لا أعرف ما هي شريعة شعوب أستراليا الأصليين يا أليكس، أما بالنسبة لسؤالك (كيف تجعل أحدًا يصدق ذلك؟)، فالجواب عليه أن الشخص يجب ألا يصدق هذه الأمور، ولكن إذا عُرِضت عليه فيجب أن يصدقها، فلا يجوز أن يتجاوز الشخص مرحلة اللا تصديق بالتصديق فيجب أن يمر بالأولى ليصل إلى الثانية، لا أن يقفز قفزًا.

- صحيح لا يجب أن يقفز مثل الكنغر، بل يجب أن يمشي مثل الإنسان.

- وما هو الكنغر يا أليكس؟!

- ألا تعرفين الكنغر رمز أستراليا؟

- لا، لا أعرفه.

- ألا ترينه على التلفاز؟

- ليس لدينا تلفاز.

- كيف سأصف لكِ الكنغر؟ إنه يشبه العامل الذي يعمل معكم في المعمل، ولكنه لا يمشي بل ينط نطًّا وبدل المريول الذي يرتديه لديه جيب ليضع أطفاله، وأذناه أطول قليلاً وفمه للأمام وليس للخلف.

- هل تركبونه وتحملون عليه الأحمال والأغراض؟

- لا لا يا آيشواريا، فالكنغر لا يمشي على أربعٍ، بل ينط نطًا على قائمتين، وله ذيل يقف عليه أحيانًا عند العِراك ليتمكن من الركل بقدميه، وحجمه كبير ولكنه لا يصلح لتحميل البضائع.

- وكيف يقف على ذيله وهو كبير الحجم، كيف لذيل حيوان أن يرفعه؟

- كيف سأشرح لكِ ذلك؟

- ألا تضعون البضائع في جيبه؟

- لا لا يا آيشواريا.

- أنت تعجز عن تفهيمي شكل حيوان لم أره سابقًا.

- فعلاً.

- فكيف ستشرح لشخص ما هو العقل الكوني وهو لم يختبره سابقًا؟!

ثم أضافت:

- هل تعرف كيف أتصور الكنغر الآن؟

- لا، كيف؟

- أتصوره مثل «أجايا» الذي يعمل معنا وله رجل واحدة كبيرة ينط بها وذيل طويل له مفصل مثل اليد تقريبًا لتحمل جسده عندما يرفس، وجيب كبيرة معلقة على رقبته مليئة بالصباغ الأحمر... هل الكنغر كذلك؟

- لا يا مُعلمة.

- هل تتخيل الآن ما سيتخيل أي إنسان تحدثه عن العقل الكوني وهو لم يختبره؟

- فعلاً، لا يجب أن يصدِّق المرءُ شيئًا قبلَ أن يُعرَض عليه، وأنتِ أيضًا يا معلمة فلتنسِ وجود حيوان يسمى الكنغر، وركزي على الزواج فقط.

وأخذا يضحكان.

= من مذكرات أليكس عن شبابه =

انتصبت فانيسيا ووضعت أذنها على الباب الموصد لتسمع صوت أمرأة تقول: (لا تتحرك يا أليكس وإلا حوَّلتك إلى جثة هامدة، وأجبني على سؤالي، أين الطفلتان؟).

شعرت فانيسيا بخطورة الموقف، ودون أن تصدر أي صوت اتجهت باتجاه الطفلتين اللتين توغلتا في النفق قليلاً وأمسكت يديهما وأخذت تتوغل أكثر في النفق، وبدأت تحاول الاتصال بليسا ولكن لم تكن الإشارة جيدة، وعندما وصلت إلى نهاية الممر وجدت سُلمًا حلزونيًّا يصعد للأعلى، فصعدته هي والطفلتان ليصلوا إلى غرفة كبيرة تحتوي على أريكة بيضاء وتلوسكوب. توجهت الطفلتان على الفور لاستكشاف التيلسكوب، نظرت فانيسيا حولها لترى منظرًا خلابًا للسماء والغابة من خلال قبة الغرفة الزجاجية، وقالت: (ما أروع هذا المكان).

بينما العميلة ليسا تصيح في الهاتف المهمل في يد فانسيا: (أليكس أجِب، هل هناك خطب ما؟ ألو أليكس).

= من مذكرات أليكس وهو يافع =

انتهت رحلت أليكس اللامادية في الهند وها هو الآن يجلس على الأريكة ويستمع لصوت الطقطقة اللطيفة الناتجة عن احتراق خشب الأشجار في الموقد، وأخذ يتذكر الرحلة التي أمضاها في الهند، ويتذكر آيشواريا وعريسها وأحلامها وأحلام الناس هناك ومتاعب حياتهم، ثم نظر إلى فخامة حياته في المقابل وكيف يتوافر لديه كل ما يحتاجه من أمور مادية.

عاد لذاكرته كلام آيشواريا وهي تقول له: (هل تأكل ما تريده يا أليكس؟). وشعر بالحزن تجاه حياتها والفقر الذي تعيشه، وتذكر جدالهما في هذه المسألة حيث قال لها: (لماذا لا تساعدك اللامادة يا آيشواريا لتتخلصي من الفقر ولتعيشي حياة مرفهة)... (اسمع يا أليكس، أمثالي ليس لهم أي أفضلية على غيرهم من الناس سوى بالراحة والرعاية، أما المال فيجب أن نكسبه بالطرق التي يكسبه به غيرنا من البشر، ويجب أن نجاهد في الحياة مثل سوانا).

وبعد هذه الذكريات أخذ أليكس نفسًا عميقًا، ونظر إلى المرأة التي تجلس على الأريكة التي بجواره وقال:

- كيف أصبحتِ الآن يا جدة؟

كانت المرأة المسنة والتي أنقذها وأسعفها إلى المشفى قد تعافت وهي الآن في ضيافتهم...

- لولاك يا أليكس لكنتُ متُ البارحة فقد كانت نوبة حادة، ولكن كيف علمتَ بي وأتيت لإسعافي؟

- إنها الصدفة. أخبريني الآن يا جدة ما رأيك بجدي؟ وما رأيك أن تبقي لأسبوع أو أكثر عندنا؟

نظرت المرأة المسنة إلى جد أليكس الذي كان يجلس بالقرب منهما ويبتسم...

- إن جدك خرافي يا أليكس، لا يمل الشخص من الحديث معه أبدًا، هلا تعطيني إياه؟

- حسنًا كم ستدفعين؟

ضحك الجميع من هذا البازار، غير المتوقع.

صعدت المسنة إلى غرفة الجد لتنام وهي تنظر إلى الجد الذي قرر النوم في الأسفل أمام التلفاز، نظر أليكس إلى الجد:

- أخبرني الآن يا محبوب النساء، ماذا بعد؟

- ماذا تقصد يا أليكس؟

- لقد انتهيت من معلمي الروحي الغريب وكذلك من معلمتي الهندية، ماذا بعد في رأيك؟

- آه، أعتقد أنه حان الوقت لتذهب إلى المملكة.

عدل أليكس من جلوسه بعد أن كان متكئًا حتى أصبح على حافة الكنبة، ووجّه نظهره إلى جده:

- ماذا تقصد بالضبط يا محبوب النساء؟

ابتسم الجد وقال هامسًا:

- هل تعد جارتك هذه من النساء؟ إنها تُشبهك.

ابتسم أليكس:

- إنها أصغر منك يا جدي. لكن أخبرني الآن ما هذه المملكة؟

- إنها مملكة يعيش فيها عظماء اللامادة، وهناك ستتعرف على أعظم كائن في اللامادة.

- وما هو؟

- إنه ملك هذه المملكة، وأعظم ما في هذا الوجود من قوة لا مادية ويحكم كل اللامادة في الكون.

- هل هو إله هذه الكون كله؟

- لا يا أليكس، إنه ملك هذه المملكة فحسب.

- من هو هذا يا جدي؟

- ستعرف ذلك بنفسك.

- ومتى سأذهب؟

- هو من يُحدِّد الوقت.

= من مذكرات أليكس عن شبابه =

سمعت فانيسيا صوت العميلة ليسا يصدر من الهاتف الجوال الذي بيدها تصيح:

- العميلة ليسا من المباحث الجنائية، ألوو.

- آه، آه، أنا فانيسيا مربية للأطفال أعمل في بيت السيد أليكس بارتونس، وأريد أن أخبركِ أن رجالاً مسلحين داهموا المنزل وخطفوا أليكس، وأنا وطفلتاه مختبئات في المنزل.

- حسنًا، ابقي في مكانك، أصبحتُ على مقربة من المنزل، انتظري في مكانك.

كانت العميلة ليسا على المنعطف الذي يؤدي إلى منزل أليكس حسب الإحداثيات التي أرسلها، وعندما انعطفت شاهدت سيارتي جيب سوداوين تغادران المكان. أوقفت سيارتها على جانب الطريق وتحسَّست مسدسها على حزام خصرها، مرَّتْ أول سيارة من جانبها بشكل طبيعي، حاولت أن ترى من في داخلها لكن زجاج السيارة كان من الزجاج الملون المعتم، فلم تستطع الرؤية، ثم أتت السيارة الثانية ولكنها توقفت فجأة بجانب سيارة ليسا ثم نزلت منها امرأة تبدو بغاية الرقة والجمال والبراءة واتجهت إلى ليسا، التي كانت تلقمُ مسدسها، وطرقت المرأة الشابة على شباك السيارة فأنزلت ليسا الزجاج وهي تمسك بمسدسها، تحدثت الفتاة

بكل طلاقة ولطافة وبلكنة أمريكية:

- مرحبًا... نحن متوجهون لبلدة «جابيرو» ولكن يبدو أننا قد تُهنا ودخلنا في هذا الطريق غير النافذ والذي ينتهي بمنزل، هل يمكن من فضلك أن تدلينا على الطريق الصحيح؟

لم يكن لدى ليسا دليل بأن هؤلاء من العصابة، فربما يكونوا قد تاهوا بالفعل، إضافة إلى أنها لا تستطيع احتجازهم لوحدها في حال كانوا منها، لذلك أجابت بكل تهذيب:

- بكل سرور، في الحقيقة لقد ارتكبتم خطأً بسيطًا، فكان يجب ألا تدخلوا في هذا المنعطف بل أن تستمروا في السير على الطريق العريض باتجاه الشمال، وبعد عشرين كيلو متر تقريبًا ستصلون إلى وجهتكم.

ابتسمت المرأة وأومأت بجفونها بلُطف:

- شكرًا جزيلاً لكِ.

وهمَّت بالمغادرة، وقبل أن تغادر سقط زر من جاكيتها في سيارة ليسا.

قالت ليسا:

- زر جاكيتك سقط.

- لا يهم، شكرًا لكِ مرة ثانية.

وركبت سيارتها وبدأت بالمغادرة.

ثم مرَّت سيارة ثالثة بمحاذاتها بينما كانت تقوم بتسجيل أرقام السيارات على جوالها بالنظر إلى المرآة، وفجأة شعرت بالدوار وهي تراقب السيارات تبتعد، فقامت بالتقاط الزر

الذي سقط من المرأة والذي كان بحجم العُملة النقدية فبدا وكأنه يصدر غازًا بدون رائحة، وأدركت ذلك من اصطدام الغاز بأصابعها، علمت ليسا بأنه يصدر غاز مخدرًا، فقامت برميه من النافذة وأدارت محرك السيارة ولكنها شعرت بالدوار يزداد وعدم القدرة على الحركة، وارتخاء في كافة أعضاء جسدها، ثم رأت إحدى السيارة السوداء تعود أعقابها، وشعرت برجل يفتح باب سيارتها ويسحبها وهي لا تقوى على أي حركة أو مقاومة وبعدها ذهبت في نوم عميق.

= من مذكرات أليكس في بداية شبابه =

السكون يُغلِّف المكان بالكامل وكأنك في قعر بئر، والضباب يملأ الأرجاء، أما أليكس فقد كان روحًا هائمة خارج جسده في منتصف طريق أبيض عريض يغطيه الضباب، تابع السير دون أن يرى ما أمامه سوى لمسافة قصيرة وبعد حين انقشع الضباب لتظهر بوابة عظيمة يقف على جانبيها أسدان كبيران، شعر وكأنه كائن صغير بالنسبة لحجم البوابة والأسدين، كانت البوابة مليئة بالنقوش والرسومات والرموز، وكانت هذه الرسوم لا تنتمي لحضارة ما بل بدت وكأنها خليط من جميع الحضارات. ثم انفتحت البوابة لتطل على ساحة كبيرة مُغطاة بالرخام.

وبعد أن تجاوز الساحة التي تحتوي على نقوش ورسومات على الرخام لم يستطع تفسيرها، ظهر أمامه حقل قمح كبير مليء بسنابل القمح الذهبية على مسافة شاسعة، نظر إلى أقدامه كانتا حافيتين، ورأى طريقًا ترابيًا طويلاً بعرض نصف متر على طول حقل القمح الذهبي مفروشًا بالحصى الصغيرة البيضاء، وعليه آثار أقدام خيول (إنها فترة الحصاد) قال في نفسه.

ثم بدأ يمشي بين سنابل القمح ويلمس أطراف السنابل بيديه، شعر براحةٍ وسعادةٍ لم يشعر بهما من قبل، ثم رأى من

بعيد كوخًا يتصاعد من مدخنته دخان، ويظهر من النوافذ ضوء النار الأصفر، توجه نحوه حتى وصله ودخل إليه فوجد سيدة تشع بالبياض وكأنها ضوء الصباح، كانت تُعدّ الطعام، فالتفتت إليه ودعته ليأكل معها دون أن تنطق بكلمة، وكأنهما يعرفان بعضهما منذ زمن بعيد، وبعد الطعام غادر المنزل دون وداع، ليتجه جنوبًا.

عبَرَ وديانَ سحيقةً رائعةَ الجمال، مليئةً بالمياه والأشجار، ثم مَرَّ بين تلتين كبيرتين ليرى بعد أن تجاوزهما بلدة كبيرة تتسلق هضبة وجميع بيتوها بيضاء، وفي مكانٍ عالٍ منها بدا هيكل كبير من الذهب، فتوجه إلى هناك ليرى الأرواح في كل مكان، كانت بيضاء ومتحابة ويبدو أنها مدركةً لكل شيء حولها، كان يشعر بالمحبة عندما تنظر إليه أي روح، ثم رأى رجلاً أو شيئًا أشبه بالرجل يقف على جسرٍ صغيرٍ تعبر من تحته المياه، توجه أليكس إليه، ليسأله أين يجد الملك، ولكنه لم يقُل شيئًا، بينما الروح الوقورة والمتزنة رفعت يدها لتدله على بناء مستطيل كبير في أعلى القرية. ودون كلام فهم أليكس أن هذا الشخص هو مستشار ذو مكانة عالية في المملكة.

توجَّه أليكس مباشرةً باتجاه القصر صاعدًا أدراجًا وطُرقًا ضيقة تتجه للأعلى، وكان فضوله يزداد لملاقاة هذا الملك والتعُرف عليه.

= عبد الرحمن =

كان عبد الرحمن يقوم بشواء لحم الكلب على قِطع الحطب المتجمرة، بعد أن وعده أليكس بأن يخبره بسبب عدم مشاركته بالعمل، بعد أن يأكل.

- هيا أخبرني لماذا لم تساعدني بشيء، لماذا لم تسلخ الكلب أو تحمل الحطب؟

تذكَّر عبد الرحمن يديه المرتجفتين المليئتين بالدماء، وقلبه المنفطر عندما كان يسلخ الكلب، ولكن الجوع كان قد بلغ منه مبلغًا، فهو ممتلئ الجسم ويتناول عادةً الكثير من الخُبز والطعام، ثم بدأ بتناول قطعة لحم بدت بأنها قد نضجت وأخذ يلوكها...

- هل تعلم لماذا لم أساعدك يا عبد الرحمن؟
- لا، لا أعلم.
- خُذ نفسًا عميقًا لأقول لك ولا تتفاجأ.

قسم عبد الرحمن قطعة ثانية من لحم الكلب ووضعها في فمه:

- تفضَّل أنا جاهز وهادئ ومنصت.
- لأني لست موجودًا.

حدَّق عبد الرحمن في أليكس باستغراب وبلع اللقمة التي

كانت في فمه دون أن يلوكها:

- وكيف ذلك؟

- أنت تراني بعقلك وليس لي وجود مادي بجوارك.

شعر عبد الرحمن ببعض الارتباك:

- كيف ذلك يا أليكس؟ أنت رفيقي منذ أن غادرنا.

- لم تكن المسافة كلها يا عبد الرحمن، ففي المشفى الميداني عرض علي الطبيب أن أساعدهم وكان هنالك الكثير من الجرحى الذين لم أقدر على تركهم، لذلك وافقت أن أبقى وطلبت منه مسدسًا ووضعته في حقيبتك.

كان أليكس يتكلم وشفتاه مغلقتان.

- ماذا تقول هل تقصد بأنك الآن طيف؟

- نعم.

اندفع عبد باتجاه أليكس فدخلت يده بجسمه، ثم عاد للجلوس وبدأ بفرك عينيه وينظر ليرى أليكس صورة تذهب وتعود...

- أنت تراني بعقلك وليس بعينيك يا عبد الرحمن.

- بعد رفقتك هل يدرك الفرد ما أمامه وما في عقله؟! لقد أوصلتني للجنون يا أليكس.

ثم أشاح عينيه عن أليكس وأعادها، فبدأت صورته تختفي وتعود. استغرب عبد الرحمن كيف لم ينتبه لهذا الأمر مع أنه رآه سابقًا، ولكنه رد ذلك إلى تعبه وإرهاقه.

شعر بوحدة عارمة عندما أدرك أن أليكس مجرد وهم وطيف وهو يزوره بجزئه اللامادي كما كان يروي في مذكراته، وهو لوحده في هذه الصحراء بجانب نُقطة عسكرية تُطلق الصواريخ على مدينته، ويأكل لحم كلب ميت.

شعر بخوف وإحباط شديدين:

- ما الذي يحدث معي؟ كيف سأكمل الطريق لوحدي الآن يا أليكس؟

- أنت لست وحدك، سأبقى معك.

- ولكنك طيف.

- أنت لا تحتاج لأكثر من طيف يساعدك لتتجاوز كل هذا، فليس عليك سوى أن تكمل ما بدأناه.

بلع عبد الرحمن لعابه وبقي صامتًا يحرِّك رأسه يمينًا أو شمالاً بين الحين والآخر.

= من مذكرات أليكس في بداية شبابه =

تابع أليكس مسيره باتجاه القصر وشعر بتعب من صعود الأدراج والطرق الشاقولية، وتوقف ليتمالك أنفاسه، فرأى رجلاً طويلاً لديه قرنان أبيضان قصيران وأُذنان أطول من أُذني الإنسان، ويقف أمام أحد البيوت البيضاء. أومأ لأليكس داعيًا إياه للدخول، فاستجاب ودخل إلى بيته وجلسا على طاولة رخامية، ثم وضع أمامه كتابًا يحتوي على العديد من الرموز، حدَّق أليكس به بينما ذو القرنين يُقلِّب الصفحات، وبعد أن أنهى الكتاب وجد أليكس نفسه خارج البيت فورًا، فنظر حوله ثم تابع طريقه باتجاه القصر.

لم يبقَ على أليكس سوى أن يبلغ قصر الملك، بدا القصر وكأنه مصنوع من النور الخالص، أعمدة عملاقة تحيط بالبناء المستطيل الضخم. وصل إلى الباب الذهبي العملاق والذي أصدر طقة مهيبة عند فتحه، ليجد رجلاً وكأنه مصنوع من النور؛ يومئ إليه، وفهم من إيمائه بأنه سيرافقه إلى الملك.

كانت القاعة كبيرة وضخمة للغاية، وكل ما فيها من أعمدة وجدران بدا وكأنه مصنوع من الذهب الخالص المنير، ولم يعرف إن كان هذا ذهبًا أم نورًا، فهو أشد من الذهب لمعانًا، باستثناء الأرض التي بدت مصنوعة من الرخام الأبيض الموشح بخطوط رمادية، وكانت هذه الخطوط الرمادية

تتحرك ببطء، فكأن هذا الرخام زجاج وتحته سائل ما، وفي نهاية الصالة دَرَج طويل ينتهي بعرش، ولكن أليكس لا يزال بعيدًا عنه ليستطيع إدراك من يجلس عليه.

أثناء اقترابه كان هنالك مخلوقات نورانية تجلس على كراسٍ كبيرةٍ ذهبيةٍ مُشعةٍ على جهتي الممر المؤدي إلى الدرج الذي يصعد إلى العرش وكانت هذه المخلوقات تنظر إلى أليكس الذي شعر بمهابة كبيرة وطاقة غريبة في المكان، ولم يكن مهتمًا سوى برؤيته للملك، وكان يُفكِّر: (كيف شكله؟ كيف يتكلم؟ من هو؟ هل هو متكبِّر؟).

نظر إلى الأعلى وهو يخطو فرأى الملك، ولم يكن واضحًا بعد لشدة ارتفاع الأدراج، ولكن الملك انتصب واقفًا وكان يرتدي ثوبًا طويلاً عليه أصداف مصنوعة من شيء يبدو كالذهب ولكنه منير أكثر من الذهب وكأنه نور الشمس، ولكن يمكن أن تتمعن به دون انزعاج، وكان يحمل صولجان.

توقَّف أليكس وأراد أن يقول: (مولاي) بصوت مرتفع، ولكنه قال بدلاً عنها: (مرحبًا) بنبرة عالية، فرأى الملك ينزل على الأدراج الطويلة وكأنه يطير فوقها ويتجه نحوه، وعوضًا عن الشعور بالخوف والرهبة، والشعور بكبرياء هذا الملك وعنفوانه وعنجهيته، فقد أحسَّ بمشاعر غريبة ومختلفة عن ذلك تمامًا، وهي راحة وسعادة ومودة لم يشعر بها قط ومن دون أي رهبة أو مهابة، فقد كان الملك متواضعًا وذا حضورٍ لطيفٍ، فشعر وكأنه أحد أفراد عائلته، كأنه والدته

ووالده، أو خليط منهما، أراد أن يضمه ولا يتركه أبدًا، ولكنه تمالك نفسه.

وقف الملك أمام أليكس، وكان أطول منه بكثير، ولكنه كان يقرِّب وجهه من أليكس عندما يتكلم معه. دار حديث طويل بينهما، ولكن أليكس لم يتذكر كل ذلك الحديث، لأنه لم يحتوِ على أفكار بقدر احتوائه على أحاسيس، فكان الحديث يدخل إلى العقل سهلاً سلسًا ويندمج فيه وكأنه لا شيء تمامًا، وإذا ما انتقلت من حديث لآخر تنسى ما قيل توًّا بعد هذا الانتقال، وكأنك تُولد صافيًا منصتًا بعد كل جملة يقولها الملك، ولكنه تذكّر بأن الملك أمسكه من يده وقاده إلى شرفة تابعة للقصر وكان يظهر من هذه الشرفة ميزان كبير في الأفق وكأنه جبلان كبيران، كان يشبه الميزان الذي يرمز للعدالة لدى القضاة، وكان نصفه أبيض ناصع ومشع ونصفه الآخر أسود قاتم، وسواده وبياضه مكونان من السوائل، وهذا السائلان يتحركان، فيدخل الأسود في الأبيض، والأبيض في الأسود، ولكن يبقى الأبيض أبيضَ والأسود أسودَ.

أشار الملك إلى الميزان:

- هل تعرف ما هذا يا أليكس؟

- لا، لا أعرف، هل هذا ميزان العدالة؟

- بالضبط، إنه ميزان العدالة الكونية. الخير يجب أن يعادل الشر، والظلام يعادل النور.

- لماذا أيها الملك؟ لماذا لا يكون كله أبيض؟ لماذا لا يزول الشر بالمطلق ويبقى الخير فقط؟

- لعدة أسباب يا أليكس، أهمها هو استمرار هذه الآلة، فلاستمرارها لا بد أن يبقى الخير والشر متساويين تمامًا في الوجود وجميع المتناقضات الأخرى.

- ما الذي تصنعه هذه الآلة بالتحديد؟

- إنها لتصنعك أنت.

حدَّق أليكس في الملك مستغربًا:

- لم أفهم.

- الصعاب والمتاعب هي من تصنع الأشخاص الأنقياء مثلك، ومن دون عدالة الكون لن يكون هنالك أمثالك، فهذه الآلة الكونية تعمل زمنًا طويلاً لتنتج شخصًا واحدًا مثلك.

- إذًا فلا حاجة ليناضل الإنسان ضد الظلم طالما أن الظلم ضروري وسيبقى مساويًا للخير مهما حاربناه.

- لا، فكلما حارب الإنسان الظلم انتقل الظلم من مستوى مادي لآخر أقل مادية، فيزول الشكل المادي للظلم ويصبح أقل وجودًا وينتقل إلى المستوى النفسي ليعادل الميزان.

- وما الفائدة من ذلك؟ فالميزان سيبقى متساويًا وسيبقى البشر يعانون.

- صحيح، ولكن كلما انتقل الظلم من مستوى إلى آخر زاد إنتاج هذه الآلة لأشخاص مثلك... هل تفهم ما أقول؟

- أحاول.

- الصعاب هي التي تقضي عليك أو تصنع منك عظيمًا، لذلك يجب أن تمر بثلاث مراحل يا أليكس، مرحلة تتقبل فيها

المعاناة والصعاب، والمرحلة الثانية ستحاول تجنبها والابتعاد عنها، والمرحلة الثالثة ستدرك أهمية هذه الصعاب في تنقيتك، وعندها ستبحث عن الصعاب وستتقبلها وتواجهها بكل رحابة صدر، ولكن يجب أن تمر بهذه المراحل بالتسلسل ولا تتجاوز إحداها.

– آه، هل ما تقوله أسطورة أو شيئًا من هذا القبيل؟

– نعم، ولكن ليس بالنسبة لك.

عندما أنهى الملك هذه العبارة شعر أليكس بدوامة وبأنه يغادر القصر ودون وداع، طائرًا بسرعة رهيبة، ورأى القصر من الأعلى، ثم القرية البيضاء، ثم مَرَّ بين الجبلين، ثم فوق الكوخ وحقل القمح، ثم تجاوز الباب الكبير والأسدين... وبعد ذلك اندفع داخل جسده على الأريكة التي يجلس عليها، واستيقظ مذعورًا، فانقلبت الاريكة التي كان ينام عليها، ثم انتصب واقفًا وأعادها إلى وضعها، وهو يشعر بطاقة هائلة في داخله، وفتح نافذة غرفته في الطابق العلوي من منزل جده، واستنشق الهواء، ثم رمى نفسه من النافذة وتدحرج على الأرض، فلقد تدَّرب على هذه الحركة برياضة (الووشو) الصينية التي علَّمها له جده منذ صغره، وأخذ يركض في الغابة وفي داخله طاقة غريبة وأخذ يصيح بأعلى صوته:

– أين أنتِ يا متاعب؟ أريد أن أصبح أقوى وأنقى، أين أنتِ؟

= عبد الرحمن =

ها هو عبد الرحمن يسير ببُطءٍ جاثيًا على ركبتيه باتجاه صهريج المياه ويحمل قنينة ماء فارغة بيده متبِّعًا تعليمات طيف أليكس بحيث يسير بشكل مستقيم مع الصهريج، جاعلاً خط الرؤية بينه وبين الجنود محجوبًا بعربة الصهريج، وكان يتمتم: (تبًا، أنا لوحدي في هذه الصحراء، وأليكس مجرد طيف، تبًّا لحظي العاثر، لعن الله الرئيس والمحاماة والعدل والحياة، لعن الله روسيا وإيران وأمريكا وبريطانيا وجميع دول العالم، إننا نموت دون أن يفعلوا شيئًا، لعن الله القناني الفارغة، لعن الله أليكس).

وبينما يوزع عبد الرحمن لعناته كانت أصوات الانفجارات الناتجة عن انطلاق الصواريخ تدوي في كل الأرجاء، والتي تكاد تصم الآذان.

وصل إلى صنبور المياه، فأداره وشرب منه وغسل رأسه، وبدأ بملأ عبوة المياه، وعندها سمع أصوات جنديين يقتربان وهما يتكلمان ويسبان لشيء ما، عندها شعر بخوف وحيرة شديدين. رمى نفسه تحت صهريج المياه، وأخذ يراقب أقدام الجنديين يتقدمان لشرب الماء، كان صوت إطلاق الصواريخ وإطلاق النار يملأ المكان بين الحين والآخر، وكانت معدته الكبيرة تتدلى على الحجارة من بين أزار قميصه المحلولة ويظهر جرحه الذي

جفَّ نسبيًا. كان عبد الرحمن متأكد بأنهم سيريانه ويقبضان عليه، فإذا أنزل أحدهما رأسه قليلاً وهو يشرب المياه سيراه، وعندها لن يكون لديه أي مهرب وسوف يُقتَل بالرصاص، هذا إذا لم يذق أصناف التعذيب قبل ذلك، فقد ملأت الشائعات المدينة منذ أسبوع بأنه النقطة العسكرية في هذه الجهة تضم أشخاصًا موتورين، أي أشخاصٍ من الأمن قُتِل لهم أقارب في مدينة «داريا» نتيجة المقاومة الشعبية، وهم يُنزلون الأهالي الهاربين من الحافلات ويقتلون الرجال أمام أعين زوجاتهم وأطفالهم، ويرسلون من بقي حيًّا ليعيشوا مع ذكرياتهم بما تبقى لهم من حياة، فقد كان زمن عبد الرحمن زمن نوعين من الإرهاب: الأول هو: إرهاب الدولة، والثاني هو إرهاب الذين تدعمهم الدولة وغيرها من الدول، وسيكون الموت بالنسبة له أرحم الخيارات التي يتخذها الجنود، فإذا قرر الجنود عدم قتله واستبدلوا ذلك بإرساله إلى إحدى أفرع الأمن أو السجون التي تحت الأرض أو إلى سجن «صيدنايا» سيتمنى الموت ألف مرة على ذلك بسبب ما يلقى الناس هناك من صنوف التعذيب.

بدأت هذه الأفكار تتردد في ذهنه، تذكَّر رواية «القوقعة» لمصطفى خليفة، التي قرأها عن سجن «تدمر»، وبدأ العرق يتصبب من جبينه.

انحنى أول جندي ليشرب، وشعر عبد الرحمن بأن فترة شُرب هذا الجندي هي أطول فترة مرَّت عليه في حياته، ثم ابتعد عن الصهريج دون أن يلاحظ شيئًا.

نظر عبد باتجاه الحاجز ليرى كومة من الجُثث المرمية فوق بعضها وهي جثث الأهالي الهاربين، وبعضها جثث نساء وأطفال، كانت هذه الجثث توضع في هذا المكان ليتم نقلها فيما بعد إلى مقابر جماعية. أرجع عبد الرحمن عينيه باتجاه أقدام الجنود، فكان يشعر بالخوف وبأن روحه سوف تخرج لوحدها، وكان قلبه يدق بسرعة.

انحنى الجندي الثاني ليشرب، وأحسَّ عبد كما في المرة السابقة وكأن انحناءه دام عُمرًا كاملاً، وعندما انتهى؛ غادر الجنديان، المكان فشعر حينها بالراحة وتنفس الصعداء، ولكن راحته لم تدم طويلاً، فقد سمع خطوات جندي آخر يركض باتجاه الصهريج لكي يشرب، انحنى ليشرب، وقبل أن يرفع رأسه انتبه لرِجليّ عبد الرحمن، فجثا على ركبتيه فرأه وجهًا لوجه.

علم عبد الرحمن أن كل شيء قد انتهى، وأن أجله قد حان وستُرمى جُثته فوق تلك الجُثث المتكومة، ولكنه بذات الوقت شعر بسكينة عارمة ألمَّت به فجأة وسلَّم أمره إلى الله. وبينما ينظر الجندي إليه رفع عبد الرحمن أصبع سبابته وقال: (أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله).

استمر الجندي بتأمل عبد الرحمن، وكان الجندي صغير العمر، ويبدو أنه لا يتجاوز سِن الرشد، وكان نحيفًا، شديد السُّمرة، ويحمل بندقية كلاشنكوف بالكاد يقوى على رفعها بيده.

= من مذكرات أليكس في بداية شبابه =

استمر أليكس بالركض وهو يصيح: (أريد أن أُصبح أنقى، أين أنتِ يا متاعب؟ يحيا الملك العظيم». وبقي يركض حتى ابتعد عن المنزل.

خيَّم الظلام على الغابة، ولكنه لم يعد يأبه للظلام بعد أن كبُر، فهو يحفظ هذه الغابة عن ظهر قلب، فلم يعد يخاف من أصوات الثعالب البتَّة، ولكن هذه المرة سمع صوتًا مختلفًا عن كل تلك الأصوات، فقد سمع جلبة أشخاص وحديث أُناس، فأخذ يمشي بحذر باتجاههم ودون أن يصدر أي ضجة، ثم تلصَّص من خلف إحدى الأشجار ليرى أربعة أشخاص يقومون بحفر القبور وكانوا يضعون في أحدها جثة إنسان، ثم قاموا بطمرها ووضعوا فوقها جثة كنغر ثم طمروها أيضًا، ثم اتجهوا إلى الحفرة الثانية، فكانت كل حفرة تتسع إلى جثة إنسان وحيوان فوقه.

فكَّر أليكس في نفسه: (إنهم يفعلون ذلك لكي يخدعوا المباحث في حال اكتشفت المكان فهي ستجد جثة الكُنغر فلن تتابع في الحفر لتعثر على جثة الإنسان، إنها خدعة قذرة).

استمر بمراقبتهم. وبعدها أتى زعيمهم وقال: (هل أنهيتم العمل؟ يجب أن نذهب بسرعة، فجانيت ستأتي لزيارتي).

وهذه كانت أول مرة يرى فيها أليكس وجه تيمور، وأول مرة يسمع بأُذنه اسم من ستصبح زوجته «جانيت».

= عبد الرحمن =

كان عبد الرحمن ينظر إلى الجندي اليافع، والذي ظهرتْ على وجهه بعض ملامح الرحمة، وهو يتأمل جرح عبد الرحمن وكرشه المتدلي وثيابه المتسخة والممزقة...

فكَّر في نفسه: (هل يمكن أن يتركني أذهب؟).

قال له:

- هي، هي، هل أنت من دمشق؟ اسمع أنا محامٍ ومدني ولا شأن لي بالحرب.

ابتسم الجندي الغلام بسمة مقتضبة، وانتصب واقفًا، وأخذ يمشي ويلتف حول العربة، وعبد الرحمن يراقب خطواته، وعندما وصل إلى الجهة الثانية من العربة، صرخ قائلاً:

- تعالوا شاهدوا، لقد وجدتُ جرذًا يختبئ تحت الصهريج.

ثم انحنى وأمسك بقدم عبد الرحمن وسحبه بصعوبة وصاح:

- هذا أنا سأقتله بنفسي، إنه ذبيحتي أنا، وسأقتله بطريقتي.

= من مذكرات أليكس في بداية شبابه =

اقترب أليكس من شاحنة القتلة، بينما لا زالوا يُسوون سطح المقبرة، وبدأ يحاول حفظ رقم لوحة الشاحنة، ورغم أنه أصبح يحفظ الغابة جيدًا إلا أنه قام بالحفر على ساق إحدى الأشجار المحاذية للشارع لكي يُحدِّد مكان المقبرة، وعندها سمع صوت أقدام الرجال الخمسة يعودون... كان لديه القليل من الوقت ليتخذ قراره، فهل يعود للبيت؟ أم يصعد إلى عربة الشاحنة ليعرف أين يعيش هؤلاء المجرمين؟

اتخذ قراره بأن يرافقهم، ولكن الصعود إلى العربة الخلفية، فيه بعض المخاطرة، في حال صعد أحد الرجال فيها، لذلك انزلق تحت الشاحنة وتمسَّك بها من الأسفل، كان جسمه الرياضي يعطيه شعورًا بأنه يقدر على فعل أي شيء، هذا الشعور الذي كان يقوده إلى التهور دائمًا.

انطلقت السيارات التي أمام الشاحنة التي أقلعت ودارت أماكن عديدة في البلدة، وأليكس يراقب الطرقات والأماكن من الأسفل، حتى بدأوا بالتمهل أمام أحد المنازل، ثم دخلت الشاحنة إلى مرآب كبير، ونزل الرجال واتجهوا إلى الخارج.

ولكن حدث ما لم يتوقعه أليكس، فأثناء مغادرتهم من المرآب، كان باب المرآب الحديدي ينغلق خلفهم، ليُسجن أليكس في الداخل.

= عبد الرحمن =

صاح عبد الرحمن بالجندي الذي يجرّه من قدمه:

- اتركني، أنا مدني وليس لي شأن بالحرب، أنا مُحامٍ من داريا.

- مُحامٍ أم طبيب أم مهندس أم جرذ، فالموت لا يعتني بالمناصب.

- كان عبد الرحمن ثقيلاً على الجندي اليافع فكان يجره مترًا أو مترين ثم يتوقف قليلاً، ثم يتابع السحب والغبار يتصاعد من حوله وأصوات الانفجارات تملأ المكان، والجندي يصرخ بأعلى صوته: (تعالوا شاهدوا ماذا وجدت؟ إنه جرذ لا يزال حيًّا).

في هذه الأثناء، وبينما عبد الرحمن مستلقيًا على الأرض والغبار حوله ويشعر باليأس، رأى أليكس يسير بجانبه بهدوء، صرخ بأعلى صوته: (ساعدني يا أليكس). ابتسم أليكس وبدا غير مُبالٍ، مما أغضبه فقال: (أجِب يا أليكس، أنت تُغضبني).

كان الجندي يسمع عبد الرحمن يصيح بعبارة «أليكس» وكلام آخر ولكنه لا يفهم مع مَن يتحدث، فيتابع جرَّه وهو يقول في نفسه: (إن رهبة الموت تجعل الجرذ مجنونًا).

أجاب أليكس: «الغضب هو كل ما تحتاجه الآن».

فكَّر عبد الرحمن بكلام أليكس والذي بدا هادئًا ويمشي بجوارهما وكأنه يمشي على شاطئ البحر، والجندي ينادي على زملائه، لكنهم لا يسمعونه بسبب أصوات إطلاق الصواريخ.

سحب عبد الرحمن رِجله التي يمسكها الجندي باتجاه جسده، فهوى الجندي الغلام فوقه، ثم انقلب ليصبح الجندي أسفله، وهوى برأسه الكبير على وجهه، فبدا الجندي بعد هذه الضربة لا يرى ولا يعرف كيف يتصرف.

أمسك عبد الرحمن حجرًا كان بجواره وضربه على رأسه عدة مرات حتى سكن جسده، ثم توقف عن الضرب وهو يلهث. نظر خلفه ليجد أن أحدًا لم يلاحظ كل ما حدث، وخصوصًا بوجود ما يشبه التلة والجثث المتراكمة بين قاذفة الصواريخ وصهريج المياه.

كان طيف أليكس بجواره، والذي قال:

- الآن يجب أن.....

- توقَّف يا أليكس، لا تقُل شيئًا، سأتولى زمام الأمور.

وقف عبد الرحمن وكأنه شخص آخر قوي ومتوحش. أمسك البندقية وردم الدماء التي سالت من رأس الجندي، وأمسكه من قدمه وأخذ يجره باتجاه الصهريج، وعندما وصل حمله ورفعه ووضعه ممدًا على سطح الصهريج بحيث لا يمكن رؤيته بسهولة (هنا لن يجدوه بسرعة، ريثما نكون قد ابتعدنا أنا وأنت من هنا، أقصد أنا لوحدي).

ملأ عبوة المياه، وعلَّق بندقية الجندي على كتفه، وأخذ

يمشي بسرعة في البادية وهو يقول: (لم أعد مُحاميًا، فمن الآن وصاعدًا قد أصبحتُ جنديًا مجنونًا إذا جاع أكل لحم الكلاب).

فيما طيف أليكس يراقبه مُمتعضًا.

= من مذكرات أليكس في بداية شبابه =

في وسط المرآب المُقفل، كان أليكس وحيدًا يُفكِّر بالمأزق الذى وضع نفسه به، فهو مسجون في مرآب يملكه مجرمون، دفنوا للتو خمس جثث أمام عينيه.

نظر حوله، كان الباب الحديدي مُقفلاً، وكان هنالك سلالم تصعد للأعلى، لتصل المرآب بالمنزل من الداخل. صعدها ببطء ودون أن يحدث أي ضجة، ليصل إلى مدخل يقود إلى صالة كبيرة تحتوي على أثاث فاخر باهظ الثمن، ويبدو بأن الصالة بكل محتوياتها وكسائها قد أُنفِق عليها ما لا يمكن تصوره من النقود لجعل ديكورها رائعًا بهذا الشكل.

وقف خلف الجدار وأخذ يسترق النظر إلى الداخل وهو يتأمل جمال وروعة كساء المنزل وأثاثه، وعندها سمع صوت فتاة تدخل وتتكلم مع تيمور بصوت ساحر: (لقد رأيت على يد أحد رجالك دماء). ضحك تيمور: (لا تقولي، جوني السمين، لا إنها ليست دماء بل هو لا يكف عن أكل البطاطا مع الكاتشب ليل نهار، سأعود لكِ يا حبيبتي بعد ثوانٍ).

سمع تيمور يُقبِّل الفتاة ويغادر، بينما أحسَّ بها تدخل إلى الصالة.

تنفس أليكس بعُمق وبدأ يتحرك ببطء ليسترق نظرة ويرى

إن كان بإمكانه المغادرة بطريقة ما، وعندما نظر إلى الداخل رأى ما لم يكن يتصوره، لقد كانت فتاة بمنتهى الجمال والأناقة ترتدي فستانًا أبيضَ جميلاً مليئًا بالورود الملونة، فأخذ ينظر إليها.

لم تكن تعلم بأن أحدًا يراقبها، لذلك كانت شاردة وتتمايل وترقص بشرود كطفلة، وتدندن أغنية، لم يكن أليكس قد سمعها في حياته.

لم يكن شكلها هو من لفت انتباهه وحسب، بل أيضًا شيء ما في داخلها، لقد رأى براءةً لم يرها في حياته، وشعر بصفاء روحها.

لم يستطع أن يتمالك نفسه وبقي ينظر إليها بتمعن، ولم يعد متخفيًا وراء الحائط، بل أصبح وجهه بالكامل ظاهرًا للعيان.

هذه كانت أول مرة يرى فيها أليكس جانيت.

= من مذكرات أليكس عن شبابه =

بدأت ليسا تفتح عينيها بصعوبة، وبالكاد ابتعد الجفنان عن بعضهما في عين واحدة فقط، فقد كان المخدر قويًّا، فرأت منظرًا مُشوشًا لأشخاص موثقين ومرميين على الأرض بجانبها.

بعد القليل من الوقت استطاعت أن تفتح عينيها بشكل كامل لتدرك بأنها مُوثقة في غرفة مُربَّعة لا تحوي سوى حفرة أو فجوة في منتصفها، وحولها شخصان موثقان ومرميان على الأرض مثلها.

حاولت أن تصرخ، ولكن فمها كان مُغلقًا بلاصق. حاولت أن تتحرك ولكنها لم تنجح، بسبب الأشرطة اللاصقة التي كانت مُوثقة بها، فأخذت تتمايل. تعرَّفتْ على الشخصين المحتجزين معها، إنهما أليكس وجانيت.

فجأة دخل مجموعة من الرجال لم تستطع أن ترى ملامحهم كونها مرمية على الأرض، فلم ترى سوى أقدامهم وأحذيتهم، ولكن مع ذلك كانت تجمع المعلومات في ذهنها، فبينما كان الرجال يضعون أحذيتهم أمام وجهها ويقفون منتظرين الأوامر، فإنها كانت تحفظ أنواع الأحذية التي يرتدونها وألوانها وأي تفاصيل أخرى في مشيتهم أو حركتهم.

ثم سمعت أحد الرجال يجرُّ كُرسيًا ذا أرجل حديدية على الأرض متقصدًا أن يصدر صوت صرير مزعج، فوضعها أمام المحتجزين وأعطى أمرًا للرجال الذين يقفون بالجوار لرفع المحتجزين، فرفعوهم وأسندوهم على الجدار، وعندها رأت ليسا تيمور يجلس على كرسي أمامهم مباشرةً.

رمق تيمور المحتجزين الثلاثة العاجزين عن الكلام والحركة، ثم قال:

- هل تعلمون معنى السماح لكم برؤية وجهي؟ سأجيبكم على هذا السؤال، فبالإضافة إلى كونه شرف عظيم لكم أن تروا وجهي، فلا بد أن تعلموا أيضًا، أنه لا يوجد من رأى وجهي وهو موثق، وبقي حيًّا، أخص بهذه المعلومة أنتِ أيتها الشرطية.

ثم وجَّه نظره إلى جانيت وأقطب وجهه ليبدو متأثرًا:

- لم أُحب فتاة مثل ما أحببتك يا جانيت، ولكنك فضَّلتِ هذا الضعيف علي، لقد أفسد هذا الشخص حياتنا كلها، كُنا سنتزوج لنعيش حياة الأثرياء، فلا ضير أن يتاجر الشخص بالمخدرات، فنحن نتاجر بها ولكننا لا نجبر أحدًا على شرائها، والدول والحكومات التي تدعي النزاهة وترفض الاتجار بالمخدرات ها هي تتاجر بدم شعوب أخرى من أجل المال، الأخلاق كذبة كبيرة يا جانيت فلا تلوميني. هل تعلمين لماذا يُسمح بتجارة التبغ ولا يُسمح بتجارة المخدرات؟ لأن المخدرات لا يمكن السيطرة على سوقها وزراعتها مثل الدخان، وهذا ليس قولي، هذا قول «تشومسكي»، أنا لا أحب كتاباته ولكني حفظت له هذه لأنها تتحدث عن مهنتي... على أي حال لقد

سمحت لكم أن تروا وجهي لأنه أخر شيء جميل سترونه في هذا العالم، وقد اخترت لكم ميتة بسيطة ولكنها صعبة أيضًا، هنا في وسط هذه الغرفة بئر سأرميكم به، وفي الساعات الأولى لن تشعروا بشيء سوى ببعض الازدحام، وبعد ذلك ستشعرون ببعض العطش، وفي اليوم الثاني وما بعده ستتضورون عطشًا وجوعًا حتى تموتوا وأنتم مبتسمون.

ابتسم، وأكمل:

- هل تعلمون؟ يُقال إن «هاني بعل» الذي غزا روما وعبر جبال الألب في العصور الغابرة وكاد أن يحتلها، كان يقود جيشًا ضخمًا إلى روما، فنفذ منهم الطعام، لذلك أمر رجاله بأكل جُثث الرجال الذين يموتون من جيشه بسبب الإرهاق والتعب، لا أعرف لماذا أتيت بهذه القصة ولكنها قد تكون مفيدة لكم في البئر، جرّبوها قد تنجح.

ثم اقترب من أُذن جانيت:

- لا تخافي على طفلتيكِ يا جانيت، فأنا لست متوحشًا، فسأبحث عنهما وأرسلهما إليكما لكي لا تشتاقان إليهما في الموت، وسأقتلهما بذات الطريقة، فهي طريقتي المفضلة.

فتحت جانيت عينيها على وسعهما وبشدة وحملقت به، وبدأت تأن وتتحرك بغضب وهي موثقة وكأنها تريد أن تقول له شيئًا ما حول الطفلتين.

أومأ لرجاله الذين قاموا بحمل جانيت وجعلها تمسك بحبل مُتدلٍ، وأنزلوها إلى أسفل البئر، الذي كان بعُمق خمسة

أمتار، وكذلك فعلوا بليسا وأليكس، ليجد الثلاثة أنفسهم متلاصقين في قعر البئر ينظرون في أعين بعضهم وأياديهم وأرجلهم موثقة وأفواههم مكمومة بلاصق مطاطي.

ثم سمعوا خطوات الرجال في الخارج يغادرون المكان.

= من مذكرات أليكس في بداية شبابه =

لم يشعر أليكس بمشاعر حُب تجاه أي فتاة منذ أن تُوفيت ليزا، لكنه الآن شعر بالحب يتدَّفق إلى قلبه دون استئذان وهو يسترق النظر إلى جانيت، وقال في نفسه: (ما هذا الملاك الذي يعيش في هذا البيت الذي سُجِنت فيه بالصدفة؟)

كان يراقبها وهي تتمايل وترقص بخفة ولم يستطع أن يبقى متخفيًا بل إن وجهه كاملاً تجاوز الحائط وهو يراقبها (إنها فراشة). وجانيت كانت تبدو في منتهى الفرح والسعادة.

بعدها دخل تيمور إلى المنزل، فأعاد أليكس رأسه إلى خلف الجدار. قام تيمور بضم جانيت وقادها إلى شرفة المنزل وهما يتهامسان ويضحكان، فتسلل أليكس وخرج من الشرفة الثانية للمنزل وتجاوز الحديقة الخارجية وقفز عن السور، ثم أخذ يركض في الغابة عائدًا إلى منزله وهو لا يُفكِّر سوى بهذه الملاك التي رآها بالصدفة بعد مشاهدته لجريمة إخفاء الجُثث مباشرةً.

عندما وصل إلى البيت استمر خيال جانيت يرافقه فحاول النوم ولكنه لم يستطع، حيث كان يتذكر القبور والجثث وجثث الكنغر، ثم ترتسم في عقله صورة جانيت، فقد شعر منذ أن نظر إليها بأن رابطًا ما يجمعهما.

= من مذكرات أليكس عن شبابه =

كان كل من أليكس وجانيت وليسا ينظرون لبعضهم في قعر البئر، وفجأة أخذت ليسا نفسًا عميقًا ورفعت يديها الموثقتين وبدأت بقطع أزرار بزة الشرطة، ثم بدأت بتحريك حمالة الصدر خاصتها وكأنها تريد أن تُخرج شيئًا منها، ثم نظرت إلى أليكس وغمزته بحركة صبيانية وحركة رأسها وكأنها تقول (صدري جميل أليس كذلك؟). ثم تابعت بمحاولتها لانتزاع الشيء الذي تُخبِّئه داخل حمالة الصدر.

نظرت جانيت إلى أليكس الذي غيَّر اتجاه نظرات عينيه عن ليسا وبدا عليه الخجل قليلاً، فطوال عمره لم ينتصر على الخجل بشكل كامل، والذي رافقه منذ طفولته وهو يشعر بأنه محظوظ بالمواقف المحرجة وكأن القدر يحب أن يراه خجلاً.

نزعت ليسا شَفرة موضوعة في إحدى زوايا حمالة الصدر، ثم بدأت بقطع اللاصق الذي يربط يديها ببعضهما، فحرَّرت يديها ثم رجليها وأزالت اللاصق عن فمها، وحرَّرت أيدي وأرجُل كل من أليكس وجانيت، ثم أزالت اللاصق عنهما وهي تومئ لهما بألا يتكلما أو يصدرا أي صوت، ثم قامت بفك حمالة صدرها بالكامل، وأخذت تبحث عن شيء آخر فيها.

ازداد احمرار وجه أليكس وتمنى لو أن أرض البئر تنشق وتبتلعه ولا تراه جانيت خجلاً لهذه الدرجة.

همست جانيت وهي تنظر إلى ما تبحث عنه ليسا:

– لماذا لا تُخبِّئين الأشياء سوى في حمالة الصدر؟

أجابت ليسا همسًا أيضًا:

– إنه المكان الوحيد الذي لا يتدخل به الرجال إلا عندما نسمح لهم.

سحبت من حمالة الصدر شريحة إلكترونية مرنة، عليها ما يُشبه أزرار المحمول وشاشة إلكترونية صغيرة، سأل أليكس:

– ما هذا؟

– إنه خليوي مرن.

وأخذت تحاول الاتصال.

– إنه لا يتصل فتغطية الشبكة سيئة في قعر البئر. يجب أن ترفعني يا أليكس إلى أعلى نقطة نستطيع أن نصل إليها، علَّنا نجد تغطية للشبكة.

كتبت ليسا عدة رسائل إلى قسم الشرطة، وبدأ أليكس برفعها إلى الأعلى من رجليها، بينما ليسا تهمس له من الأعلى:

– ارفعني جيدًا يا أليكس، لا تكُن خجولاً.

رفعها بقوة حتى تمكنت من وضع قدميها على كتفيه والوقوف، وتمنى لو أنها تعمل دون تعليقاتها السخيفة.

استطاعت ليسا إرسال الرسائل، ثم نظرت إلى أليكس وجانيت مبتسمة، واللذين كانا ينظران إليها من الأسفل ويران وجهها المبتسم من بين ثدييها...

– لقد أرسلت الرسائل وتمَّ الاستلام.

= من مذكرات أليكس في بداية شبابه =

استلقى أليكس على الأريكة، واسترخى مغمض العينين قاصدًا أن يغادر جسده ويزور تلك الفتاة التي أخذت لُبه ورآها في منزل المجرم وقال في نفسه: (ماذا كان يناديها؟؟؟؟ نعم، جانيت يا له من اسم رائع). ثم أخذ يغادر جسده بهدوء.

تفاجأ بأنه انتقل إلى مكان آخر غير الذي كان يقصده ولم يرَ جانيت، فقد كان المكان مليئًا بالأضواء والأنوار وكأنه يقف في منتصف الشمس، ثم رأى سيدة مصنوعة من نور خالص تقف أمامه مباشرةً فقال:

- من أنتِ؟ لا أريد أن آتي إلى هنا، أريد الذهاب لمكان آخر.

هناك من يجب أن تقابله.

- مَن؟

- ستعرف ذلك لاحقًا.

اصطحبته هذه السيدة من يده وأخذته إلى المملكة التي زارها سابقًا، ولكنه رآها هذه المرة بشكل مختلف، كونه كان مُحلِّقًا على مستوى عالٍ يسمح له برؤية عمومية للمكان، فكانت تتكون من عدة طوبق أعلاها قصر الملك الذي زاره مؤخرًا، وهو أشد الأنوار سطوعًا، أما الطبقات التي تحته فتضم غابات وأراضي وأشجار، وهي أقل نورًا من القصر،

لكنها ساطعة أيضًا، والطبقات التي تحت الغابة متدرجة في النور، وتنتهي في الأسفل السحيق، بطبقة سوداء داكنة، حدَّث نفسه: (المملكة تبدو كمارد جبار أو كحدائق معلقة فوق بعضها من أسفل الأرض إلى أعلى السماء، تبدأ من الظلام وتصل إلى قمة النور).

هبط أليكس في الغابة التي تقع أسفل القصر في مرج أخضر وكأنه ملعب غولف كبير وتحيط به الأشجار بشكل دائري، وعندما وصلت أقدامه إلى الأرض وجد مُقابله سيدة أخرى مصنوعة من نور خالص وحولها حارستان من النور أيضًا، ولكن لا يرقى نورهما لنورها، اقتربتْ مبتسمة من أليكس الذي لم يستطع مواجهة موجة الخجل التي اجتاحته عندما رأى جمال هذه الفتاة الذي يوشك أن يبلغ الكمال، فلا يمكن لأي شاب أن يراها دون أن يحبها، ليس لأنها جميلة ومن نور فحسب، بل لأنها تدخل إلى روح الناظر ويشعر بأنه يعرفها ويحبها من قبل، بل إنه يحبها منذ فجر حياته ويبحث في كل النساء عنها هي بالتحديد. هذا ما كان يجول في خاطرهِ من أفكار.

نادت باسمه بصوت عذب: (أليكس). وعندما تلفظت بهذه الكلمة وجد نفسه وإياها والحارستين قد انتقلوا فجأة إلى داخل القصر الملكي. وفي إحدى الحجرات الضخمة التي تضم آلاف الأبواب:

- أليكس سأُعرِّفك بنفسي، أنا.......

أخبرته باسمها، ولكن اسمها كان طويلاً وبلغة غريبة، وأليكس كان منصتًا إلى عذوبة صوتها أكثر من مغزى كلامها .

– أمَّا عن عملي: فأنا المسؤولة عن الحب بين البشر كافة، ولدي ملايين المساعدين.

قال أليكس وهو لا يزال يعاني من الخجل:

– حسنًا.

– أوزِّع الحب على من يستحقه فقط.

– أجل.

– وهذا هو الوقت المناسب لتتعرف على هذا الأمر.

ثم فُتِح لهما أحد الأبواب ودخلاه بلمح البصر، ليجد أليكس نفسه وإياها يسبحان في فراغ كبير وتحتهم الملايين من البشر وكان كل بشريٍّ مستلقٍ على سرير، بعضهم مستيقظ وبعضهم نائم...

– ما هذا؟!

– النوم في السرير يا أليكس هو تعبير عن الحالة العاطفية لكل إنسان على سطح الأرض، فهو يرمز إلى الشعور بالوحدة أو الشعور بالحب، فكل شخص ينام على سرير لوحده، فهذا لم يستحق الحب بعد.

نظر أليكس إلى أجساد البشر تحته، كان معظمهم ينام لوحده ينظر في الفراغ يتقلب ويبدو عليهم الانزعاج والشعور بالوحدة، وهناك القلائل ممن ينامون كأزواج ويبدون في غاية السعادة، فقلوبهم تدق وتنبض ويتدفق ضوؤها في الأنحاء،

وكان يستطيع رؤيتهم مهما كانوا بعيدين عنه، ثم قال:

- هنالك أسّرّة متقاربة ولكن كل شخص ينام لوحده على سريره؟

- إنهم المتزوجون بشكل مادي ولكن لا حُبّ بينهم، أو من يمكنهم أن يحبوا بعضهم، ولكن عدم الاستحقاق يحول بينهم، أي أنه لا يوجد شيء يمنعهم رغم تقارب أَسِرَّتِهِم سوى عدم الاستحقاق... أترى ذلك الشاب هناك في أقصى اليمن وتلك الفتاة في أقصى اليسار؟

لمعت أسرّة من تتكلم عنهم الملكة.

- نعم أراهما.

- لقد استحقا الحب للتو.

اتجهت الملكة نحوهما وربطت قلبيهما بخيط كخيط العنكبوت، فأخذت أسِرَّتُهُم تتقارب حتى تلاصقت، ثم لمست قلب كل واحد منهما بمقدمة سبابتها حتى بدأ قلباهما ينبضان بشدة داخل جسديهما ويظهر منهما ضوء ساطع، فاندفعا باتجاه بعضهما وتلاصقا، فظهر نور ساطع وانتشر حولهما، وبدا بأنهما في سعادة غامر.

أعجب بهذا المنظر، وأخذ يتذكر جانيت وزاد خفقان قلبه.

عادت الملكة ونظرت في عينيه، وسألته بابتسامة:

- هل أنت عاشق؟

حاول أليكس أن يخرج من الأمر فورًا:

- أخبريني أيتها المعلمة كيف يستحق الإنسان الحب؟

– حسنًا، هل ترى هذين السريرين المتقاربين، ولكن كل من عليهما يميل إلى جهة معاكسة للآخر ويشعران بالوحدة؟

– نعم أراهما.

– هذان زوجان لا يحبان بعضهما، ولكن الزوج يمنع الزوجة من أن تحب غيره، وهي تمنعه من أن يحب غيرها، فلا يحبان بعضهما ولا ينفصلان بذات الوقت، لذلك هما محرومان من الحب لأنهما لا يستحقانه.

– آه، إذًا لو سمح لها أن تحب أحد غيره وهي سمحت له بذلك، سيستحقان الحب ويشعران بالسعادة مجددًا.

– كلا يا أليكس هذا لا يكفي.

– كيف؟

– بل يجب أن يساعدها ويبحث معها على أحد تحبه ويفرح عندما يراها سعيدة مع من تحب، فيسعد لها لأنها وجدت ذاتها وسعادتها التي لم يستطع هو أن يكون مصدرها، ويتركها لتعيش حياتها كمن يودع قاربًا ورقيًا في النهر، ويضع به زهرةً ويتركه ليسير في دربه. وهي يجب أن تفعل ذات الشيء، فالحب ليس تملكًا، ومن يتعامل مع الحب بأنه تملُك؛ تسقط عليه اللعنة ولا يشعر بعد ذلك بالحب أبدًا حتى أنه سيظن بأن الحب غير موجود ووهم، وبأنه لا يوجد سوى في الحكايات والكتب، وسيكون كذلك بالنسبة له، وأي حُب سيحصل عليه لن يكون سوى فخ ولن ينال منه سوى الألم، وسيشعر وكأنه سمٌّ دخل جوفه ولن يستمتع به أبدًا.

سكتت برهة، ثم أشارت له:

- وهل ترى تلك المرأة الوحيدة هناك؟

- نعم.

- إنها أرملة، وهي محرومة من الحب أيضًا.

- لماذا؟

- لأنها تسيطر على ابنتها المراهقة وتمنعها من الحب، فهي تشعر بالخوف عليها، ولكن مهما كانت الأسباب فقد فقدت الاستحقاق وستبقى تركض خلف مخاوفها حتى تتعلم، أما ابنتها فرغم كل المراقبة والمحاصرة التي تحيطها بها أمها إلا أنها تستحق الحب لذلك هي تعيشه رغم كل المعوقات.

ثم أشارت مرة أخرى:

- وهل ترى ذلك الرجل الوحيد هنالك؟

- نعم.

- إنه محروم من الحب أيضًا.

- لماذا؟

- لأنه ينكر الحب على الآخرين ويراقبهم ويتنمر على علاقاتهم، ورغم أنه يفعل ذلك في عقلهِ فقط، دون أن يشعر أحد به، ودون أن يضر بأحد أو يخبر أحدًا، إلا أن ذلك يكفي ليفقد الاستحقاق.

رفع أليكس حاجبيه مستغربًا.

- اسمع يا أليكس، إن الحب بين اثنين لا بد أن يضمر ويخف مع مرور الوقت كحال كل الأمور في هذا العالم، فيجب

أن يتحول لارتباط روحي، وبعدها يجب على كلا العاشقين أن يساعد ويشجع الآخر على العثور على حُب جديد لتستمر الحياة والسعادة، وإن لم يفعل ذلك سيفقد استحقاقه ليكون عاشقًا أو معشوقًا وسيعيش طوال حياته وحيدًا، قد يجد اللذة، ولكن لن يجد الحب أبدًا.

- حسنًا، كم هو دقيقٌ عملك، فهل كل من يستحق الحب سيناله ومهما كانت ظروفه المادية؟

- عملي دقيق وعادل عدلاً مطلقًا، لن تنال الحب إلا إذا استحقيته، وعند ذلك ستناله فورًا.

- هل هذه جميع شروط الاستحقاق؟

- لا، هنالك شروط أخرى ولكن هذه أهمها.

نظر أليكس إلى البشر أسفل منه وكل واحد ينام على سرير وأخذ يفكر: (أين هي جانيت يا ترى من بين كل هذه الأسِرّة).

اقتربت الملكة منه ونظرت في عينيه وابتسمت:

- هذا كل شيء يجب أن أعلمك إياه، تستطيع الآن أن تعود لجسدك وسيزورك الحب قريبًا.

عاد الشعور بالخجل إلى وجه أليكس.

= عبد الرحمن =

أخذ عبد الرحمن يبتعد في الصحراء، أما جنود النقطة العسكرية، فكانوا يبحثون عن رفيقهم المفقود « أين ذلك المغفل؟ أين ذهب؟)... (هل يُعقل أنه انشق؟! (*))... (لا، لا يمكن، فحسن أجبن من أن يفعل ذلك).

وبينما يبحثون عنه رأى رئيسهم دماءً تسيل على الصهريج، لمسها بأصابعه وتحسَّس لزوجتها، ثم نظر إلى الأعلى وصعد على صهريج الماء ليجد جسد الجندي مُمدّدًا في الأعلى، وضع يده على رقبته... (إنه لا يزال حيًّا، أنزلوه وأسعفوه فورًا، لا بد من وجود من فعل ذلك، وربما هم قريبون، يجب أن نمشِّط المنطقة حول النقطة، ونبحث في المكان حولنا).

كان عبد الرحمن يمشي مترنحًا يمينًا وشمالاً، لم يعد يرى طيف أليكس ولا أي طيف آخر وبالكاد كان يرى، بفعل الحر وأشعة الشمس، وشرب قنينة الماء كاملة من أول مئة متر مشاه، وها هو يسير مترنحًا عطشًا وجائعًا ويتصبب عرقًا من القيظ، وبين الحين والآخر يضرب كرشه ويقول: (كل المشاكل منك أنت، لولاك لما أنفقتُ عبوة الماء، من أين

* الانشقاق: لفظ يُطلق على الجندي عندما يترك جيش الدولة وينضم إلى المقاومة الشعبية.

أتيت أيها الكرش؟ أيها الصديق ثقيل الظل والذي فرض نفسه علي منذ طفولتي وشاركني حياتي ونغصها علي، ماذا فعلت بالتحديد حتى أستحق رفقتك؟).

ثم انعطف باتجاه الطريق المُعبَّد مرة أخرى.

أما جنود النقطة العسكرية فوضعوا ثلاث بنادق قنص وبدأوا يمشطون الأرض بعدساتها وبالمناظير، صاح رئيسهم:

- لا أريد أن تُهملوا أي شيء في التضاريس، قد يكونون قريبين، فإذا كان هناك قنفذ على الأرض أريد أن تكتشفوه، هل تسمعونني؟

- أمرك سيدي.

وصل عبد الرحمن إلى الطريق وكانت الشمس تنصبُّ على رأسه، وشعر بثقلها وحرارتها. توقف في منتصف الطريق لمدة ربع ساعة وأصبح يشعر بالدوار ولم يرَ أي سيارة تُقبِل، وفي النهاية بدت سيارة صفراء متجهة نحوه، تمنَّى عبد الرحمن في داخله أن يكون من فيها مواطن عادي وليس عسكريًّا، كانت السيارة تترنح فربما هناك خلل ما في نوابضها فكأنها ترقص على الطريق أو شيء من هذا القبيل، وإحدى جهاتها أعلى من الجهة الثانية بشكل ملحوظ، تمتم عبد الرحمن (ما هذا الحظ السيء؟ ولكن لا يهم فالحمد لله بأنها تسيريكفيني أنها تسير). وأومأ للسائق الذي توقف بجانبه:

- ما بك يا أخ؟ تبدو مزريًا.

- السلام عليك، هلا أوصلتني إلى البرامكة؟

- إياك أن تكون مطلوب أو شيء من ذلك، فتبلينا بك ويحبسوني بسببك.

- لا يا أخي لست مطلوبًا، أنظر هذه هويتي أنا محامٍ من داريا، فلماذا أكون مطلوبًا؟

- كل أهل داريا مطلوبون، على أي حالٍ هيا اصعد سأتكل على الله.

وفي مكان آخر كان الجندي ينظر في عدسة بندقية القنص، ثم صرخ برئيسه:

- وجدته. وجدت الفاعل.

قال الرئيس:

- أطلق النار فورًا.

= من مذكرات أليكس في بداية شبابه =

بعد أن رأى أليكس تيمور ورجاله يدفنون الجُثث، أصبحت غرفته تشبه غرفة العمليات الحربية، فقد أخلا جدارًا كاملاً من الغرفة، ثم ألصق عليه الكثير من الأوراق والصور لتيمور وأتباعه، وخرائط تبين أماكن شركات تيمور ومحالهِ، والتي كانت بالنسبة لأليكس لا تشكل سوى خطًا لتهريب المخدرات على امتداد أستراليا بالكامل، من شرقها إلى غربها، ومن جنوبها إلى شمالها.

معظم محاله وشركاته كانت للإتجار بالحيوانات الأليفة ولوازمها، أما في الحقيقة فهذه المحلات والشركات ليست سوى لغسل الأموال، وبعضها مقرات سرية لالتقاء تجار المخدرات وتبادل السلع والنقود، ولكن أليكس لا يملك دلائل مادية على هذه المعلومات، ليثبت أن تيمور مجرم ويضعه في السجن، ولينقذ تلك الفتاة الحسناء التي رآها في منزله، سواء أكانت مقدرةً له، أم لم تكن، وسواء استمر حبه لها، أم لم يستمر، وسواء أرضيت هي بحبه أم لم ترضى، فهو قرر إنقاذها بغض النظر عن أي مصلحة شخصيه له عندها.

وها هو الآن يضع العديد من الخطط والخطط البديلة لكيفية الحصول على أدلة مادية.

بعد يومين من وضع الخطط كان أليكس يقدِّم طلب توظيف لإحدى شركات تيمور في مدينة داروين كمُدقِّق للحسابات، وكان المرتب المعروض لهذه الوظيفة قليلاً يصل إلى الحد الأدنى للأجور المسموح به في أستراليا وهو ثلاثة آلاف دولار أسترالي، وكان العمل مجهدًا ويتطلب وقتًا أمام شاشة الكمبيوتر لفترات طويلة، لذلك لم يكن يرغب الكثيرون بهذه الوظيفة.

بعد الاختبار تم قبول توظيف أليكس، والذي كان يجلس في الشركة دون عمل، بل يراقب ويتلفت حوله محاولاً جمع المعلومات، ثم يأخذ المهام ويعطيها لشخص آخر لينجزها، ويعطيه أجرًا أكبر من مرتبه، أربعة آلاف وخمسمائة دولار أسترالي، لقد كانت الخطة مكلِّفة ولكن هذا ما فعله، كان يريد أن يصل إلى غرفة المدير والكمبيوتر الخاص به ليحصل على صور ومعلومات أو أي شيء من ذلك، ورغم صعوبة المهمة إلا أن أليكس كان يحرز بعض التقدم، فاستطاع أن يجمع بعض المعلومات ولكنها لم تكن كافية ليصل إلى مبتغاه.

وبما أن الشخص الذي كلَّفه بإنجاز مهامه كان متمرِّسًا، فقد أُعجب المدير الإداري للشركة بعمل أليكس، أو ما كان يظنه عمل أليكس، لذلك دعاه إلى مكتبه ليشرب معه القهوة ويتحدثان عن انجازاته الرائعة في العمل، والتي لم يقُم بها ولا يعرف عنها شيئًا، ولم يكن الذي دعا أليكس إلى مكتبه سوى جانيت، والتي كانت تشغل هذا المنصب برغبة من صاحب الشركة وخطيبها تيمور، وقد كان ذلك أفضل فنجان

قهوة شربه في حياته، وحتى بعد زواجهما فهو يقول لها دومًا إن ذلك الفنجان، هو فنجان القهوة الوحيد الذي لم تفسده له، وتنغصه عليه، بل جعلته أروع وألذ فنجان قهوة تذوقه. فطعوم القهوة لدى الأستراليين أمر دقيق للغاية، أما بالنسبة لأليكس فهو أمر في غاية التعقيد، فلا يمكن أن يستلذ بقهوة، إذا لم يصنعها بيديه، فلديه طقوس وعيارات وأساليب معقدة خاصة به لصناعتها، باستثناء ذلك الفنجان الذي دعته إليه جانيت في مكتبها، ليتحدثا بخصوص العمل الرائع الذي لم يؤدِه.

أصابت أليكس حالة غريبة وشرود، فهو كان يرى جانيت تتكلم ولكنه لم يكن يفهم من كلامها شيئًا، بل كان ينظر إليها ويركز على تفاصيلها وحسب، فكأنه يتأمل لوحة الموناليزا، ويرمي بعض الكلمات محاولاً أن يبدو مُنتبهًا إلى الحديث ويعيه، وأنه في صلب الموضوع الذي تتحدث عنه جانيت.

كان تقييم جانيت له بعد المقابلة، أنه أبله ومخبول، حتى أنها قالت عندما غادر: (كيف لهذا الأبله أن يقوم بهذا العمل المُتقن). ولكن بعد ذلك بدأت تشعر ببعض الود تجاهه، وكانت تنكر على نفسها هذه المشاعر، فهي خطيبة تيمور وستتزوجه، ولا ينبغي أن تشعر بهكذا مشاعر تجاه أي أحد، ولكن هذا لا ينفي وجودها فهي كانت تشعر بأن داخل أليكس شيء غريب ملفت وأن روحه كروح طفل، وكانت تحب ذلك ولكن لم يبلغ ذلك درجة التفكير بترك تيمور لأجل هذه المشاعر الدخيلة.

= عبد الرحمن =

اقترب الضابط من الجندي الذي ينظر في عدسة القناصة، والذي صاح بأنه وجد الفاعل:

- ما بك؟ أطلق النار عليه.

- سيدي أنا لا أرى المجرمين، بل وجدتُ أين يختبئون وحسب، فهنالك حفرة في الأرض يحيط بها التراب.

- أرني.

نظر الضابط في عدسة القنَّاصة:

- نعم إنها حفرة، قد يكون الفاعل مختبئًا بها ومسلحًا، دعونا نقصفها بالهاون ونراقبها بالقناصات.

بدأ الجنود بقصف حفرة عبد الرحمن وأليكس والتي لا تحتوي سوى على الذكريات.

سأل عبد الرحمن السائق:

- ومن أين أنت؟

- من دوما.

- يا سلام تقول أن كل أهل داريا مطلوبين، على أساس أن أهل دوما ليسوا بمطلوبين.

وضحك الاثنان.

- يبدو أن الشعب كله مطلوب.

- ماذا يفعل الشعب المغلوب على أمره إن كانت الدول الكبيرة تريده أن يموت لتقتسم الثروات، فهي تدعم الرئيس، وهي تدعم المعارضة أيضًا، وما النتيجة؟ النتيجة، سنموت ولن نحقق ما نريد وسيتقاسمون الثروات، إنهم يقتلون الأطفال والناس من أجل المال.

حرَّك الاثنان رأسيهما بما يعني الايجاب، واكتفيا بهذا الحديث فهما لا يستطيعان أن يتكلما كثيرًا عن هذه الأمور، فلا يزال كل واحد منهم حذرًا من الآخر، فهناك احتمال أن يكون أحدهما مخبرًا، لذلك أكملا معظم الطريق وهما صامتان ينظران من النوافذ.

- إلى أين أنت ذاهب؟

- إلى فندق إيبلا الشام، إذا أوصلتني إلى هناك سأعطيك نقودًا فلدي صديق هناك سيعطيك ما تريد.

- لا تقل ذلك يا أستاذ عبد الرحمن فأنا أفعل ذلك لوجه الله، ألا ترى سيارتي كيف تئن ومائلة، فلولا الله لما سارت مترًا واحدًا، فأنا أفعل الحسنات لتبقى تسير، انظر مؤشر البنزين يشيرإلى أنها خالية من الوقود، ومع ذلك فهي تعمل.

ضحك الاثنان، وعلَّق عبد الرحمن:

- إن خزان الوقود مليء بالحسنات.

كانا يضحكان والمعاناة بادية عليهما، وفي هذه اللحظة شعرا وكأنهما يتيمان من أم واحدة، ولكنهما كانا تائهين والتقيا بالصدفة...

- سأُنزِلك بالقرب من الفندق، عليك أن تسير بعض الوقت.

أنزل السائق عبد الرحمن.

- لن أنسى لك معروفك أبدًا.

وانطلقت السيارة المائلة بقوة الحسنات، وانطلق عبد الرحمن مترنحًا بكرشه وقميصه المغبَّر المقطّع الأزرار باتجاه فندق إيبلا الشام حيث أخبره أليكس بأنه ينتظره هناك، في أخر مرة رآه فيها.

= من مذكرات أليكس في بداية شبابه =

مضى شهران على عمل أليكس في شركة تيمور، ولكنه رغم ذلك لم يحصل على أدلة ملموسة يمكنها إدانة تيمور، وكان يلتقي بجانيت في كل يوم وكان هذا عزاؤه، فكان يقول بأن خطته تبدو للتعرف على جانيت، وليس للاستحصال على معلومات عن جرائم تيمور.

كان أليكس يشعر بمشاعر السعادة والحزن بذات الوقت، فقد اجتمع داخل قلبه هذان المتناقضان، فهو سعيد لكُونه يرى جانيت في كل صباح ويتحدث معها، وحزين كونها لن تكون معه في يوم من الأيام رغم أنه أحبها حبًّا جمًّا، وهو لا يشعر بأنه سيستطيع كشف حقيقة تيمور، فلا يوجد بوادر بأنه سيحصل على هذه المعلومات المادية، التي تثبت تورط تيمور في الجرائم، فاكتفى أليكس من كل ذلك بمراقبة جانيت من بعيد، والتكلم الطفيف معها أحيانًا.

كانت جانيت تدخل إلى الشركة متحمسة وسعيدة دائمًا، وكأنها طفلة صغيرة تدخل إلى مسبح الأطفال أو مدينة الملاهي؛ على حسب ما كان يصفها أليكس. وكانت تنتبه إلى مراقبة أليكس الدائمة لها، وسألته في أحد الأيام:

– أليكس، لا أراك تعمل، أنت دائم الشرود، فكيف تُنجز كل هذه الأعمال الموكلة لك وأنت بهذه الحال.

فيُجيبها:

- أشرد هنا وأنجز أعمالي في البيت، فهنا يوجد أمور رائعة يمكن أن أشرد بها، أما في البيت فلا يوجد، فأشرد هنا وأعمل هناك.

- حسنًا، والشركة؟

- الشركة تريد الإنجاز ولا يهمها متى أشرد ومتى أعمل، طالما أُقدِّم لها ما تريده.

- يجب أن تكون فيلسوفًا يا أليكس لا مدقق للحسابات.

- أنا أصعد السلم درجة درجة.

وابتسم.

كانت جانيت تقرأ التلميحات التي يرسلها أليكس في كلامهِ وتنتبه لمراقبته لها دومًا وتشعر بحالة الهيام التي يعيشها تجاهها، ولكنها لا تنظر إلى ذلك إلا كإطراء وكأمر عادي لطيف يحدث معها يوميًا ويعزز ثقتها بنفسها وبجمالها، فصارت تحب أن تسمع كلامه وما يضمه من تلميح، ولكنها لا تولي ذلك الكثير من الاهتمام، فهي مقدرة لتيمور منذ سنوات وترسم لحياتها المستقبلية وللطفل الذي تتخيل أن تنجبه وترعاه، فلا شيء أقوى عندها من هذه الرغبة ولن يغير استلطافها لأليكس من ذلك.

أما أليكس فكان يكتفي بمراقبة جانيت ولا يطمح لأكثر من ذلك: (لا أريد منها شيئًا سوى أن أراها) هكذا كان يردد في نفسه، وقام بصُنع خيال يشبهها في داخله فيتخيلها عندما

ينام، فتنام بجواره، ويحاورها وتكلمه ويكلمها، فكان خيالها لا يفارقه أبدًا، وعندما يجلس ليشرب القهوة صباحًا، يصحبها بخياله ويتبادل معها الأحاديث والنِّكات ويضحكان ويُقبِّلها.

ولم يتوقع عندها أن تحقيق حلم احتساء القهوة معها سيكون بهذه السوداوية، فها هو بعد الزواج يتمنى أن يشرب القهوة لوحده، ولو لمرة واحدة في الأسبوع.

= من مذكرات أليكس عن شبابه =

استلم الشرطي المُكلَّف باستقبال رسائل النجدة، عدة رسائل نصية، من العميلة ليسا، تُخبره بأنها محتجزة من قِبَل «تيمور لينكن»، ومعها أليكس وجانيت، وهو ينوي قتلهم، وأرسلت له الإحداثيات التي تحدد مكانها.

قرأ الشرطي الرسالة فبدا عليه الفزع وأرسل لها رسالة: (لا عليكِ، سنتولى الأمر، وسننقذكم).

وأمسك هاتفه الجوال واتصل فورًا بشخص آخر:

- إنها تتمكن من التواصل بطريقة ما، أرسلتْ رسالة إلى القسم، عالجوا الأمر قبل أن تتصل بغيري.

- هل علم أحد غيرك بهذه الرسالة؟

- لا أبدًا، وسأقوم بحذف الرسائل لتبدو وكأنها لم تصل إلى القسم أصلاً.

- حسنًا، سنتولى أمر ليسا.

لم يكن الشرطي الذي يستقبل الرسائل سوى عميل لدى تيمور، والذي كان يدفع الكثير من المال ليوظِّف رجال الشرطة التابعين له في هذا المنصب الذي يبدو متواضعًا ولكنه حسَّاس للغاية، وذلك في أي بلدة سيقوم بها بجريمة أو بأي عمل أو تجارة ممنوعة، وذلك ليتدارك أي بلاغ من أي

شخص، وكان رجال الشرطة هؤلاء الشرطة يمتلكون الأجهزة الإلكترونية المناسبة لمسح رسائل المستنجدين وحذفها وكأنها لم تأتِ.

كان كلٌّ من ليسا جانيت وأليكس، ينتظرون النجدة في أسفل البئر، وطوال فترة وجودهم في البئر لم يستخدم أليكس قواه اللامادية فلم يكن قادرًا بسبب ضعف تركيزه وتوتره وقلقه على طفلتيه... سمعوا صوت أقدام آتية إلى الغرفة، ثم أطل رجل يرتدي بزة الشرطة، عرفته ليسا فورًا إنه الشرطي الذي يتلقى المكالمات في قسم الشرطة التي تعمل به، فشعرت بفرح عارم لمجيئه.

- ستكونون على ما يرام، لقد سيطرنا على المكان ولم يعد هنالك أي خطر.

رمى الشرطي درجًا مصنوع من الحبال للأسفل ليتمكنوا من الصعود، بدأ الثلاثة يصعدون، فكرت ليسا وهي ترى وجه الشرطي المبتسم في أعلى البئر (كيف لشرطي استقبال المكالمات أن يأتي لأداء مهمة ميدانية؟) أخذت تفكر (ربما أصر على مرافقتهم بدافع الزمالة). وقبل أن تصل إلى الفتحة التي تخرجها من البئر فكرت: (وحتى لو قرر أن يأتي فلن يكون هو من يخاطبني، بل الرئيس). عندها شعرت بالمكيدة.

وقبل أن تتجاوز الفتحة، قامت بلكم الشرطي بقوة، فسقط على الأرض إثرها، ولكن أحد الرجال الضخام أتى وأمسك ليسا من شعرها وسحبها للأعلى وقام بلوي يديها

للخلف ورجل آخر أشهر مسدسه ووجهه إلى رأس جانيت: (اخرجا بهدوء وبسرعة). قام الشرطي الذي لكمته ليسا والدماء تقطر من أنفه، وبصق في وجهها، ثم غادر الغرفة.

تكلَّم أحد الرجال:

- أين الهاتف الذي استخدمتموه؟ وكيف قطعتم اللاصقات؟

لم يجب أحد من الثلاثة، فقام الجنود بضربهم ولكمهم، ليسقطوا على الأرض، ثم أومأ لرجاله، فبدأوا بضربهم مرة أخرى، فصرخت جانيت من الألم، وانتفض أليكس ليهاجمهم إثر صراخها، إلا أنه تلقى ركلة قوية وقام الرجال بتثبيته. وقبل أن يُكملوا الضرب صرخت ليسا: (توقفوا، هذا هو الهاتف). ثم عدلت من جلستها وقامت بفك حمالة الصدر ورمتها على رئيسهم.

قام بتفحص حمالة الصدر ووجد فيها الهاتف النقال الذي يتألف من رقاقة إلكترونية وقام بتحطيمه، ثم وجد عدة شفرات.

- الآن وجدنا الهاتف والشفرات التي فككتم أنفسكم بها، وسأحتفظ بحاملة الصدر هذه كذكرى منك يا ليسا إن كُنتِ لا تمانعين، ولكن يجب ألا نكتفي بهذه الذكرى بل يجب أن ننزع كل ثيابكِ علّكِ تُخبئين بها مثل ما تخبئين في هذه الحمالة، فمن سيموت لا حاجة له للثياب.

ثم أمر رجاله بنزع ثيابها...

أوقفتهم ليسا وقامت بخلع ثيابها بنفسها، قال أحد رجاله مبتسمًا:

- لماذا لا ننزع ملابسها الداخلية أيضًا. فربما تخبِّئ شيئًا بها.

قال آخر:

- إنها شفافة، فكيف ستخبِّئ بها شيئًا؟

وضحك بعض الرجال.

كانت ليسا تنظر اليهم بقوة وإزدراء.

قال أحدهم:

- أليس من الحرام أن يأكل العفن والديدان هذا الجسد الرائع؟

قال رفيقه:

- لا تنظر إلى الجسد العاري، بل انظر إلى العينين، ستعرف بأن هذا الكائن ليس فتاة، بل هو وحش.

كانت عينا ليسا تشتعلان نارًا وكأنها محارب يوشك على الهجوم.

قام الجنود بتكبيلهم من جديد وإلصاق أفواههم ثم أنزلوهم إلى قعر البئر. وها هم الآن في الأسفل ينظرون إلى بعضهم مكمومي الأفواه، وقد لاحظ أليكس أن معجزة قد حدثت للتو، فهو لم يعد يشعر بالخجل من جسد ليسا العاري ولا يفكر سوى بكيفية الخروج.

= من مذكرات أليكس في بداية شبابه =

رغم أن جانيت لم تعطِ أليكس ونظراته، وملاطفته لها أي أهميةً تذكر، وبقيت هذه الأمور على هامش ملاحظتها واهتماماتها، إلا أنها شعرت بلهفة غريبة له، عندما دخلت في أحد الأيام إلى الشركة بنشاطها وحيويتها المعتادة، وبحثت عن ذلك الوجه الحزين الذي يتمقلها من بعيد، فلم تجده، فأُصيبت بحيرة مفاجئة، وكأن ضوء الشركة قد خفت،أو أنها دخلت لشركة خاطئة، أخذت تبحث عن أليكس في أنحاء الشركة فلم تره، توجهت إلى مكتب الاستعلام وسألت الموظفة:

- هل أليكس هنا؟
- لا أيتها المديرة.
- هل طلب إجازة؟
- لا.
- هل اتصل وبين سبب غيابه؟
- لا، وحاولنا الاتصال به عدة مرات ولكنه لا يجيب على هاتفه.

لم تعرف جانيت ما سبب خوفها على أليكس، وكأن الشركة قد أصبحت بلا معنى من دونه، وكأن روحها جزء من

روحه، أو أن هناك رابطًا سحريًا يربط بينهما.

بدا التوتر واضحًا عليها، فأمسكت بهاتفها واتصلت بأليكس. رنَّ الهاتف كثيرًا، قبل أن يُجيب:

- مرحبًا جانيت، أعتذر كثيرًا لأني لم آتِ إلى العمل، ولكن جدي توعك قليلاً، فأسعفته إلى المستشفى، ولم يكن بمقدوري أن أتصل، فقد كان الأمر مفاجئًا.

- لا عليك، كيف حاله الآن؟

- لقد تحسَّن، وها هو يعود لوعيه شيئًا فشيئًا.

وأنهت المكالمة، بعد أن عرفت سبب الغياب.

شعرتْ بخوف غير مبرر على أليكس، وكأنه طفلها، أو أحدٌ ما يخصها، فوجدت نفسها لا تقوى على البقاء بالشركة، لذلك خرجت منها، متجهة إلى المستشفى الذي فيه أليكس وجده.

دخلت حاملة باقة من الورود البيضاء، التي تبعث على السعادة بمجرد رؤيتها، وهي لا تقل تفتحًا وجمالاً عن الورود ذاتها - حسب وصف أليكس الحرفي لها في مذكراته - وعندما دخلت إلى غرفة الجد، أحسَّتْ وكأنها تريد أن تلقي بنفسها في أحضان أليكس، وكأنها افتقدته، أو أنه قد غاب عنها زمنًا طويلاً، ولكنها منعت نفسها عن ذلك، ثم وضعت الورود بجانب سرير الجد، وبادرت بالتحدث معه والاطمئنان عن حاله. نظر الجد إلى أليكس قائلاً:

- هل ستخطب هذه الفتاة يا أليكس؟ إنها مناسبة لك.

ابتسم كل من أليكس وجانيت.

– لا يا جدي، إنها مخطوبة لمالك الشركة التي أعمل بها؛ السيد «تيمورلينكن».

– إذن فرِّقهما عن بعضهما وتزوجها أنت، إذا كانت هي تقبل بذلك، فلم أرَ فتاة تناسبك مثلها.

ابتسم أليكس:

– سأحاول ذلك يا جدي.

وضحك ونظر إلى جانيت التي كانت بدورها تضحك ضحكة منخفضة الصوت، وبرَّر لها:

– إن جدي يقول ما يشعر به ويريده دون أي حسابات، فاعذريه.

– أنا أحب هذا النوع من الرجال.

= من مذكرات أليكس عن شبابه =

استمرت المُربِّية فانيسيا تنتظر قدوم ليسا ولكنها تأخرت للغاية، حاولت أن تعاود الاتصال بها ولكن هاتفها أصبح خارج التغطية، فأخذت تدور في الغرفة الدائرية الكبيرة ذات القُبَّة الزجاجية والتي تظهر من خلالها الغابة بصورة فائقة الجمال، ثم قرَّرت أن تتصل بالطوارئ:

– أنا «فانيسيا مانكشوت»، مربية أطفال ومحتجزة في منزل «أليكس بارتونس» حيث داهمت عصابة منزله، وأنا وطفلتاه تختبئ في نفق سِرِّي في المنزل.

– حسنًا، تم تحديد موقعك وسنكون عندك بأقرب وقت.

لم يكن تيمور ليبدأ أي عملية في أي منطقة قبل أن يؤمن موظفي استقبال رسائل النجدة، وكان هذا أحدهم، وما هي إلا خمس دقائق حتى وصل رجاله ودخلوا منزل أليكس مجددًا وبعضهم مرتديًا زي الشرطة، اتصلوا بفانيسيا وطلبوا منها الخروج من النفق مع الطفلتين، وعندما فتحت باب النفق لتخرج بصحبة الطفلتين تلقت لكمة قوية من أول شرطي جاءت لتصافحه، فسقطت على الأرض بجسمها الضخم.

ركض الرجال وأمسكوا بالطفلتين وأخذاهما للخارج، ثم أطلق من يرتدي زي الشرطة النار على المربية فانيسيا، فبدأت

تنز. ثم سحبها إلى داخل النفق، وأغلق الباب عليها وهي تنزف، ثم غادروا المنزل.

= من مذكرات أليكس في بداية شبابه =

مضى على أليكس حوالي ستة أشهر وهو يعمل في شركة تيمور وقد نسي أمر المعلومات التي يبحث عنها، وأصبح لا يفكر سوى بمراقبة جانيت والحديث معها.

سأله جده والذي كان مُمددًا في فراشه:

- كم تجني من عملك في تلك الشركة يا أليكس؟

- من العمل في الشركة؟ حسنًا، أنا أخسر في كل شهر ألف وخمسمائة دولار أسترالي تقريبًا

- ممتاز، وظيفة رائعة، احرص على ألا تفرط بها، فهناك من يخسر خمسة آلاف دولار أسترالي شهريًا في وظائف أخرى.

وأخذ الاثنان يضحكان.

تذكر أليكس كلام جده هذا وابتسم، وهو يشرب البيرة في احتفال مع موظفي الشركة بمناسبة نسبة الأرباح المتزايدة لهذا العام، وكان الموظفون يجلسون على طاولة طويلة، وتكلم أحدهم موجهًا سؤاله لجميع الموظفين:

- ما هو أصعب شيء في الحياة؟

أجاب أحدهم:

- أن تحب فتاة وهي لا تريدك.

فضحك الموجودون.

قال أليكس:

- هناك حل لذلك.

- وما هو يا أليكس؟

- أن تصنع لها خيالاً يُرافقك دومًا وتتحدث معه فتستعيض عنها به.

كانت جانيت تنظر له بتمعن، فنظر هو إليها أيضًا، والتقت نظراتهما للحظات دون تحول، لاحظ الجميع ذلك، فاستدركت جانيت هذا الموقف وقالت:

- يبدو أن لدينا شاعرًا في هذه الشركة، هيا لنصفق لأليكس، مدقق حسابات الشركة وشاعرها.

صفَّق الجميع وهم يضحكون، ثم سألتها إحدى الموظفات:

- لماذا لا تخبرنا مديرتنا جانيت، بماذا تحلم، وإلى ماذا تخطط وتتطلع؟

وقفت جانيت وهي تنظر إلى الجميع وتخص أليكس ببعض النظرات:

- أنا أحلم أن أتزوج تيمور، وأن يكون لدي طفل منه أو طفلة أربيها كفراشة، وسأصبح المديرة العامة للشركات العائدة لتيمور حسب وعده لي، وعندما أصل لذلك الهدف، وأول ما سأقوم به، سأعين أليكس شاعرًا لمُجمل الشركات.

ابتسم أليكس محاولاً أن يخفي الألم الذي اجتاحه فجأةً.

وبعدها تابعت الحديث عن الأطفال والأُسرة:

انتهى الاحتفال، الذي كان بالنسبة لأليكس كتأبين، وغادر الجميع، وذهب هو إلى البيت كما لم يذهب من قبل، فقد كُسر قلبه، وعزم بألا يسمح لفتاة أن تحتل قلبه، وتسيطر على كيانه مرة أخرة، كما سمح لجانيت، وخصوصًا إذا كان قلبها مع شخص آخر.

أوقف سيارته قبل أن يصل إلى البيت ونزل منها وأخذ يسير في الشوارع علَّه يخفِّف من الحزن والألم الذي يشعر به، وعزم أن يبتعد عن طريق جانيت وينساها إلى الأبد، وكان يردد أغنية للمطربة «ويتني هيوستن» كانت كلماتها: (... إذا أنا بقيت سأكون عقبة في طريقك... لذلك سأرحل... ولكن اعلم أنك ستكون في كل خطوة أخطوها...).

= من مذكرات أليكس عن شبابه =

كان «كين» يجلس بين الأشجار يراقب الطيور التي تتنقل بين أغصانها، والحشرات التي تتسلقها، ويشعر بالهواء الدافئ الذي يصطدم ببشرته، كان يعيش مع الطبيعة وكأنه جُزءٌ منها، فيشعر بأنه يطير في الهواء مثل الطيور، ويتسلق الأشجار مثل الحشرات، كان يشعر بتناغم كبير مع الطبيعة.

«كين» هو والد «ساندي» صديقة طفولة أليكس، وهو المزارع الذي يعتني بمزرعة الجد، وهو من السُّكان الأصليين لأستراليا، والذي لا يتراوح عددهم حاليًا الأربعين ألف في كافة أنحاء أستراليا، فهو من «الأبورجيين»، ويتقن العيش والتعايش مع الطبيعة بتناغم لا يتقنه سوى القليل من السُّكان الأصليين، الذين يؤمنون «بالحلم» ويتبع عقيدة الشعوب الأصلية، ففي عقيدتهم على الإنسان أن يتوحد مع الطبيعة، ويحافظ عليها ويكون جُزءًا منها، وعندها سيندمج معها، وحينها ستُحدثه وتساعده وتحميه.

كان كين يقضي وقتًا طويلاً في مراقبة الطبيعة وتأملها، وبينما هو جالس تحت أحد الأشجار ويراقب العصافير، هبَّت رياح قوية مفاجئة حركت الأشجار بقوة وأسقطت عشًا للعصافير على الأرض، فحمله وأعاده للشجرة، وكان فيه زغلولاً، شعر بأن هذا الزغلول ينظر إليه بطريقة غريبة، وفهم

من الرياح المفاجئة ومن سقوط العش ونظرات العصفور إليه، أن الطبيعة تتكلم معه بلُغتها، فبدأ يسير باتجاه هبوب الرياح، حتى وصل إلى بيت جد أليكس الذي يحاذي المزرعة، فوجد الباب مفتوحًا، فعلم بقدوم أليكس إلى المنزل، ولكن مع ذلك كان هنالك شيء غريب، فالباب مفتوح بطريقة غير معتادة. اقترب من البيت وأخذ ينادي: (أليكس، أليكس هل أنت هنا؟) ولكن لم يجبه أحد.

دخل إلى المنزل فلاحظ بعض الأمور المريبة كأغراض مرمية على الأرض، وآثار أقدام لجنود أو صيادين لم يستطع أن يحدد. استمر بالمسير بأنحاء المنزل، ملاحقًا آثار الأقدام، حتى رأى نقاطًا من الدماء على الأرض ولكنها تختفي، ثم سمع صوت حشرجة وتأوه خلف الجدار، فتمتم: (إنه النفق).

كان كين يعلم كل شيء عن النفق، فقد بناه هو وجد أليكس، وكانا يدخلانه، ويراقبان النجوم ويتحدثان مطولاً، فكونه من السكان الأصليين كان سببًا رئيسيًا لصداقته بجد أليكس، حيث كان الجد يريد أن يتعرف أكثر على ثقافة السكان الأصليين، والأبورجيين خصوصًا، وبعد ذلك نشأت صداقة وثيقة بين الاثنين، وعلّق كين على هذه الصداقة (لقد وجدتُ بالصدفة أعظم صديق لي من الإنكليز بينما كنت أبحث بين أقربائي من السكان الأصليين ولم أجد). وكان الجد يجيبه: (لا يوجد فرق بين البشر، فكلنا من الطبيعة وسنعود للطبيعة فنحن في تناغم). عندما تكلم الجد بهذه الطريقة علم كين بأنه يعطي بُعدًا آخر وفهمًا أكبر لعقيدتهم وهو الذي يقدِّس

الاندماج مع الطبيعة والكون، فما صداقته بتوماس سوى شكل من أشكال هذا الاندماج مع الطبيعة.

وكثيرًا ما كانا يرقصان في هذا المنزل وفي حجرة النفق رقصات السكان الأصليين ويعلِّمه إياها، ويفسران دلائلها ومقاصدها والتي ترمز للنجوم وللتناغم مع الطبيعة والكائنات والحيوانات، واستمر الجد بذلك حتى أتقن هذه الرقصات.

فتح كين باب النفق بتحريك الكتب في المكتبة وهو يتذكر توماس، ليجد فانيسيا مرمية على الأرض، وهي تنزف ولا تقوى على الحراك. ركض محاولاً حملها، وإسعافها بسيارته، ولكن كين الهزيل حمّل نفسه حملاً لا تستطيعه، فهو يحاول أن يحمل فانيسيا الضخمة تارة من خصرها، وتارة من يدها، وأخرى من رجلها، ولكنه لم ينجح في أي منها. سلَّم أخيرًا بعدم قدرته على تحريك هذه المرأة الضخمة، ولا حتى سنتيمترواحد، وعندها قرر أن يتصل بالنجدة، ولكنه لم يكن يحفظ رقم قسم الطوارئ، لذلك اتصل بابن عمته والذي يعمل سائقًا لسيارة إسعاف تابعة للصليب الأحمر، وأخبره بالأمر. وبعد بعض الوقت كانت سيارة إسعاف مجهزة بمسعفين أمام منزل جد أليكس، ويقومون بنقل فانيسيا إلى المشفى، وأيضًا سيارات الشرطة، والذين اصطحبوا كين معهم إلى القسم لأخذ إفادته.

= من مذكرات أليكس في بداية شبابه =

كلما عاد أليكس من العمل في الشركة، يركض ويجلس بجانب سرير جده ليتحدث معه ويعتني به، وقد وظّف عدة مُمرضات، للاهتمام بجده ليل نهار. ورغم ذلك فإن وضعه الصحي أخذ يتدهور شيئًا فشيئًا.

وفي ذلك المساء الذي يتبعه يوم عطلة عاد أليكس من عمله وجلس بجانب جده وقلبه يعتصر على حالته الصحية، فأخذ جده يتأمله وينظر في عينيه وفجأة دخل الجد في غيبوبة، فَهَمَّ هو والممرضات بأسرع ما تمكنوا ونقلوه إلى المشفى.

بقي أليكس بجانب سريره طوال الليل، وعند الساعة الخامسة صباحًا فارق جده الحياة، ليجلس أليكس وحيدًا بجانب السرير يبكي ويُقبِّل يديه ويمسح له عينيه بالمناديل ويتذكر كل لحظة قضاها مع هذا الرجل الذي لا رابطة بينهما سوى رابطة الصُّدفة، صُدفة سقوطه عن جرف صخري، فكان خير جد وخير أب وخير صديق وخير مُعلِّم.

أخذ أليكس يفكر بذاته، ها هو بدون أب ولا أُم، والآن ذهب الرجل الذي صنع منه رجُلاً، ماذا عساه يفعل؟

أخذ يسير في أنحاء غرفة المشفى، طلب الموظفون الإداريون منه أن يوقع على بعض الأوراق، فكان يفعل ذلك دون النظر

إلى ما تحتويه هذه الأوراق، وبدأ الممرضون يفكون السيرومات من يدي جده لينزلونه إلى غرفة الموتى لتهيئته ليُؤخذ ويُوضع في التابوت.

أما أليكس فقد كان مُدَّمرًا بالكامل لا يعرف ماذا يفعل، أراد أن يأخذ جثة جده ويذهب بها إلى الغابة فيبكيها ما استطاع، ثم يودعها الثرى دون أي تشييع أو مراسم، وقد همَّ بذلك فعلاً، ولكنه لم يعد يعلم ما أصابه، وكأنه نوع من الشلل، فجلس على أرض أحد ممرات المشفى الداخلية، وضمَّ ركبتيه إلى صدره، ووضع رأسه بين رجليه وتابع البكاء.

تذكَّر عندما كان يبكي والديه وهو صغير بالقرب من شباك العليّة، إنها ذات الحُرقة، لم يتغير شيء، وكأن سنه وتجاربه في الحياة، لم تؤثر عليه في تقبُل مثل هذه المشاعر البتَّة، بل أكثر من ذلك فعندما كان صغيرًا كان أكثر قوة، فعلى الأقل كان يعرف ماذا يفعل، ركب سيارة وانطلق.

وبعد قليل من الوقت تمالك أليكس نفسه وأمسك هاتفه النقال واتصل بالرجل الوحيد الذي يحبه جدّه ويستحق أن يكون معه في هذه اللحظة، إنه والد ساندي الذي يعتني بالمزرعة:

– مرحبا يا كين. لقد توفي جدي.

وأخذ يبكي.

– أين أنت؟

– في مشفى بالمرستون.

بعد قليل كان والد ساندي يضم أليكس ويبكيان، وقد بدا حزينًا أكثر منه، ولكن ما لفت انتباه أليكس، أنه رغم حزنه هذا، إلا أنه قد نظَّم كل أمور الجنازة وجعلها في ذات اليوم.

- من تريد أن تنعي من شركتك يا أليكس؟

- لا أحد يا كين، أنا وأنت فقط، دعنا نذهب ونُشيعه.

- لا يجوز هذا يا أليكس، أنا نظمت أمور الجنازة كلها، ونعيتُ أصدقاءه ومعارفه.

- حسنًا، ماذا نفعل الآن يا كين؟

- الآن تعال معي فقط يا أليكس.

= عبد الرحمن =

وصل عبد الرحمن إلى الفندق، حيث استقبله الحاجبان المُسلحان على الباب، واللذان كانا يتمقلانه، بسبب منظره الكارثي، فانتبه عبد الرحمن لهذه النظرات:

- لقد تعرَّضتُ لحادث مفاجئ، أنا المحامي عبد الرحمن الصنبوري، ولدي حجز عندكم مع أليكس بارتونس.

اتصل أحدهم بالهاتف وتأكد من الحجز، ثم قال:

- حسنًا، تفضل يا سيد.

دخل عبد الرحمن إلى غرفة الاستقبال وتأكد الموظفون من الحجز مرة ثانية، ثم أرسلوا معه خادم غرف ليدله إليها، وعندما وصل وطرق على الباب، سمع صوت أليكس يصيح من الداخل:

- ادخل يا عبد الرحمن، أنا أستحم، سأوافيك بعد قليل.

دخل إلى الغرفة، كانت مرتبة ونظيفة ومكيفة وتحتوي على سريرين وطاولة صغيرة بجانب النافذة وستائر فاخرة. توجه إلى الطاولة، ورمى جسده على الكرسي ووضع رأسه على الطاولة ليخفِّف من الدوار الذي يشعر به، ثم نظر إلى التلفاز الذي كان يعرض مدينته وهي مدمرة بالكامل، كانت الأبنية متهاويةً على الأرض وكأن زلزال قد اجتاحها، واستطاع التعرف على الشارع المعروض على الشاشة، إنه الذي أمام

مكتبه، وبدا البناء الذي يضم مكتبه وقد تهاوى على الأرض بالكامل. وضع يده على شعر رأسه المغبر وتنهد، فطار الغبار حوله.

خرج أليكس من الحمام وهو لا يرتدي سوى سرواله الداخلي ويضع حول رأسه منشفة يفرك بها شعر رأسه الطويل:

- الحمد لله على سلامتك يا عبد الرحمن.

- كل ذلك كان بفضلك يا أليكس.

أخذ عبد الرحمن ينظر إلى جسد أليكس العاري من الأعلى إلى الأسفل، كان جسمه رياضيًا وعضلاته مقطعة بتناسق ملفت رغم تقدمه بالسن، لم يكن يبدو عليه أنه يمتلك جسدًا رياضيًّا وهو يرتدي ثيابه الفضفاضة التي كان يزوره بها في المكتب...

- أنت تمتلك جسدًا رياضيًا يا أليكس.

- نعم، هو كذلك.

- يجب أن تعلِّمني كيف أتخلص من هذا الكرش الذي يرافقني منذ صغري.

ابتسم أليكس:

- يمكنك أن تفعل ذلك، ولكن ادخل الآن إلى الحمام واستحم، لقد وضعت لك منشفة جديدة وبيجامة في الداخل.

- حسنًا.

دخل عبد الرحمن واستحم، ووجد بيجامة نظيفة فلبسها، ولكن كنزة البيجامة لم تدخل في جسده، فاكتفى بالبيجامة ووضع المنشفة حول رقبته وخرج وهو يقول: (إن الجو حار).

كان أليكس قد أعدَّ طاولة غداء مؤلف من وجبات جاهزة من الدجاج المقلي مع البطاطا، وكأسي عصير، وعندما رأى عبد الرحمن المائدة أمامه رمى المنشفة بعيدًا وركض إلى الطعام: (هكذا يكون الطعام، ليس لحم كلاب). شرب كأس العصير كاملاً، ثم قال (بسم الله الرحمن الرحيم) وبدأ بالأكل بنهم وشهية، بينما أليكس يراقبه بتركيز وهو مبتسم وكأنه ينظر إلى ما بداخله.

= من مذكرات أليكس في بداية شبابه =

اجتمع المُشيِّعون حول الجنازة وكان أليكس وكين يقفان متجانبين، فلمسه كين على يده:

– أليكس، ألا تريد أن تقول شيئًا؟

– نعم بالتأكيد.

اقترب أليكس من التابوت الذي تحيط به الورود من كل صوب ووضع يده عليه، وتوقف عزف الموسيقى التراثية التي كانت تعزف على آلة «الديدجريدو»(*). تنفس أليكس بعُمق، وقال:

– جدي كان رجلاً شغوفًا بالعلم، وأحب أستراليا وحضارتها وثقافة سكانها الأصليين ومعتقداتهم، وقدَّس طبيعتها، وآمن بأن البشر في كل مكان وفي كل بقعة من هذه الأرض لا شيء يفرِّق أو يميِّز بعضهم عن بعض، هم من الطبيعة وسيرجعون إليها، وأن البشر لن يضعوا أرجلهم على أول درجة من الحقيقة إلا عندما يشعرون بأنهم شعب واحد وليس عدة شعوب، ويدافعون عن حقوق بعضهم أينما كانوا وكأنهم دولة واحدة لا عدة دول، وحتى يصلوا إلى تلك المرحلة فإن الطبيعة ستبقى تضغط عليهم باستخدام المعاناة، حتى يبلغوا تلك

* آلة موسيقى تعود للسُّكان الأصليين لأستراليا.

العقيدة، التي توحِّدهم في الدفاع عن حقوق بعضهم، فتنتفي العنصرية... لقد كان جدي عطوفًا، اعتنى بي منذ طفولتي بعد أن فقدتُ والديّ، ولم تجمعني به سوى محض صدفة، فكان أبًّا بالصدفة وخير أب، فكرَّس كل حياته لتربيتي وتعليمي... فليحفظك الكون يا جدي.

سكت قليلاً وأخذت الدموع تسيل من عينيه، ثم أضاف:

- أُحبكَ كثيرًا.

وعاد للوقوف في مكانه، بجانب كين.

= عبد الرحمن =

في اليوم التالي كان عبد الرحمن يرتدي ثيابًا جديدةً جلبها له أليكس، وارتدى أليكس ثيابه...

- أليكس، هل أنت متأكد مما تُخطِّط له؟
- بكل تأكيد، ثق بي يا عبد الرحمن.

كان على الطاولة دفتران صغيران لأليكس...

- هل يمكن أن أنظر إلى دفاترك يا أليكس؟
- نعم يمكنك.

فتح عبد الرحمن الدفاتر، والتي كانت عبارة عن جداول وكتابات باللُغة الإنجليزية:

- ما كل هذا يا أليكس؟
- أنا أُنظِّم حياتي على هذه الأجندات، وأضع مواعيد، وخِططًا لكل شيء.

أخذ عبد يتصفح الدفتر:

- أنت مُنظَّم إلى درجة هائلة، وتخطط لكل شيء.
- لقد تعلَّمتُ التنظيم والتخطيط لكل شيء من جدي منذ صغري.
- وهل خطَّطتَ لما نحن مقدمان عليه.
- بكل تأكيد، فسوف نسافر إلى لبنان وبعد ذلك إلى تركيا،

ومن هناك ستذهب إلى اليونان، وبعدها ستسير إلى ألمانيا، وتطلب اللجوء هناك، وعندها تكون قد وصلتَ إلى بر الأمان.

– على بركة الله يا أليكس.

= من مذكرات أليكس في بداية شبابه =

انصرف المشيعون ولم يبقَ سوى أليكس ووالد ساندي بجانب القبر، والذي أخذ يدور حول القبر ويرقص رقصة تعود جذورها لشعوب أستراليا الأصليين.

في تلك اللحظة حضر إلى المكان الكثير من الكائنات اللامادية والتي لم يرها سوى أليكس، وكان بينهم الملك الذي زاره في قصره، والملكة المسؤولة عن الحُب بين البشر، وكان بينهم جده ولكن بشكله اللامادي، أي بصورته وهو شاب. اقتربوا منه ونظروا إليه، فشعر بأنهم يواسونه ويخفِّفون حزنه ويدفعونه ليتقبل قانون الحياة، فلا شيء في هذا الكون، يزول، بل يتحول من شكل لآخر.

اقترب جده منه وتكلَّم معه بدون أن يُحرِّك شفتيه:

- أليكس، ها أنا أعدتُ جُزئي المادي لمالكته الطبيعة، ولدي مشوار طويل في عالم اللامادة، لكي أتعلم وأنمو، اعتنِ بنفسك يا أليكس.

وقام بضمه.

- أحبك يا جدي كثيرًا، كنتُ أودُّ أن تبقى معي ماديًّا.

- سأبقى معك دائمًا، وأزورك بصيغتي اللامادية، أما إذا أردتَ أن تُعانق جسدي المادي فعانق الطبيعة، فجسدي

أصبح جُزءًا منها.

- حسنًا يا جدي.

ابتعد الجد عنه، وأشار بيده إلى والد ساندي، كإشارة بأن يعتني به.

أومأ له أليكس برأسه وهو يودِّعه بيده ويودِّع الكائنات اللامادية والتي تضم الكثير من المعلمين اللاماديين الذين زارهم سابقًا، فأخذوا يختفون واحدًا تلو الآخر.

= من مذكرات أليكس عن شبابه =

بدأ القلق يزداد عند أليكس، فطفلتاه بخطر، وهو مُوثَق، والأمور أصبحت تسير عكس ما يريدها.

كانت ليسا تتحرك وكأنها تبحث عن شيء ما، فالشفرات التي وجدها رجال العصابة في حمالة الصدر، لم تكن بينها الشفرة التي قطعت بها الشريط اللاصق، فتلك رمتها على أرض البئر، بعد أن انتهت من استعمالها، وها هي تتلوى للبحث عنها. شاركها البحث كل من أليكس وجانيت، فبالكاد يوجد ضوء في الأسفل والجو حار والجميع يتصبَّب عرقًا.

وجدت جانيت الشفرة بعد أن جرحت يدها بها وهي تحاول التقاطها، ثم أمسكتها وبدأت بقطع اللاصق الذي يكبِّلها، ثم قطعت أشرطة أليكس وليسا.

بالقرب من فوهة البئر، كان أحد رجال تيمور يضع كرسيًّا ويجلس ليحرس المكان، وهو لا يزال يفكِّر بمنظر ليسا الجميل وهي عارية، كان يتمنى لو كان الأمر بيده لاحتفظ بها أسبوعًا أو أسبوعين قبل أن يقتلها.

في أثناء ذلك كان الثلاثة ودون أن يصدروا أي صوت يُذكر؛ يتحركون في أسفل البئر وفق تعليمات ليسا، فجثا أليكس على ركبتيه وصعدت جانيت فوقه ووضعت رجليها على كتفه

وتوثقت بشعره وبقيت جاثية على كتفه، ثم اتنصب أليكس واقفًا، ثم انتصبت جانيت التي تقف على كتفيه بحذر، وما بقي على ليسا سوى أن تتسلقهما بهدوء لكي تصل إلى الأعلى فأخذت بالتشبث بأليكس والصعود ببطءٍ محُاوِلةً ألا تُصدِر أي ضجيج.

كان الرجل الذي يحرس البئر في الأعلى، ضخمًا ومفتول العضلات، وقد أُعطِي تعليمات صارمة بألا يفارق البئر حتى يشتم رائحة الجثث بعد موتها، فتوجه إلى المطبخ وأعدَّ فنجانًا من الكابتشينو، وعاد باتجاه كرسيه القريب من فتحة البئر، وهو لا يزال غير قادر على إبعاد صورة ليسا عن خياله، ولا يستطيع تصديق أنه سيتركها تموت وهي بهذا الجمال دون أن يستمتع معها ولو لساعة واحدة قبل ذلك، وتمنى لو أن القرار بيده. وعِوضًا عن ذلك أخرج مصباحًا كهربائيًا من جيبه قائلاً في نفسه: (سأُضيئ عليها وأتأمل جسدها من الأعلى).

وعندما اقترب من فوهة البئر كانت ليسا قد بلغت بقدميها كتفي جانيت، وبسرعة وقبل أن تنهار جانيت دفعت نفسها وأمسكت بحافة البئر، فسقط أليكس وجانيت بسبب وثبة ليسا تلك، ثم رفعت جسدها ليصبح نصفه فوق البئر ويداها منتصبتان على الحافة تحملانها.

تفاجأ الحارس المتوجه إلى البئر، وفزع من ظهور ليسا المفاجئ بمنظر نصف جسدها العاري فائق الروعة، وهو الذي كان يحلم به، وكأن خياله وما يريد تحقق فجأةً بمعجزة،

فانسكب كأس الكابتشينو على جسده من المفاجأة. وقبل أن يستدرك الموقف رمت ليسا جسدها باتجاهه، وأمسكت برجليه بقوة وضمتهما إلى صدرها، ثم دفعت بنفسها إلى داخل البئر من جديد، فانزلقت هي والحارس باتجاه قعر البئر، ولكن الحارس تمسك بحافة البئر، وأخذ يصرخ مناديًا رفيقه الذي يقف خارجًا، فأخذت ليسا المتمسكة بقدمية تتسلقه للأعلى مما أدَّى إلى انزلاق ثيابه وسرواله من تشبثها به وصعودها، وهو يصيح بكل قوته، ليسمعه شريكه في الخارج. استطاعت ليسا أن تخرج من البئر بالتسلق على رجل العصابة.

(وكأنها ملاك عارٍ سقط من السماء بزلة قدم)، كان الحارس المتشبث بحافة البئر يقول ذلك لنفسهِ، متأملاً جسد ليسا الرائع أمامه بعد أن أنهت تسلقها، وصعدت خارج البئر، والتفتت باتجاهه، وهو يتأملها، ويصرخ لصديقه، ومفتون بمنظرها، ثم وجهت له ركلة قوية، فسقط إلى أسفل البئر حيث بدأ كل من أليكس وجانيت بلكمه وضربه.

سحب الحارس؛ الذي يقف خارج المنزل؛ مسدسه، بعد أن سمع النداء، ولقمه، واتجه إلى باب الغرفة مُسرِعًا.

= عبد الرحمن =

سافر عبد الرحمن بصُحبة أليكس إلى لبنان، ومنها إلى تركيا، وطوال هذا الطريق لم يتوقفا عن الحديث، وخصوصًا عن موضوع مذكرات أليكس وعن الطريقة التي صاغاها عبد الرحمن بها وما اختصره منها...

- لقد حذفتُ الكثير من مذكراتك يا أليكس.

- مثل ماذا؟

- مثل تفسيرك للامادة، وكلامك بأن لكل جسم مادي جزء لا مادي وأن اللامادة أسرع كثيرًا من الضوء وهذا ما يجعل بُعد الزمن مختلفًا بيننا وبينها، وربط ذلك ببعض النظريات التي تخص أينشتاين وميكانيكيا الكم.

ابتسم أليكس:

- يبدو أنك تفهمها نوعًا ما، فلماذا لم تضعها؟

- في الحقيقة تبدو غير منطقية.

ابتسم أليكس:

- كل مذكراتي غير منطقية، بل ما حذفته هو أكثر جزء منطقي بها.

- حسنًا وحذفت أيضًا حديثك عن معلومات أثرية لشعوب أستراليا، والكثير من النظريات العلمية، وتفسيرك

لبعض اللغات القديمة وما كانت تتحدث به عن لغة اللامادة فلم أفهمها فحذفتها.

- حسنًا.

- وكذلك حذفتُ الكثير من تجاربك العاطفية وأنت يافع فلم أستطع أن أكتبها، حتى أن وجنتيّ احمرتا وأنا أقرأها، فكيف لي أن أكتبها؟

ضحك أليكس:

- مثل ماذا يا عبد الرحمن؟

- الكثير.

- أعطني مثالاً.

- مثل الفتاة التي في السنة الثانية في الجامعة التي وضعتْ تحديًا جنسيًا غريبًا على طلاب الصف الذكور، هل يوجد فتاة تضع مثل هذا التحدي؟

- نعم، ولكني لم أشارك.

- نعم لم تشارك، ولكنك كتبتَ بأنك بقيت طوال الليل تُفكِّر بها، وتتمنى لو شاركت.

- لقد كنتُ يافعًا.

- هذا ليس عُذر، ولا تخجل يا أليكس فأنا لو كنت مكانك لشاركت في هذا التحدي ولانتصرت بلا شك.

ثم أردف عبد الرحمن:

- كذلك حذفت معسكر التخييم الذي أقمته مع أصدقائك وأنت في السنة الثالثة من الجامعة، أهكذا يكون التخييم؟!

- لقد كنتُ يافعًا، هذا ما حدث.

- ولكني أعدك بأني سأعود وأكتب ما حذفتُه من مذكراتك بهذا الصدد.

وأخذا يضحكان.

- اسمع يا عبد الرحمن ربما أخطأتُ بأني أعطيتك كل مذكراتي، كان يجب أن أحذف فترة المراهقة على أقل تقدير.

- لا يا أليكس، فلولا هذه الذكريات التي حذفتها بالتحديد لما قرأت مذكراتك بالأصل، فأنا كنت أقرأ مذكراتك لأبحث عن هذه التفاصيل فأطالعها.

وأخذا يضحكان.

- لقد أصبحتَ تعرف كل شيء عني، فلماذا لا تخبرني أنت بقصصك وأنت مراهق وأول تجربة عاطفية لك؟

- لا أنصحك بذلك يا أليكس، فقصصي محزنة.

- أخبرني، لقد فرحتُ كثيرًا هذا الأسبوع وأرغب بأن أحزن قليلاً.

- حسنًا، لكن لا تلمني بعد ذلك.

- لن أفعل.

- عندما كنتُ صغيرًا وبعد أن توفي والديّ في مجزرة حماة في الثمانينيات حيث دُمِّر حينا بالكامل ودخلت الدبابات إلى الحي مسّويةً البيوت بالأرض وقُتِل الجميع، لقد قيل إنه لم ينجُ أحد من حينا إلا أنا، وأن عدد القتلى في كامل حماة وصل إلى الأربعين ألف شخص، وفقد خمسة عشرة ألف شخص،

ولكني كنت صغيرًا جدًا عندها فلا أتذكر الكثير عن ذلك ولا أتذكر شكل والديّ حتى، وعندها أخذني مختار الحي المجاور إلى دمشق وسلمني إلى أقاربي من جهة أمي وعشتُ معهم هناك، إلى أن أصبحت يافعًا. كنا في حارة محافظة للغاية بل لنقل مُتزمتة، فلا يوجد أي تقارب بين الرجال والنساء سوى بالزواج، والنوافذ يُوضع عليها ألوح معدنية لكي لا يُرى ما في داخل البيوت وبذات الوقت لا يستطيع من بداخلها أن يروا ما في الخارج، ولكنها تسمح بمرور الهواء من جوانبها. وفي ذلك الزمن كان لدينا جار قد تزوج حديثًا وكانت زوجته تقوم بنشر الغسيل على سطحها في يومي الاثنين والأربعاء من كل اسبوع وكان يفصل بين سطح البيت الذي آواني وبيتها حائط بارتفاع ثلاثة أمتار لمنع الرؤية، فقمتُ ببناء درج، من قطع الطوب المستطيلة «البلوك»، ولكي لا يلاحظ الوصي علي هذا الدرج، كنت أفكه وأعيد قطع البلوك إلى مكانها بعد أن أنتهي من استخدامه في النظر إلى جارتنا وهي تنشر الغسيل.

قال أليكس مازحًا:

- حسنًا، هذا جميل يا عبد الرحمن.

- اصبر، اصبر، المصائب قادمة، كنتُ يافعًا ومندفعًا، أراقبها دون أن تنتبه لي، كانت جميلة، ولم أكن أبتغي شيئًا سوى أن أراها، فأنا أعرف جارنا وأحترم الجيرة، وكنت أظن بأنها لن تنتبه لي، ولكنها كانت مُنتبهة وتسمع حركتي وبنائي للدرج وصوت أنفاسي من وراء الجدار. وفي أحد أوقات التلصص تلك وبينما أرفع رأسي من فوق الحائط لأسترق النظرة؛ رأتني

وابتسمتْ، انزلقتُ خلف الحائط وأنا أشعر بالخجل الشديد وبخوف عارم، ولكن ظلت ابتسامتها عالقة في ذهني، وبعد قليل عاودتُ الكَرة ورفعتُ رأسي لأنظر وأفهم ما تريده مني بالضبط، فأومأتْ لي بيدها وهي مبتسمة، فانزلقتُ مرةً أخرى خلف الجدار، وشعرتُ بأن شيئًا ما يثبتني خلف الجدار، ثم تمالكتُ نفسي ورفعت رأسي للمرة الثالثة، ولم أنزلق في هذه المرة، فأومأت لي بيدها وقالت: (تعال) فتسلقتُ الجدار، وهبطتُ على سطح منزلهم، وحدث ما يحدث عادةً في مثل هذه الظروف...

سأل أليكس:

- وما الذي يحدث عادةً في مثل هذه الظروف؟

- كفى يا أليكس استخدم خيالك فأنا لست من أستراليا، فلا يمكنني أن أشرح الأمور بالتفصيل.

- حسنًا، أكمل يا عبد الرحمن.

- وبعد أن حصل ما يحصل عادةً في مثل هذه الظروف، عُدتُ راكضًا وتسلقتُ الجدار. وبعد ذلك تكرر الأمر عشرات المرات.

علَّق أليكس:

- كما تتكرر الأمور، في مثل هذه الظروف.

- بالضبط يا أليكس. ولكن في المرة الأخيرة فاجأتنا والدة زوجها بالصعود إلينا، فقد صعدت السلالم على رؤوس أصابعها لكي، لا يشعر أحد بها وباغتتنا، فدفعتني جارتنا

فتدحرجتُ نصف عارٍ على أرض السطح الإسمنتية، وصاحت بي: (اهرب يا جحش). ودون أن ارتدي ملابسي بشكل كامل وقفتُ على عجل وتسلقت الجدار ورميت نفسي إلى سطح بيت الوصي علّي، وجرحت يدي ورجلي، وسمعت صياح جارتنا ووالدة زوجها. وعندما عاد الزوج سمعت صوت جارتنا وهي تصرخ وتبكي من الضرب الذي أصابها، فبقيتُ أشعر بتأنيب الضمير والعار فترة طويلة من حياتي وكنت أعاقب نفسي بالجلد بحزام جلدي على ظهري كعقوبة شرعية لما فعلته، علَّ الله يغفر لي. وفي كل يوم أحلم به بأني قفزت عن الجدار مجددًا أقوم بإعادة العقاب بالجلد وأعد من جديد ليكتمل النصاب الشرعي وكأني لم أضرب نفسي سابقًا، حتى أن بعض علامات الحزام الجلدي لا تزال على ظهري حتى اليوم، ولم أتوقف عن معاقبة نفسي ولم يتوقف الحلم عن مراودتي كذلك الأمر. وبعد عامين من ذلك رأيتها في السوق وعندما اقتربتُ منها رفعتْ الإيشارب وابتسمتْ لي فعلمتُ بأنها لا تتعذب مثلي، ومن ذلك الوقت لم أعد أشعر بالندم وتوقفتُ عن معاقبة نفسي، وكذلك لم يعد الحلم يراودني، ولكني ابتعدت عنها نهائيًا... هذه هي التجربة العاطفية، أقصد اللا عاطفية، هل أعجبتك؟

- إنها غريبة يا عبد الرحمن.

- بل قُل مأساوية.

= من مذكرات أليكس عن شبابه =

لقم رجل العصابة مسدسه وفتح باب الغرفة، ولكنه وجدها خالية، ثم سمع صوت صديقه يستنجد وهو يتلقَّى الضربات في أسفل البئر، فركض إلى فوهة البئر ليرى ما الذي يحدث وهو مُشهِر سلاحه، وعندما نظر للأسفل رأى شريكه، وأليكس وجانيت يركلانه ويضربانه، ثم وجد نفسه يسقط باتجاهه مباشرةً. سقط فوق زميله الذي كان يراه يتلقى اللكمات وها هو الآن من يتلقى الركلات من أليكس وجانيت بدلاً عنه، فلقد تلقى دفعه قوية من ليسا التي كانت تختبئ خلف باب الغرفة عندما دخل، بينما شريكه الذي تلقى الكثير من الركلات واللكمات والدماء تنزف من أنفه كان ينظر إلى أعلى البئر حيث تقف ليسا العارية، وتنظر للأسفل، ويُتمتم صوت متقطِّع: الملاك... الملاك الجميل الشرير).

رمت ليسا حبلاً إلى أسفل البئر وتوجهت إلى الخزائن لتبحث عن ثيابها، بينما أليكس يساعد جانيت على الصعود. وجدت ملابسها وارتدتها، وخرج الثلاثة من الغرفة راكضين، ركبوا سيارة رجال تيمور المركونة أمام المنزل وانطلقوا بسرعة.

أرادت ليسا التوجه إلى قسم الشرطة، لكن أليكس وجانيت أصرَّا أن يذهبا في البداية إلى منزلهما لجلب طفلتيهما، فنزلت ليسا عند رغبتهما وتوجهت إلى منزل جد أليكس وقامت

بالاتصال برئيس قسم الشرطة وأخبرته عن الشرطي العميل في القسم وأعطته كل المعلومات اللازمة.

عندما ووصلوا إلى منزل الجد كانت سيارات الشرطة تملأ الرحبة، وكذلك الصحفيون. نزل أليكس من السيارة وأخذ يركض ويبعد الشرطة والصحفيين الذين يعترضون طريقه، وجانيت تتبعه، دخل إلى المنزل ولم يستجب لرئيس قسم الشرطة الذي كان يناديه، بل تابع الركض إلى الباب السِّري وقام بفتحه، وجانيت في أثره، فبدأت خزانة المكتبة بالتحرُّك وبدا الباب السري، سألته جانيت:

– ما هذا؟

– هُنا كانت تختبئ المُربِّية والطفلتان.

ولمَّا فُتِح الباب رأى بركة من الدماء، ممتدة على الأرض، فشعرا بالرعب والضياع، صاحت جانيت بأعلى صوتها لطفلتيها: (سكارليت – أرورا) دون إجابة. لم يكن أليكس يقوى على التفكير، وخصوصًا بعد أن رأى الدماء وأخذت تراوده أفكار بأن طفلتيه قُتلتا، وهذه الدماء عائدة لهما.

وبينما هو يهم بدخول النفق أمسكه أحدٌ من كتفه. نظر إلى الخلف، كان رئيس قسم الشرطة:

– أليكس، لقد وجدتُ المربية فانيسيا مصابة بعيار ناري وقد استقر بالقرب من قلبها وهي الآن بغرفة العناية المشددة بالمشفى، أما الطفلتان فلا يوجد لهما أي أثر، وقد بحثنا في كل مكان وفي داخل هذا النفق.

أُصيبت جانيت بنوبة من الرعب، وصرخت: (لنبحث أكثر). ثم اندفعت تركض داخل النفق وهي تنادي باسميهما، بينما أليكس توجه إلى الخارج وأخذ يبحث في الرحبة الخارجية وبين الأشجار علَّهما قد اختبئا هنالك.

ثم فكَّر أن يستخدم قدراته اللامادية ليجدهما، ولكنه كان متوترًا ولم يستطع أن يغادر جسده، فهو لا يقوى على تمالك نفسه، فأخذ يضرب رأسه بساق شجرة، ثم توقف عن ذلك وجثى على ركبتيه تحت الشجرة، وبدأ يتنفس من فمه محاولاً تهدئة نفسه ليقرر ما يجب عليه أن يفعل، ثم سمع رنين هاتف خليوي في جيبه، والذي وجده في سيارة الخاطفين. ظهر على شاشتهِ، رقم من دون اسم، فتح الخط وقال:

- مَنْ معي؟

- مَنْ أنت؟

- أنا أليكس.

- أليكس الحبيب، جميل بأنك من رددت علي، عرفتني أليس كذلك؟؟ أنا من خطفتَ حبيبته.

- مَنْ معي؟

- اسمع يا أليكس، إن المشكلة هي بيني وبينك فقط، فتعالَ وحدك إلي ولن تتأذى أي من طفلتيك، وإياك أن تحاول اللعب معي، في حال أردت أن تبقى طفلتاك تتنفسان.

- أين أنت؟

- أنت تعرف أين أنا يا أليكس، كما تعلم اسم ببغاء جالا

واسم والديه.

ثم أغلق الهاتف.

كان أليكس متوترًا، وأخذ يفكر بما قصد تيمور من كلامه، ثم عادت لعقله ذكرياته عندما تعارك مع تيمور فعندها أخبره أنه يعلم اسم الببغاء واسم أبيه وأمه...

- (إنه في المقبرة الجماعية).

وانطلق يركض باتجاهها بأقصى سرعتهِ عبر الغابة كسهم انطلق من قوسهِ.

= عبد الرحمن =

كان أليكس وعبد الرحمن لا يتوقفان عن الحديث، إلا عندما يغفوان في الباص أو الطائرة، أو عندما يأكلان. نزلا قرابة الأسبوعين في فندق في تركيا، حتى أمَّن المُهرِّب قارب التهريب لنقل المهاجرين.

وبينما كانا ينتظران على الشاطئ، حتى يهدأ موج البحر ليأذن لهما المُهرِّب بالعبور. كانت صور الأطفال الذين يغرقون وتطفو جثثهم على الشاطئ تملأ وسائل الاعلام والصحف هناك، وخصوصًا صورة الطفل «إيلان السوري» والتي لا يمكن لشخص أن يراها دون أن يبكي، والتي لم تغب عن مخيلة عبد الرحمن طوال وجوده في تركيا.

وفي الوقت الذي حدَّده المُهرِّب وقف كُلٌّ من عبد الرحمن وأليكس على جانب الشاطئ ليودِّعا بعضهما، فأليكس لن يُكمل الرحلة، بل سينفصلان هنا.

- لماذا لا تبقى معي يا أليكس؟

- عليَّ أن أسافر إلى روسيا.

- وما لك في روسيا؟

- صديقتي ساندي هناك، وأريد زيارتها.

- ساندي التي تحدثتَ عنها في المذكرات، ابنة المزارع كين، إنها صديقة طفولتك أليس كذلك؟

– نعم هي، فقد تزوجتْ من رجل روسي، وتعيش معه في روسيا، وبما أني أتممتُ مهمتي، فقد قرَّرتُ أن أزورها، لأرى إن كانت لا تزال تحاول سحب لعبتها بخيط كما كانت وهي صغيرة.

وضحك.

– حسنًا، ولكني سأشتاق إليك كثيرًا يا أليكس. أخبرني ماذا أُسمِّي مذكراتك بعد أن تحولت إلى رواية؟

– سمِّها ما شئت، فيمكنك أن تُسمِّيها اِسمًا يخصك أنت، وليس بالضرورة أن يخصني.

– حسنًا، ما رأيك باسم (كل شيء عن أليكس)؟

– ولكنك أضفتَ إليها أشياء عن حياتك.

– أخبرني يا أليكس ما الذي أردته من تحويل هذه المذكرات إلى رواية؟ هل أردتَ أن يعلم الناس بوجود كائنات لا مادية تحقّق العدالة، لكي يتعاملوا مع بعضهم بطريقة أفضل ودون حروب؟

– لا يا عبد الرحمن، لا أتوقع أن الناس سيستفيدون من هذا الأمر بشيء.

– ولا تريد الشهرة، فأنت لا ترغب في أن أكتب اسمك الكامل فيعلم الناس من تكون.

– نعم، لا أريد أن يعلم أحد مَنْ أنا.

– ولا تريد المال.

– نعم. لا أريد أي مال من نشرها.

- إذن لماذا تريد أن تنشر هذه المذكرات؟

- من أجلك.

نظر عبد الرحمن إلى أليكس مستغربًا:

- من أجلي؟!

- حسنًا، سأخبرك بأمر لا تعلمه، عندما كنتُ يافعًا قامت اللامادة بتوكيلي برعاية الكثير من البذور الجيدة...

- وما هي البذور الجيدة؟

- هم أناس سوف يصبحون مثلي، وبعد ذلك سيصبحون جُزءًا من اللامادة القائمة على تحقيق العدالة الكونية وتوزيع السعادة والحُب على البشر، فكان هنالك العديد من الناس الذين أعتني بهم، وكنت أنت أول شخص أُوكلت به، وقد عرفتك منذ أن كنتَ طفلاً، وكنتُ أزورك بصورتي اللامادية...

- أكمِل.

- وقد أحببتك كثيرًا، لأن فيك شيئًا يُشبهني، وخصوصًا بتفاصيل حياتك، فلقد فقدت والديك وأنت صغير بأحداث «حماة»، ولكنك لم تجد من يرعاك مثلي، فبنيتَ نفسك بنفسك.

- نعم.

- وكنتُ أراقبك وأنت تحلم، وعندما كنت تذهب إلى المسجد وأنت صغير وتبقى تدور في مكانك حتى تدوخ وتسقط على سجاد المسجد، وأحيانًا تصيح وتصدر أصواتًا من خيالك فيأتي إمام المسجد ليطردك ورأسك مليء بالأحلام...

كان عبد الرحمن ينظر إلى أليكس مُستغربًا.

- ... وعندما أصبحتَ يافعًا كنتَ تتمنى أن تصبح كاتبًا وكان هذا الحلم لا يفارقك واستمر معك طيلة حياتك، ولكنك لم تكن تملك القصة، لذلك جئت من تلك البلاد، أولاً لأساعدك وأنقذك من الحرب، وثانيًا لأعطيك القصة التي كنت تحلم بها، وليس أية قصة، بل قصة لا يستطيع أحد أن يعطيك إياها سواي.

استمر عبد الرحمن بالنظر إلى أليكس وهو مندهش دون أن يتلفظ بأي كلمة.

ثم حاول أن يتقبل الموضوع كما تقبَّل سائر المواضيع الغريبة التي أتى بها أليكس، وقال:

- ولكن يا أليكس هل أبدو لك كبذرة جيدة؟ فأنا ثمرة كاملة، أنظر إنها ثمرة مكتملة.

وحرَّك كرشهً بيديه.

فأخذا يضحكان.

= من مذكرات أليكس عن شبابه =

وصل أليكس الشاب لاهثًا إلى مكان المقبرة، فوجد تيمور يقف في وسط المقبرة وقد حفر قبرًا، وبجانبه رجلان يمسك كل واحد منهما بطفلة من طفلتي أليكس، ويصوب المسدس إليها. كانت الطفلتان موثقتين وأفواههما مكممة بلاصق، وكانتا تبكيان وتتلويان في أيدي الرجال الخاطفين.

توجَّه أليكس باتجاه تيمور:

– تيمور، ها أنا، افعل بي ما تشاء، ولكن اترك الطفلتين فليس لهما علاقه بالأمر.

كانت الطفلتان تبكيان وهما تريان والدهما وهو يوشك على الانهيار خوفا عليهما.

نظر إليهما وقال:

– لا تخافا، ستكون الأمور على ما يرام.

ضحك تيمور:

– لا يا حبيبتاي بل خافا، فلن تكون الأمور على ما يرام... هيا يا أليكس قبل أن تشهد موتك وتشهد موتهما اركع أمامي وأخبرني ما هي أسماء ببغاوات جالا في هذه المنطقة.

جثا أليكس على ركبتيه ووضع رأسه على الأرض وهو يشعر بانهيار عام في طاقته وكأنه فقد كل قوته الجسدية ولا يعرف ما الذي يجب عليه فعله، كان يعلم أن تيمور مجرم وقد

يقتلهما في أية لحظة وينفذ تهديده، شعر بأن قلبه يوشك على التوقف وبأنه لا يستطيع أن يحرِّك حصى واحدة على الأرض، ولا يستطيع أن يُفكِّر أو يجد أي حل.

أغمض عينيه وبدأ يبكي ووضع رأسه على التراب، وعندها وجد روحه تغادر جسده لتكون في عالم لا مادي بالمطلق وحوله الكثير من الكائنات اللامادية، منها مُعلِّمون قد تعرف عليهم سابقًا. نظر حوله متأملاً المئات من الكائنات اللامادية التي حوله، ومن ثم رأى الملك الذي زاره في القصر يتجه نحوه. شعر أليكس ببعض الأمل فتوجه نحوه:

- أرجوك أيها الملك، أعلم بأن اللامادة لديها قوانين صارمة وهي لا تتدخل بعالمنا المادي بشكل مباشر، ولكني أتوسل إليك أن تتجاوز هذه القواعد لمرة واحدة، إنهما طفلتان صغيرتان وليس لهما أي علاقة بأخطائي، فإن كان لي أي مكانة أو معزة؛ فلتفعلوا شيئًا، وتنقذوهما.

كان الملك هادئًا ومتزنًا، شعر أليكس بأن الملك سيجيبه الإجابة المعتادة: (قانون اللامادة يمنعنا من التدخل بالحياة المادية بشكل مباشر، هذا قانون كوني). اقترب الملك من وجه أليكس وقال له:

- طبعًا سنتجاوز كل القوانين من أجلك يا أليكس، ومن أجل طفلتيك.

ابتسم أليكس وبدأ قلبه ينبض، وأحسَّ بأن الأمل يعود لنفسه. قبل أن يُكمل الملك كلامه:

- ولكن ليس في هذه المرة.

= عبد الرحمن =

كان نسيم البحر البارد على شاطئ تركيا في ذلك المساء يصطدم بجسديهما، ويحرِّك شَعْر أليكس الطويل الموشَّح بالبياض، وقد بدت على وجهه علامات طفيفة تُنبئ بالتقدُّم بالسن. كانا ينتظران الموج ليهدأ أكثر، لينطلق مركب المُهرِّب.

نظر عبد الرحمن إلى أليكس فرآه جميلاً وكأنه نبتة طبيعية أو شجرة تنتمي إلى الطبيعة بكل جوارحها فكَّر في نفسه: (كيف كنت أراه مغفلاً عندما كان يزورني في المكتب، والآن أشعر بأنه حجر نحتته مياه البحر؟ إنه ينتمي للطبيعة بشكل مُلفِت).

شعر بأن أليكس هو والده ووالدته أيضًا، إنه أكثر من كونه صديق بل هو مرشده، وشيء ما يخصه، وفكَّر في نفسه: (هل يُعقل بأن ما أورده بمذكراتهِ صحيح، وبأنه يعرفني منذ صغري وكان يزورني بين الحين والآخر بجزئه اللامادي؟ لا أعلم، ولكني أشعر بأنه قريب من روحي لدرجة كبيرة).

ارتدى عبد الرحمن سترة النجاة المنتفخة متهيئًا للصعود بالقارب، عندما يأذن المُهرِّب بذلك، وقال:

- هل تتوقع أن أتمكن من التأقلم مع الحياة في ألمانيا؟ فهل سأتمكن من التعامل مع الناس هناك، وهل سأنسى الحجارة والبيوت والياسمين والأحلام والهموم التي في بلدي؟

وبدأت عيناه بذرف الدموع، قبل أن يُكمل:

- هل سيأتي يوم يا أليكس ونرى حكومة لسوريا تحقق الحرية والعدالة؟ فكل ما نريده أن نحيا بكرامة، وأن نأكل ما نريد ونُحب من نريد، وأن يكون لكل منا منزل، وألا يكون هناك استعباد، وأن نعيش بحرية وكرامة... هل هذه الأمور صعبة التحقيق؟! لماذا هذا الأمر يبدو عسيرًا رغم بساطته؟

وضع أليكس يده على كتف عبد الرحمن:

- سيحدث ذلك في يومٍ ما.

- أليكس، لماذا لا تجعل الكائنات اللامادية تساعدنا في ذلك؟

- اللامادة تساعد الأفراد، وليس الدول.

- لماذا لا تتحدث معها لكي تساعد الدول أيضًا، فأنت مُقرَّب بالنسبة لها.

ضحك أليكس:

- سأُجرِّب، ولكن لا أعِدك.

- لا تعطي الأمر بالاً، لن أحرجك معهم؟

وأخذا يضحكان.

- أليكس، قبل أن تغادر أخبرني إلى من أُهدي مذكراتك؟

- أهدها إلى فتاة تحبها يا عبد الرحمن وجعلتك تحب الحياة.

- لا يوجد يا أليكس، كل من عرفتهم جعلوني أكره الحياة.

ضحك أليكس:

- إذًا اهدها إلى من جعلتك تكره الحياة أكثر من غيرها.

= من مذكرات أليكس عن شبابه =

نظر أليكس مستغربًا إلى الملك:

– ماذا؟!! هل تقصد بأنك لن تساعدني هذه المرة؟ فلن أحتاجكم غيرها، فطفلتاي مخطوفتان!

– لن نساعدك يا أليكس في أمر يمكنك أنت أن تقوم به بنفسك.

وبعد ذلك اختفى كل شيء حول أليكس وعاد ليشعر بجسده المادي الثقيل، ففتح عينيه ورفع رأسه عن الأرض بعد أن فهم وأدرك مقصد الملك، وقال:

– أنا لا أعرف أسماء ببغاوات جالا فقط يا تيمور، بل أعلم كم أنت أناني لدرجة أنك قتلت أخاك.

اتسعت حدقتا تيمور وتفاجئ فلا أحد يعلم بقتلهِ لأخيه في كل العالم:

– أخي سقط في جُرف النهر ومات، ولم يقتله أحد.

– نعم هو مات بهذه الطريقة، لكني أتحدث عن الذي دفعه ليسقط في ذلك الجُرف.

نظر الرجلان إلى زعيمهما مستغربين هذا الكلام.

اقترب تيمور من أليكس:

– من أين تأتي بمعلوماتك يا أليكس؟

– إن تربيتك التي ارتكزت على تملُكك كل شيء، أعطتك أسوء الصفات يا تيمور، وأدَّت بك إلى التخلُص من أخيك.

قرَّب وجهه وهمس في أذن أليكس:

– لم أقصد ذلك.

– بل قصدت، فلقد انزعجت من كلام أخيك، لأنك لم تستطع أن تكون هادئًا وذكيًا ومحبوبًا مثله، فقُمتَ بدفعه إلى الجُرف، وبعدها عُدتَ باكيًا إلى المخيم طالبًا النجدة له بعد أن بقيتَ عشر دقائق جالسًا لا تفعل شيئًا سوى النظر إلى المكان الذي سقط به، أليس هذا ما حدث؟

كان تيمور مُتفاجئًا جدًا، فقد كان يافعًا، ولم يكن هنالك أحد ليرى هذه الوقائع القديمة، فكيف علم بها أليكس؟!

وفجأة اندفع أليكس وأمسك بتيمور والتف حوله حتى أصبح خلفه تمامًا، وأمسكه وثبَّته من الخلف ورمى به وبنفسه في حفرة القبر جاعلاً جسد تيمور فوقه وهو يثبت يديه؛ وخصوصًا اليد التي يحمل بها المسدس.

استدار الرجلان واقتربا من أليكس وتيمور محاولين تصويب مسدسيهما باتجاه أليكس.

= عبد الرحمن =

ودَّع عبد الرحمن أليكس، وانطلق قاربه ليلاً، وهو يراقب طيف أليكس على الشاطئ يتأمله من بعيد، حتى زال نهائيًا.

ومع اهتزاز القارب، أخذ عبد الرحمن يتمنى ألا يغرق القارب، فهو لا يُحسن السباحة، رغم أنه متأكد بأنه لن يغرق، فهو يتذكر عندما اصطحبه أصدقاؤه إلى المسبح وأخبرهم أنه لا يعرف السباحة ولكنهم أصروا على نزوله إلى المياه، ومع ذلك لم يغرق، وعندها دُهش الجميع، فقد طفا دون أن يحسن السباحة، ودون أن يحرِّك شيئًا في جسمه، وقد أرجع ذلك إلى كرشه، فهو كالبطيخة العائمة فوق الماء.

وبينما ينظر إلى البحر من قارب التهريب المطاطي المكتظ بالركاب ويراقب الأمواج السوداء المتلاطمة؛ قال في نفسه: (لن أغرق، حتى لو انقلب القارب؛ فسأطفو مثل البطيخة، فكرشي معي).

وبينما المهاجرون متلاصقين في القارب شعر بوحدة عارمة، وتمنى لو أن أليكس معه، ليؤنس وحدته، أو صديق طفولته «أكرم»، أو أي أحد آخر.

بعد هذه الأمنية بلحظات، أحسَّ بيد تهزه:

– أستاذ عبد الرحمن؟

- من؟

لقد كان شابًّا ملتصقًا به، نظر إليه في الظلام وبضوء مصباح يحمله أحد الركاب عرفه، لقد كان موكِّلاً له في إحدى الدعاوى.

تحرَّك الشاب حتى أصبح ملتصقًا به، ووجهه قريب جدًا من وجهه، وبدأ يتحدث إليه:

- كيف حالك يا أستاذ عبد الرحمن؟ أنت أيضًا مهاجر مثلنا؟ مع أنه كان لديك عمل ودعاوى كثيرة في البلاد... كيف تركت كل ذلك؟

كان يتحدث ويتحدث ويختلق آلاف الأحاديث ووجهه يكاد يلتصق بوجه عبد الرحمن، وكانت رائحة فمه كريهة للغاية، فكَّر عبد الرحمن:(ربما أحد أسنانه متسوس؛ أو كلها) ثم كتم نفسه، حتى كاد أن يختنق، وكان يحرك وجهه يمينًا وشمالاً بين الحين والآخر علَّه يجد هواءً نقيًّا، ولكن مساعيه تذهب سدى، فرائحة الأسنان المتسوسة تحيط به على مسافة متر من كل جانب...

تابع الشاب الحديث:

- هل رأيت يا أستاذ عبد الرحمن كيف كل دول العالم يتفرجون علينا ونحن نُقتَل؟ فهم لا يفكرون سوى باقتسام الثروات بينهم، ونحن نقصف بالكيماوي والأطفال يموتون، أعدلٌ هذا يا أستاذ عبد الرحمن؟

كان عبد الرحمن يذهب بوجهه يمينًا ويسارًا للتهرُب من رائحة أضراس هذا الشاب...

- حتى المسلمون لا يهتمون لأمرنا، ليتهم لم يكونوا مسلمين، لما عتبت عليهم. وها نحن نُباع عبيدًا لكافة دول العالم ولا أحد يهتم بشأننا، نهاجر لنعمل بأقل الأجور، ولا يوجد أي دولة تزوِّد الثُّوار بأي سلاح للدفاع عن أنفسهم ضد الطائرات على أقل تقدير، في أي عالم أمسينا يا أستاذ عبد الرحمن؟ كل أفراد العالم على البحر للاستجمام، والسوريون على بحر من الدماء. هذه رسمة كاريكاتورية لـ«علي فرزات» يا أستاذ عبد الرحمن والذي كسروا له أصابع يديه لكي لا يرسم فأصبح يرسم بأصابع رجليه. فأخبرني من يبالي سوى بالنقود؟! فلتحل اللعنة على العالم كله.

كان كلام هذا الشاب يمكن التفكير به وسماعه، ولكن رائحة أضراسه لا يمكن التعامل معها بالمطلق، أوشك عبد الرحمن على الاختناق فأصبح يرجو أن ينقلب القارب ويسقط الجميع وحتى لو غرق، فالمهم أن يبتعد عن رائحة فم هذا الشخص، وفكَّر في نفسه: (وكأنه صار له شهر صامتًا ويخزِّن الكلام في أضراسه المتسوسة، ثم يرسله إلي الآن). أخذ يدفع القارب بمؤخرته علَّه ينقلب، ثم وضع أنفه تحت ثيابه باحثًا عن هواء نقي، ولكن هذا أيضًا لم ينجح، فكأن الرائحة قد تغلغلت في جلده أيضًا...

- يا أستاذ عبد الرحمن أنا أجيد التحليل السياسي، لو علمتْ بي الإذاعات الإخبارية لوضعوني بدل ذاك المذيع ما كان اسمه؟ ما كان اسمه؟ فيصل القاسم، هل تعرف ما الذي كنت سأفعلهُ؟

أجاب عبد الرحمن ورأسه في ثيابه:

- لا أريد أن أعلم.

- بلى يجب أن تعلم، كنت سأجلب الضيوف وأقول موضوع الحلقة وما الرأي والرأي المعاكس له، وقبل أن يبدأوا الكلام أقوم وأطردهما كليهما وأقول الحقيقة الخالصة فالحقيقة واضحة ولا تحتاج لكل هذا الجدل، ما رأيك بهذا الكلام يا أستاذ عبد الرحمن أليس منطقيا؟

فكر عبد الرحمن في نفسه ورأسه داخل كنزتهِ (لم يعد هناك شيء منطقي في ظل هذا التسوس).

صاح أحد الركاب:

- هناك قارب يتوجه نحونا، إنهم خفر السواحل اليوناني.

فرح عبد الرحمن وكأن أحد قال له ستدخل الجنة دون حساب، فدفع الشاب حتى ابتعد عنه ووقف وصاح: (وصلنا أخيرًا)، ورمى نفسه في الماء وبقي متمسكًا في القارب، ثم أخذ نفسًا عميقًا من جانب الأمواج وقال: (الموت غرقًا بالماء أهون من الموت خنقًا بفم ذلك الشاب، لم أعد أشعر بالوحدة من الآن بل صرت أشتهيها، من أين أتاني هذا؟).

= من مذكرات أليكس عن شبابه =

لم يستطع الرجلان أن يطلقا النار على أليكس داخل الحفرة، لأن تيمور فوقه تمامًا وهو يثبته، فلا يمكنهم أن يصيبوا أليكس دون أن يكون هنالك احتمال أن يصيبوا تيمور أيضًا. سيطر أليكس على يد تيمور الممسكة بالمسدس وحرَّكها باتجاه أحد الرجال وأطلق النار بالضغط على أصبع تيمور الذي على الزناد فأصابه وسقط على الأرض، ثم نقلها بسرعة باتجاه الرجل الآخر الذي أخذ يركض مبتعدًا، وأطلق عدة رصاصات باتجاهه فأصابته إحداها فسقط أيضًا وأخذ يتعارك مع تيمور الذي حرك يده فانطلقت رصاصة أصابت إحدى طفلتي أليكس فسقطت على الأرض.

انفعل أليكس وقام بضرب رأس تيمور بحافة القبر بقوة غريبة كادت تفقد تيمور رشده وتركه وقفز من القبر، وركض نحو ابنتيه، بينما تيمور أخذ يتحرك محاولاً أن يرى بعد تلك الضربة ويبحث عن مسدسه.

حمل أليكس طفلتيه المصابة والسليمة واتجه مسرعًا باتجاه الطريق المعبد، بينما تيمور يسدد فوهة المسدد باتجاه ألكيس، وعندما أوشك أليكس على الابتعاد، ثبت تيمور يده ومنعها من الارتعاش، وصوَّب ناحية أليكس حتى أصبح هو وابنتيه في مرماه مباشرةً.

= عبد الرحمن =

قام خفر السواحل بنقل جميع المهاجرين إلى مركبهم وأقلوهم إلى اليونان وأودعوهم السجن ريثما يُكملون الأوراق ثم يخرجونهم ليكملوا طريقهم إلى ألمانيا، وكانوا يضعون كل ثلاثة او أربعة لاجئين في سجن واحد صغير نسبيًا.

وبينما كان الشرطي يقود عبد الرحمن وبعض المهاجرين ليدخلهم إلى السجن؛ شعر عبد الرحمن بيد تهز كتفه:

- أستاذ عبد الرحمن لقد تشاركنا القارب وسنتشارك السجن الآن فلم تعد محاميًا وحسب بل ستصبح سجينًا أيضًا، أنت تعيش الحياة بمتناقضاتها يا أستاذ.

لقد كان الموكل الذي رآه في القارب، ثم تابع:

- وسأكمل لك ما كنت سأفعله لو كنت مكان ذلك المذيع المشهور، فسأكهرب المدعوين إلى الحلقة، حتى يقولوا الحقيقة دون مواربة.

وعندها بدا عبد الرحمن وكأنه أصيب بنوبة جنون، وركض إلى الشرطي وأمسكه من يده:

- ضعني في سجن آخر.

لم يفهم الشرطي ما الذي كان يقوله عبد الرحمن فأخبره بإنجليزية، غير واضحة:

- أنذر بليس بليز، بليز أنذر بليس.

فهم الشرطي من حركات عبد الرحمن وانجليزيته الضعيفة بأنه، لا يريد هذا السجن فأخذه إلى آخر وكان فارغًا لا يوجد فيه أحد سواه، جلس على المقعد الذي في داخل الزنزانة وتنفس بعمق كان يسمع صوت ذلك الشاب يتحدث مع من حوله، في إحدى الزنزانات، ويرجونه أن يصمت، ولكن دون جدوى، فابتسم وقال: (لقد نجوت).

بعد أربع ساعات أطلقوا سراحهم. وبينما هو يمشي مبتعدًا عن قسم الشرطة، سمع صوت ذلك الشاب خلفه:

- انتظرني يا أستاذ عبد الرحمن دعنا نتشارك الطريق.

لم يلتفت إلى الخلف وتظاهر بأنه لم يسمع أحدًا وأخذ يمشي بأقصى سرعة ممكنة لكي لا يلحقه الموكل وكان يسمعه ينادي:

- أستاذ عبد؟ محامي عبد الرحمن؟

ولكنه لم يعطه بالاً، وبقي يمشي بسرعة، ثم أدرك من صوت الخطوات، بأنه يركض للحاق به، فشعر بالفزع، وأخذ يركض بأسرع ما تمكن، وكان كلما تعب تذكر رائحة فم من يتبعه فيعود له نشاطه، ويسرع بالركض حتى شعر بأنه أضاعه وكان يتنفس بعمق وشدة وقال:(إذا ظل هذا الشخص يلاحقني فإني سأقطع المسافة بين اليونان وألمانيا بنصف ساعة).

= من مذكرات أليكس عن شبابه =

لقد أصبح أليكس في مرمى مسدس تيمور مباشرةً، فكتم تيمور تنفسه وثبت يده وضغط على الزناد، ولكن مسدسه كان خاليًا من الرصاص، فرماه وهو غاضب، وأخذ يزحف خارج القبر وهو متألم من كدمات ولكمات أليكس وقال في نفسه: (هذه المرة الثانية التي يدفنني بها بدلاً من أن أدفنه).

بينما ركض أليكس بطفلتيه سكارليت وأرورا، والثانية تنزف بين يديه ودماؤها تلون ثيابه وهو يفكر بكيفية إيصال طفلته إلى المشفى. توقف وأخذ يبحث عن الخليوي فلم يجده، فقد سقط من جيبه، وهو يركض في الغابة، أخذ يفكر بخياراته فهو الآن في منتصف الغابة ولا يستطيع أن يتصل بالإسعاف وطفلته تخسر دماءً كثيرةً بالنزيف (يجب أن أخفِّف من النزيف). مزَّق قميصه ولفَّه ووضعه على مكان الجرح وضغط عليه بيده، وأرورا تبكي وسكارليت تبكي أيضًا. (لا تخافا لا تخافا).

حملهما مجددًا وتابع الركض بهما وهو يضغط على القماش الموضوع على الجرح، ثم شعر بخوف وألم فظيع عندما أتت على ذهنه هذه الفكرة (هل يمكن أن تموت أرورا بين يدي، بسبب جرحها). شعر بألم حاد في قلبه وبدأت دموعه تسيل على خديه وصوت طفلتيه الباكيتين يزيد من

ضياعه، أخذ يفكر ما الذي يمكن فعله، ثم وصل إلى الطريق المعبد وهو لا يدري ما يصنع ويداه ترتجفان. نظر حوله فوجد شاحنة صفراء متجهة باتجاههم فركض ووقف في منتصف الطريق. ضغط السائق على المكابح وتوقف، نزل من الشاحنة رجل مسن يرتدي أفارول أصفر عليه لطخات من الشحم، عرفه أليكس فورًا إنه الرجل الذي أقله إلى منزله عندما كان صغيرًا، لكنه كان أكبر سنًا، أما اللباس ولطخات الشحم فلا يزالان كما هما، حمل الرجل إحدى الطفلتين ووضعها في الشاحنة وبقي أليكس يحمل المصابة.

انطلق السائق باتجاه المشفى وهو يجري اتصالاً مع الإسعاف، الذين اتفقوا معهما بأنهما سيلقيانهم وينقلان الطفلة إلى سيارة الإسعاف ثم المشفى.

تحدث الرجل إلى أليكس:

- لا تقلق، صحيح أن طفلتك مصابة بعيار ناري وهي تنزف لكنه جرح خارجي وبعيد عن الأعضاء النبيلة في الجسم، وسوف تنجو بمجرد وصولها للمشفى، فتحلى بالإيمان.

- حسنًا.

- أنا أُقلُّ أي شخص أراه على الطريق، هل تعلم بأني وجدت منذ زمن طفلاً صغيرًا ضائعًا في هذه الغابة وأقليته إلى منزله

- نعم أعلم ذلك

- وعندما أوصلته لمنزله - وللصدف - كان والداه قد توفيا والبيت مليء بالمُعزين الذين يرتدون الأسود، نزل

الصبي وركض إلى منزله وهو لا يدري ما الذي حدث، أما أنا فقد تأكدت من الموجودين بأن هذا منزل الطفل وعلمت بأن والديه قد توفيا فركبت شاحنتي وغادرت، ولقد أحزنني منظر الصبي، وهو داخل إلى البيت ولا يدري ما الأمر.

- أعلم ذلك.

- ولم يفارق ذاكرتي إلى الآن، وفي ذلك النهار بقيت أبكي طوال طريق عودتي إلى منزلي وأنا أقود الشاحنة.

وصلت سيارة الإسعاف فتوقفت الشاحنة وتوقفت سيارة الإسعاف المزودة بالمسعفين وخرجوا من السيارة وقام أليكس بإخراج طفلته من سيارة الشحن ووضعاها على النقالة، بينما يهم أليكس للصعود لسيارة الإسعاف، والمسعفون يقومون بفحص الطفلة أمسكه سائق الشاحنة من يده وسأله:

- ولكن كيف تزعم، بأنك تعرف قصة الطفل التي أخبرتك بها؟

أزاح أليكس يد الرجل وصعد إلى سيارة الإسعاف وهمَّ الممرضون بإغلاق بابها، وعندها قال لسائق الشاحنة الذي لا يزال ينتظر:

- لأني ذلك الطفل.

وأُغلق باب السيارة وانطلقت مبتعدة، وبقي السائق واقفًا في منتصف الطريق، ينظر إلى سيارة الإسعاف وهي تبتعد ثم ابتسم.

= عبد الرحمن =

أصبح عبد الرحمن ينتقل من مدينة أوربية إلى أخرى للوصول إلى ألمانيا، وفي إحداها كان عليه أن يصعد أحد القطارات فنظر وإذا بشخص يلوح له من نافذة القطار ويبدو من حركة شفاهه بأنه يقول كلمة «بلّود» - وهي كلمة عامية تعني أن المتكلم والمخاطب من ذات البلد ومن ذات المدينة. إنه ذات الشاب المزعج الذي التقاه بالقارب، وكانت تجلس بجانبه فتاة يافعة تغلق أنفها وفمها بيدها.

تظاهر عبد الرحمن أنه لا يراه والتف وعاد أدراجه مبتعدًا عن القطار ولم يعد إلى المحطة حتى غادر القطار واضطر أن ينتظر ساعتين ليأتي موعد القطار الآخر المتوجه إلى المكان الذي كان يريده، ولكنه كان سعيدًا فكان يقول « لا يهم، فالمهم أن أتنفس بحرية).

= من مذكرات أليكس عن شبابه =

بعد ثلاثة أيام من وصول طفلة أليكس أرورا إلى المشفى كانت تتكلم هي والمربية، حيث وُضعتا في غرفة واحدة بناءً على رغبتهما، وجانيت، وأليكس، وسكارليت معهما يتحدثون ويضحكون في تلك الغرفة من المشفى والمليئة بالورود، بينما المربية لا تقوى على السكوت فهي ما برحت تتحدث لمدة يومين متتالين، وتشعر بأنها خاضت مغامرة فريدة من نوعها وكأنها ذهبت للموت وعادت، وحديثها كان فكاهيًا وممتعًا.

علقت جانيت على كلام فانيسيا وهي تنظر إلى أليكس:

– لا أحد يعرف سر لطافة النساء السمينات وقربهن من القلوب.

كان الجميع يضحكون على كلام المربية، وهي تقول:

– آه لو أمسكتُ بهذا المدعو تيمور.

سألتها الطفلة سكارلي:

ماذا كنت ستفعلين يا معلمتي فانيسيا؟

– كنت سوف ألف ذراعي السمينة حول عنقه، ثم أضع رأسه تحت إبطي حتى يختنق من رائحة إبطي الرائعة.

ضحكوا جميعًا، وسألتها أرورا من السرير المجاور:

– وماذا بعد ذلك يا مربيتي؟

- ثم سوف ألكمه على أنفه وأجلب قرنًا من الفلفل الحار وأضعه في فمه، ثم أعيد رأسه إلى تحت إبطي حتى ينضج.

ضحك الجميع، وصاحت أرورا:

- أنتِ بطلة يا مربيتي فانيسيا، ليت لي إبطًا مثل إبطكِ.

= عبد الرحمن =

وصل عبد الرحمن إلى ألمانيا، ووُضِع في «الكامب»(*) وبعد ذلك بفترة انتقل إلى منزل خاص به. لكنه كان يشعر بالحنين والشوق إلى بلاده وإلى أصدقائه وخصوصًا أليكس، وليخفف على نفسه هذا الحنين، قرر بأن يخرج ليتمشى في شوارع برلين، ليتسلى ويتعرف على هذه الدولة المضيفة، وتمنى لو كان أليكس معه ليتحدثا ويخفِّف عليه هذه الوحدة المُرة.

وأثناء مسيره في أحد الشوارع رأى شخص لم يكن يتوقع أن يراه، (هل هذا صديقي أكرم، الذي كان مفقودًا؟؟ ربما كان هو، ما هذه الصدفة؟!) واتجه نحوه مباشرةً:

- هي، هي، هذا أنت!! أبو الدلعونة والميجنا.

التفت إليه الشاب:

- عبد الرحمن صديق الطفولة والمحن.

وأخذ يضمه ويقبلان بعضهما على الوجنات والأكتاف.

- لقد أقلقتني عليك يا أكرم فقد قيل بأنك مفقود أين كنت يا رجل؟

كنت أعمل مع الثوار في داريا ولم أخرج منها حتى سقطت

* الكامب: مركز لجوء مؤقت يقيم فيه المهاجر قبل الحصول على حق اللجوء.

كلها فوق رؤوسنا ولم يبقَ فيها غير القليل من الثوار، فغادرتها وسلكت طرق التهريب حتى وصلت إلى ألمانيا، والآن لدي خطيبة، أنها في داخل المتجر هناك، سأعرفك عليها عندما تخرج، سيصبح لدي عقيلة يا عبد الرحمن، وستكون السيدة الأولى لقلبي.

- ولماذا تستخدم هذه العبارات؟

- تيمنًا بالرئيس.

- ولكن كيف ستكون السيدة الأولى فلقد أحببت قبلها.

- ستكون السيدة الأولى التي سأحبها دون خوف ولا فقر، ولذلك هي الأولى.

- ألم تخبرها أنك مجنون؟

- بلى، أخبرتها.

- وماذا قالت؟

- قالت بأن جنوني محتمل ويمكن التعامل معه.

- ستندم على هذا القرار بلا شك.

- بلا شك.

- هل لا تزال تغني أغاني الدلعونة والدبكة يا أكرم مثلما كنت تغنيها ونحن في المدرسة الابتدائية؟، غني لي أغنية: (يا سايق السيارة، دربك وعر وطلوعِي، خذ بنزينك من دمي، والبراغي من ضلوعي، آه يومًّا).

- لا، لا، هذه الأغاني أصبحت قديمة، ويوجد ما هو أجمل منها الآن، يوجد الفن الراقي.

- فن راقي؟! مثل ماذا؟

- اسمع هذه الأغنية المصرية: (يا كماعة حد شفلي الولاعة يا كماعة، بم بم بم) وهكذا.

- ما هذا؟

- هذه أغنية رائعة تحكي مأساة شاب أضاع الولاعة، ما رأيك بهذا الفن؟

- مهزلة.

- وهناك أغنية سورية تقول: (شعراتها ولو، عيونها ولو عقلاتها ولو لولو لو لو).

- ما هذا يا أكرم؟

- هناك أكثر من ألف كاتب أغاني يزعمون أن هذه السيمفونية من تأليفهم ولا أحد يجزم أي منهم هو الكاتب الحقيقي لهذه المُعلَّقة.

- ما هذا الكلام؟

- ولكن لا أهمية لمن ألَّف هذه السيمفونية، فالأهمية لمن ألَّف كلمة «ولو») وحسب، فمثلاً «فستانها» لوحده ليس له معنى، ولكن ضع بعده كلمة «ولو» «فستانها ولو»، ستصبح ذات معنى.

- ما هذا يا أكرم؟!

- جرِّب ذلك وأعطني كلمة يا عبد.

- «كرشها» «كرشها ولو»

- أحسنت، إنه زمن الفن الراقي، إنه زمن الرئيس ولو.

– على سيرة الرئيس، أخبرني يا عبد، من وشى بي إلى ضابط الأمن عندما كنا يافعين، وقال بأني من كتب (لا للغلاء)؟ أنتَ أم طلال أم عمر أم عبد الرزاق؟

فكر عبد الرحمن قليلاً:

– على ما أذكر، طلال هو من وشى بك، فقد كان يقف بجانب عمر وأمامهما مدير الناحية ونحن نقف وراءهم، وضابط الأمن كان جالسًا على كرسي ويضع رجليه أمامنا فوق طاولة مدير الناحية، وعندما صفع مدير الناحية عمر ارتطم رأسه بالحائط وسقط على الأرض، فاعترف طلال فورًا وقال اسمك واسم أبيك ومكان سكنك ونمرة حذائك.

– الآن أرحتَ قلبي، فطوال سنين السجن وبينما كنت جاثيًا على الأرض الباردة لتلك الزنزانة، كنت أتمنى ألا تكون من وشى بي، فأنت صديقي الوحيد في هذه الدنيا، ورغم إحساسي الأكيد بذلك، ولكني أردتُ أن أتأكد، والآن تأكدت. مع أني كنت سأعذرك حتى لو وشيت بي، فهم سيعذبونكم حتى يعترف أحدكم.

قال عبد الرحمن مبتسمًا:

– لا يا أكرم، مستحيل أن أعترف باسمك إلا بعد أربع أو خمس صفعات على أقل تقدير.

– حييت يا عبد، حييت.

– أما عندما يُصفع عمر أعترف أنا باسمك!، هذا محال، فما شأن خدي، بخد عمر، فليصفعوه ما شاءوا، فلن أبوح ببنت

شفة وسأبقى صامدًا كالجبل، وذلك ليس بسبب حبي لك يا أكرم، بل بسبب بغضي لعمر.

وأخذا يضحكان.

= من مذكرات أليكس في بداية شبابه =

أنهى أليكس بُكاءه وتوديع قبر جده، وأنهى والد ساندي رقصته حول القبر وعادا إلى منزل الجد. وفي الطريق تلقى أليكس اتصالاً من محامي الجد يخبره بأن الجد أوصى بالمنزل والمال المودع في البنك لألكس، أما المزرعة وما فيها من حيوانات فقد أوصى بها الجد إلى شخص يدعى كين.

أغلق أليكس الهاتف ونظر إلى والد ساندي الذي بجواره وقال:

- لقد كان جدي يحبك كثيرًا، فلقد أوصى بكامل المزرعة وما فيها لك يا كين.

نظر كين إلى الغابات الممتدة وقال:

- المزرعة وما فيها لا تساوي شيئًا بدون جدك يا أليكس، فهو الروح بالنسبة للجسد، سأشتاق إليه كثيرًا.

وصلا إلى البيت، وجلسا حول طاولة المطبخ، وهما صامتان، ثم قال أليكس:

- البيت يبدو مقفرًا للغاية.

كان الطقس قاتمًا يوشك على المطر، أحضر كين كأسين من النبيذ وجلس مقابل أليكس، الذي كان يتلقى اتصالاً من روسيا، كانت المكالمة من ساندي صديقة طفولته وابنة كين

لتعزيه وتواسيه. تحدَّث معها قرابة النصف ساعة، وعندما أنهى المكالمة، شرب ما تبقى من الكأس.

– هل أبقى معك يا أليكس وأنام عندك؟

– لا يا عم تبدو متعبًا، اذهب إلى بيتك، وإذا أردتك سأرسل لك أو أذهب إليك.

غادر والد ساندي البيت، وبقي أليكس لوحده في المنزل هو والذكريات وكأس نبيذ فارغ.

= عبد الرحمن =

- قرَّرنا أنا وخطيبتي هايدي، أن ننجب طفلاً بعد أن نتزوج.

- جميل، وماذا ستسميانه؟

- هل هذا سؤال يا عبد؟ طبعًا سأسميه باسم الرئيس الخالد.

- الرئيس الخالد أم الرئيس الرمز؟

- أقصد الرمز طبعًا.

- هل تقول الصدق؟!

- طبعًا أمزح، رغم أن هذا الرئيس الذي سجنني سبع سنين منحني الحياة.

- وكيف هذا يا أكرم؟

- انظر إلى الشعب الألماني، راقب ملامح وجوههم، إنهم يشعرون بأن كل شيء طبيعي وعادي فلا يشعرون بعذوبة الهواء، ويأكلون اللحوم فلا يشعرون بطعمها، يرون المصابيح فلا يشعرون بجمال أضوائها، انظر يا عبد الرحمن ما أجمل أضواء المصابيح هناك.

- فعلاً.

- وكذلك يرون البط في الحدائق والورود المزروعة فيشعرون بجمالها ولكن بقدر ضئيل وليس كما أشعر أنا، فإذا أردتَ أن تشعر بجمال الحياة يا عبد الرحمن، اذهب إلى الرئيس وقُل

له تلك العبارة السحرية (لا للغلاء) وسوف يسجنك في ذلك السجن لمدة سبع سنوات ثم تعال إلى أوربا وستشعر بشعور رائع. هل تعرف إنها فكرة، سأقترح على الألمان أن يذهبوا للرئيس الرمز ويقولون له (لا للغلاء) لكي يسجنهم، وبعد أن يخرجوا سيشعرون بالحياة والهواء والطعام وأضواء المصابيح كما لم يشعروا بها من قبل. هل تعلم يا عبد في أحد الأيام، وأنا بالسجن دخل علي السَّجان، ومعه «الرفش» الذي يحركون به الإسمنت، هل عرفته؟

- نعم عرفته.

- وأخذ يضربني به لمدة نصف ساعة، ثم خرج. بقيت طوال النهار أو الليل، ولا أعلم إن كان ليلاً أو نهارًا فلم يكن هنالك اضاءة، ولكن المهم أني بقيت أضحك وأضحك رغم الألم، وملأ صوت ضحكاتي الزنزانة وما حولها، ولا أعرف إن كان حولها شيء أم لا فقد كانت زنزانتي مظلمة لا تضاء إلا وقت التعذيب ولا أعرف ما حولها.

- وما الذي كان يُضحكك؟

- يضحكني السجان، فكيف خطر على باله أن يأتي بذلك الرفش، فبماذا كان يفكر بالتحديد؟ هل كان يجبل الباتون فتذكرني فجأة، فأتى إلي؟ هل تعلم يا عبد ربما لا تبدو نكتة الآن ولكن في وقتها كانت بالنسبة لي نكته خارقة بقيت أسبوعًا كاملاً أتذكر منظره وهو يحمل الرفش عندما أضاء الزنزانة وأضحك وأضحك حتى أتعب من الضحك. هل تعلم لم أضحك كما ضحكت في تلك الأيام أبدًا.

= من مذكرات أليكس عن شبابه =

في غرفة فخمة الأثاث تحت أحد محلات بيع الحيوانات الأليفة، كان تيمور يجلس أمام المرآة وبجانبه مزين يقوم بتغير ملامحه، فهذا المزين يستطيع أن يجعل من أي شخص شخصًا آخر، بتغيير لون شعره، واللحية وحتى لون البشرة مضيفًا بعض الملامح، مثل الشامات، باستخدام وسائل المكياج، وبعدها لن يستطيع أحد أن يتعرف عليه، حتى أشد الناس معرفة به، وقد جرَّب تيمور هذه الطريقة عدة مرات في سفره وقد صنع العديد من الجوازات المزورة، التي تحتوي على صور مختلفة له، وبأشكال يستطيع المزين أن يحوله لها.

- عليك أن تنجز عملك خلال ساعة واحدة، وغيِّر شكل هذين الرجلين من أتباعي، فعلينا أن نسافر بعد ساعة ونصف من أستراليا.

بعد ساعة ونصف كان تيمور واثنان من رجاله يدخلون المطار وهم متنكرون ويحملون جوازات سفر مزورة عليها صورهم الجديدة.

في داخل المطار كانت العميلة «ليسا» والتي قضت الفترة التي تلت خروجها من البئر باستجواب كل من تربطه صلة مع تيمور وخصوصًا شرطي استقبال المكالمات، فقبل نصف

ساعة من جلوس ليسا في المطار كانت تجلس قبالته على طاولة التحقيق وتنظر إليه كنمرة توشك على الانقضاض على فريستها:

- هل تعلم يا جاك أنا شخصيًا أتقبل أن يفعل بي المجرم أي شيء، أتقبل ذلك كونه مجرم وأنا أقوم بملاحقته، أما أن يغدرني زميل لي أشرب معه القهوة كل يوم ونتبادل الأحاديث والنكات، فهذا شيء لا أتحمله أبدًا.

ابتسم جاك:

- ستبقين مُبتدئة يا ليسا.

- مُبتدئة!

- وإذا كنت تريدين معلومات عن تيمور فلن تحصلي على أي شيء مني، لأني لا أعلم أي شيء عنه يا زميلتي الودودة المبتدئة.

دارت ليسا حول جاك في غرفة التحقيق كنمرة تحدد أماكن نفوذها:

- عزيزي جاك ما رأيك أن أُحقِّق معك بدون ثياب، مثلما فعلتم بي في البئر، فقد يعجبك ذلك؟

ابتسم:

- نعم، هلا فعلتِ؟

- حسنًا.

بدأت ليسا بخلع سترة الشرطة

– ما بكِ يا ليسا؟، توقفي.

وضعت السترة على الكرسي واكتفت بخلعها فقط ثم جلست قباله:

– أريد أن أعطيك مشهدًا مني لكي تتذكره وأنت بالسجن، اسمع يا جاك هناك العديد من أساليب التحقيق في العالم تتبعها الدول وقد اطلعت على بعضها، فمثلاً، في سوريا هل تعلم كيف يجرون التحقيق مع المتهم؟ ألم تقرأ رواية «يوميات متلصص» لمصطفى خليفة؟

هزَّ جاك رأسه وغيَّر اتجاه وجهه وكأنه غير مبالٍ بما تسوقه له ليسا من أحاديث.

– طالما أنك قارئ سيئ، سأشرح لك بعض الطُّرق التي يتبعونها في التحقيق، فبكل بساطة يا جاك؛ يمسكون المتهم، وقبل بدء التحقيق يبدأ التعذيب، والذي قد يصل إلى نزع الأظافر، وبلمح البصر يعترف المتهم بكل ما حصل، حتى أنه يعترف بجرائم لم يرتكبها، ولا يعلم عنها شيئًا، وهنالك يقولون إن الحمار الذي يدخل إلى غرف التحقيق لجريمة ارتكبها أرنب؛ سيعترف بأنه أرنب، ثم يعترف بالجُرم.

حرَّك جاك رأسه مستهزئًا:

– ولكن نحن يا ليسا لسنا في سوريا بل في أستراليا فلا يمكنكِ أن تعذبيني ولا حتى أن تقلمي أظافري فضلاً عن نزعها.

– نعم هذا بالضبط ما كنت أريد أن أحدثك به يا زميلي المبتدئ، فنحن لا يمكننا أن نفعل ذلك، ولكن لدينا في أستراليا

ما هو أخطر من ذلك وأشد إيلامًا وإخافة...

سكتت قليلاً، نظر جاك إليها، وبدا عليه بعض القلق، محاولاً أن يعرف ما الذي تفكر به العميلة ليسا، التي تابعت:

– وما هو أشد من نزع الأظافر، والذي يجعل الحمار يعترف بأنه أرنب، هل تخمن ما هي هذه الطرق في التحقيق؟ ما هي يا ترى؟ إنها المعلومات، فالمعلومات يا جاك مُخيفة ومؤلمة.

– حقًا المعلومات لقد أخفتني بالفعل يا ليسا.

– سأروي لك قصة الآن علَّها تنال إعجابك: في مدينة بعيدة في أستراليا تدعى سيدني كان يعيش شرطي مستجد ويعمل في قسم شرطة المدينة، وفي أحد الأيام دخل ليسرق منزل جارته الثرية التي كان يراقبها منذ فترة، وماذا وجد في المنزل.

– كفى يا ليسا، ما هذا الهراء؟

– اسمع القصة إلى أخرها يا جاك فقد تعجبك: وجد فيها طفلة قاصرة في الثالثة عشر من عمرها...

بدا جاك متوترًا:

– ما هذا يا ليسا؟

ودفع طاولة التحقيق.

– ولكن ما لا يعلمه هذا الشرطي أن هذه الطفلة أصبحت شابة الآن، ولديها فتاة أصبحت بعمر أمها عندما دخل الشرطي إلى منزلهم، ولكن لشدة جُبن هذا الشرطي ونذالته، فقد هرب وتوارى عن الأنظار، وانتقل من أقصى شرق أستراليا إلى أقصى غربها، والفتاة لا تعرف من هو أبوها الذي اغتصب

أمها وهي قاصر، فقد كان يرتدي جرابًا لحميًا أسود على وجهه، والأم لم تحرك أي إدعاء بذلك، وربما تتمنى أن تتعرف عليه، إما لتغمره أو لتقتله، ولكنها لا تعرف من يكون، أما أنا فأعرفه، ولدي رقم هاتفها، فهل تود أن تتكلم مع طفلتك يا جاك؟ ألا تريد أن تتعرف عليها؟

جلس جاك خائر القوى:

- من أين أتيتِ بهذه المعلومات؟

- بطُرقي الخاصة، أليس ذلك أصعب من نزع الأظافر الذي يحدث في سوريا يا جاك؟

- ما الذي تريدينه يا ليسا؟

- أريد أن أعلم أين تيمور ومن أي مطار أو طريق سيهرب؟

- حسنًا.

= عبد الرحمن =

لا يزال عبد الرحمن وأكرم يقفان أمام المتجر، بالقُرب من ساحة «بوتسدام» في برلين ينتظران عودة خطيبة أكرم، ولا يتوقفان عن الحديث فكأنهما وُلِدا من جديد وكأنهما عادا مثلما كانا تلميذين أصدقاء في المدرسة الابتدائية.

- أتعرف يا عبد؟ أثناء جلوسي بلا عمل في ألمانيا اكتشفت اكتشافات رهيبة.

- يا سلام! على أساس أنك كنت تعمل في سوريا؟ هات، هات أخبرني ماذا اكتشفت؟

- حول الرئيس.

- ألا يشغل بالك غيره يا أكرم؟ ما هو اكتشافك؟

- اكتشفت أن الرئيس عبقري

- بالله عليك أتسمي هذا اكتشافًا؟ الجميع يعلم أن الرئيس عبقري.

- لا يا عبد، اكتشفت أنه عبقري أكثر مما يعلمه الجميع، وحتى أكثر مما يعلمه هو نفسه

- وكيف ذلك؟

- بعد عمل مُضنٍ توصلت إلى تفسير بعض خطاباته وأقواله، واكتشفت العبقرية الكبرى.

- ادخل في الموضوع يا أكرم.

- في عام ٢٠٠٩ وما قبله وقَّع اتفاقات مشاركة مع الاتحاد الأوربي، وبعض الاتفاقات الأخرى، وذيع وقتها في الأواسط الداخلية، أن الرئيس النجل يسعى إلى الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي في المستقبل مستفيدًا مما يسمى بالجوار الأوروبي. المهم أننا في هذه المرة أيضًا فسَّرنا كلام قائد المسيرة، وأفعاله، بشكل خاطئ يا عبد فهو لم يقصد أن تنضم سوريا إلى الاتحاد الأوروبي كدولة...

- وماذا إذًا؟

- بل قصد أن ندخل نحن كشعب إليه.

رفع عبد الرحمن حاجبيه وابتسم:

- آآآآه.

- انظر يا عبد، فبعد أن حذف وزير خارجيتنا أوروبا عن الخارطة - كحركة تمويهية - دخل معظم الشعب السوري مباشرةً إلى أوروبا كلاجئين، مُتحِدين مع الاتحاد الأوروبي بشكل مباشر ودون عناء تنفيذ الشروط التعجيزية التي يطلبها الاتحاد. رغم أن أوربا كلها لم تعد موجودة على الخارطة، ولكن ما الهم، فالخارطة ليست سوى ورقة، فوزير الخارجية لم يكن يقصد أنه سيزيل أوروبا عن الوجود بل كان يقصد فقط، بأنه سيزيلها عن الخارطة التي لديه، بالممحاة أو بسائل التصحيح «الكوريكتور» أو بشيء من هذا القبيل. ألم يقل الشاعر أحمد مطر: إن من يملك القانون يملك حق العزف عليه؟

– بلى.

– أيضًا من يملك الخارطة، يملك حق حذف الدولة التي لا تروقه عنها، وهذا ما عبَّر عنه سيادته قبل الأزمة بقوله: (خارطة الطريق)، فقصد بالطريق، طريق اللجوء من لبنان إلى تركيا إلى اليونان إلى... إلى...، والخارطة هي الخارطة التي يملكها وزير الخارجية والتي سيحذف عنها الدول التي لا تروق له، أما الهدف فهو الدخول في الاتحاد الأوروبي.

– ما هذا يا أكرم أنت نابغة يا رجل!

– وما كان قصف المدن وتدميرها فوق رؤوسنا، وقتل مئات الألوف من الناس وعشرات الألوف من الأطفال، إلا ليفهمنا هذه الخطة بالإيحاء، فإذا قالها علنًا منعتنا دول الاتحاد الأوروبي من الاتحاد المباشر بها. ونحن كنا نسُبُّه ونخرج المظاهرات ضده، بينما هو يؤمن لنا مستقبلنا دون أن ندري، صحيح أنه قتل أكثر من اثني عشر ألف طفل، ولكن هذا لتأمين مستقبل الأطفال الذين لايزالون أحياء، إضافة إلى أننا سننجب غيرهم يا عبد، فنحن مجتمع ولود، وهو بذلك يُشجِّع على الإنجاب. كم نحن أنذال ونُسيء الظن. أفلا ترى أنه عبقري يا عُبد؟ ولكن لم يجد من يقدِّر عبقريته سواي، فها هو حقَّق لنا بحكمته الرفاه الذي وعدنا به، واتحدنا بالاتحاد الأوروبي مباشرة.

كان عبد الرحمن يضحك على هذا التفسير:

– لم أضحك كما ضحكت اليوم يا أكرم.

– اشكر الرئيس يا عبد، اشكر الرئيس على الضحك، فلولاه لم نبكي ولم نضحك.

= من مذكرات أليكس في بداية شبابه =

كان البيت مليئًا بالذكريات بالنسبة لأليكس، فهنا كان يقف جده، هذا الكتاب كان يقرأه، هنا كان يُلقي الشعر، وهناك يُغنِّي، وعلى هذه الطاولة يشرب الشاي...

كان وقع الذكريات قاسيًا، ولأول مرة شعر أن البيت كبير للغاية، وشعر بوحدة لاذعة لم يشعر بمثلها في حياته.

تذكَّر ذلك الألم والوحدة التي شعر بها وهو صغير، وتذكر كيف قرر مغادرة منزله ليتخلص من ذلك الشعور، وذهب إلى هذا الرجل الذي أعاد له ذات المشاعر الآن. فقرر كما قرر وهو طفل، أن يغادر، فارتدى سترةً مطريّةً حيث كانت الأمطار تتساقط أحيانًا، ثم قاد سيارته، وبعد حين أوقفها ونزل إلى الشوارع وأخذ يركض، وأحيانًا يمشي واضعًا قبعة المعطف المطري على رأسه لتحميه من الهواء الرطب ومن المطر الذي يتوقف تارةً ويتساقط تارةً أخرى فيملأ وجهه بالمطر فيختلط مع الدموع فيخفيها.

وبينما هو يمشي حزينًا مطرقًا في الأرض، تواجه بتيمور يمشي بلباس الرياضة المطري أيضًا على الرصيف، فسلَّم عليه، ولم يشأ أن يخبره بوفاة جده فكان راغبًا بالصمت فقط والوحدة، ولكن تيمور أصرَّ على مرافقته والحديث معه.

كان تيمور يتحدث في العديد من المواضيع، وطلب منه أن يصحبه إلى داخل الغابة، فلم يكن أليكس بمزاج يسمح له بالرفض فقد كان لا يعرف الرفض ولا القبول، كان ينفِّذ أي شيء يأتي أمامه، فقد كان حزنه يجعله وكأنه في سُكر أو شرود لا يرغب في مناقشة أحد، فقط كان يراقب العصافير والأشجار والنباتات التي تعرَّف عليها وهو صغير برفقة جده.

وفي ذلك اليوم لم يدفن أليكس جده فحسب، بل دفن تيمور أيضًا دفاعًا عن نفسه.

= عبد الرحمن =

- نادِ لعقيلتك يا أكرم، تأخرتُ كثيرًا، أريد أن أتعرف عليها وأعود للبيت بأسرع وقت، فالكلام في سرك: أريد أن أدخل إلى الحمام.

- اصبر يا عبد.

- إلى متى سأصبر؟

- في الحقيقة، أنا لا أعرف كيف أنادي أحدًا باللغة الألمانية.

- أنت غبي يا أكرم، النداء في كل اللغات متشابه، قل لها: هي أو هو أو اعوي، وعندما تنظر إليك، أومأ لها بيدك لتأتي.

- لتكن حضاريًا يا عبد، ودعنا ننتظر.

- حسنًا، هل تشتاق للوطن يا أكرم؟

- الوطن، الوطن يا عبد هو أكبر كذبة شهدتها البشرية، هذه الكذبة وُضِعت لكي ندفع أنا وأنت أرواحنا وأموالنا مقابل أن يبقى الأغنياء والحُكَّام على السُّطلة، أما الوطن فهو هذا العالم كله، ولا يهم ما الدولة التي تسكن بها أو الرئيس الذي يحكم، المهم أن تعيش بكرامة وحرية ورفاه، فلا يهم يا رجل من يكون الرئيس، المهم أن يكون صاحب أخلاق. فبالله عليه إذا تخيلنا أن رئيسة الحكومة الألمانية حاليًا «أنجيلا ميركل» رشَّحت نفسها لحكم سوريا مع رئيسنا الخالد دائم الترشيح، وحدث ذلك بطريقة ما، ألا تنتخبها؟

- هل تمزح معي يا أكرم؟! سيغيِّرون الصناديق وينجح الرئيس.

- أنا أقول تخيَّل يا عبد، تخيَّل أن الانتخابات ديمقراطية والدستور يسمح بترشيح الأجانب.

- كون الدستور يسمح بترشيح شخص غير سوري أستطيع تخيل ذلك، ولكن كون الانتخابات ستكون ديمقراطية ولن يغيروا الصناديق فهذا الأمر فوق قدرتي على التخيُل.

- حسنًا لا تتخيل ذلك، فقط أخبرني من ستختار؟

سكت عبد الرحمن وتلفَّت حوله.

- لا تتلفت حولك يا عبد نحن في ألمانيا ولسنا في داريا قلها وحسب.

- اقترب لأهمس لك.

- لا تهمس يا عبد، بل قُلها على الملأ فنحن بالقُرب من ساحة بوتسدام في برلين ولا يوجد مخبرون هنا غيري.

- حسنًا، يبدو أنك فهمتها لوحدك، لا داعي لأن أقول.

- لا تكن دبلوماسيا يا عبد، أريد أن أسمعها منك بوضوح وبصوت عالٍ.

- في الحقيقة الموضوع أعمق من ذلك يا أكرم.

- ما هو هذا العُمق؟

- لو حدثت انتخابات لاختيار الرئيس أم الشيطان أنا سأختار الشيطان، ولكن كلنا يعلم بأن الرئيس هو الذي سينجح، فالصناديق لا تُخطئ يا أكرم.

= من مذكرات أليكس عن شبابه =

كانت العميلة ليسا تجلس في مطار داروين الدولي وتنتظر احتمال قدوم تيمور بناءً على المعلومات التي أخذتها من جاك، بعد أن أعلمت أمن المطار وأخذت ترخيص بالعمل بالمشاركة معهم، وفريقها منتشر في كل مكان وعلى شاشات المراقبة جنبًا إلى جنب مع عناصر أمن المطار، أما ليسا فكانت تسير ذاهبةً وغادية في أروقة المطار وهي متوترة، وتجلس أحيانًا على كراسي الانتظار منتظرة أي خبر أو اتصال من عناصرها. ولكنها بدأت تفقد الأمل، فحسب ما توصلت له من معلومات يجب أن يكون تيمور قد استقل طائرة منذ نصف ساعة تقريبًا وهي تنتظر في هذا المطار منذ ساعتين.

جلست على أحد كراسي الانتظار ووضعت يدها على رأسها وبدأت تحدِّث نفسها: (لا يمكن أن أسمح له أن يهرب من البلاد، هل يعقل أن جاك قد أعطاني معلومات خاطئة؟). ثم هدأت من توترها بنكتة صنعتها وقالتها لنفسها: (لا يمكن أن أتركه يغادر البلاد فحمالة صدري معه، لا بد أن أستعيدها). وابتسمت وأخذت نفسًا عميقًا لتهدئ من روعها ورفعت رأسها إلى الأعلى.

في هذه الأثناء دخل تيمور واثنان من رجاله وكانوا متنكرين

لدرجه تجعلهم لا يعرفون أنفسهم إذا ما نظروا إلى المرآة، ويحملون جوازات السفر المزورة في أياديهم، كان تيمور يقول لرجاله:

- لا تتحدثوا الإنجليزية، بل تحدثوا اللغة اللوكسمبورغية، فنحن الآن من لوكسمبورغ حسب جوازات السفر.

- ولكننا لا نتقن اللغة اللوكسمبورغية.

- لا أحد في العالم يتقنها سوى أصحابها، فاعوي كما تشاء أنت وهو ولن يعرف أحد بأنكما لا تتحدثان اللوكسمبورغية.

كانت ليسا تعيد المعلومات والمشاهد التي توصَّلت لها أثناء التحقيق، وتتذكر منزل تيمور الذي فتَّشته، فقد كان يحتوي على صور كثيرة للزواحف والحرابي الأسترالية مثل المولوخ الذي يظهر كشوكة على الأرض ليتنكر ويستطيع ان يغير لونه، والسحلية المعروفة بسحلية الرصد العملاقة ذات المنظر المهيب، وسحلية التنين المزركشة والتي كان يقدسها تيمور ويعتبر بأنها يجب أن تكون شعار أستراليا بدل الكنغر، وقد كتب ذلك بخط عريض على لوحة نحاسية أسفل صندوق زجاجي كبير موضوع في إحدى الغرف، كان الصندوق بارتفاع أربعة أمتار وعلى عرض كامل الجدار، ويحتوي على شجرة صناعية، والعديد من الحرابي المزركشة الحية.

كانت ليسا تعاني من رهاب الزواحف منذ صغرها حيث ضربتها سحلية رصد عملاقة بذيلها على رجلها فكُسِرت من قوة الضربة، ومن يومها أصبحت تكره السحالي، فكان الدخول

إلى هذا المنزل المليء بصور السحالي وتماثيلها، كالكابوس بالنسبة لها، ولكن هذا لم يمنعها من القيام بعملها وتفقد كل شيء في المنزل، حتى أنها دخلت إلى الصندوق الزجاجي المليء بالحرابي المزركشة وفتشته وهي تنظر إلى الحرابي باشمئزاز وتشعر بقشعريرة تسري في جسدها.

وبينما كانت مُطرقة تنظر لأرض المطار وتتذكر شكل الحرباء المزركشة وتزم شفتيها، كان تيمور ورجاله يعبرون من أمامها، ودون أن تنظر إلى وجوههم؛ رأت الشيء الذي كانت تحتاج أن تراه.

= عبد الرحمن =

- نادِ لعقيلتك يا أكرم، يجب أن أذهب إلى الحمام.
- ها هي تتجه إلى الباب... انتظر أنها تعود مرة أخرى.
- ربما نسيت شيئًا لم تشتره.
- اذهب واقضي حاجتك وراء تلك الشاحنة.
- ماذا تقول يا أكرم؟! نحن لسنا في داريا.
- إذن اصبر يا عبد، اصبر.
- حسنًا سأصبر.

صمتا قليلاً ثم سأله عبد الرحمن:

- أخبرني يا أكرم، هل بقيت مواظبًا على زيارة قبر والدتك وسقايته؟ - أنا لم أُحب إنسانًا في حياتي كما أحببتُ أمي يا عبد، فأنا عشقتها عشقًا، وحتى هذه اللحظة لا يمر يوم دون أن أفكِّر بها، لقد توفيت حزينة وهي تنتظر خروجي من السجن، ولقد كنت في كل يوم آخذ الماء وأزور قبرها وأسقيه وأقرأ الفاتحة، حتى أني رفضت أن أخرج من داريا، رغم القصف وسقوط البراميل المتفجرة فوق المدينة، وعملت مع الثوار، ولم تكن غايتي أن يرحل الرئيس، فأنت تعلم، بأني أحبه حُبًّا جمًّا.

ابتسم عبد وهزَّ رأسه.

- بل غايتي الأساسية هي أن أبقى أزور قبرها.

- وهل كلَّفت أحد بسقاية قبرها بعد أن لجأت إلى ألمانيا؟
- لم يعد هنالك حاجة يا عبد الرحمن.
- لماذا؟
- لقد أخذ الله القبر وهو يسقيها الآن.
- كيف ذلك يا أكرم؟
- في الحقيقة لقد أكرمني الرئيس وأرسل قبرها إلى الله لكي يسقيه الله ولا أتعب أنا في السقاية.
- كيف ذلك؟
- كنا في داريا أنا وبعض الثوار عندما بدأت تسقط البراميل المتفجرة، فركضنا إلى الأقبية وارتدينا الأقنعة الواقية من الغازات الكيميائية، فقد قصفنا به قبل أسبوع ومات العديد منا وأكثرهم من الأطفال، فكنا إذا ما بدأ القصف نركض إلى الأنفاق وندخل بها، وكان صديقي «منصور» في الخارج ولم يتمكن من الدخول في النفق ورأى البراميل المتفجرة تسقط على المقبرة وحلف لي أن كل القبور والشواهد طارت وسقطت على الأرض، إلا قبر والدتي طار ولم يسقط على الأرض، وكأن يدًا في السماء أمسكت به، لقد أكَّد لي وحلف على ذلك يا عبد، بينما كنت أبكي فتوقفت عن البكاء، وعدتُ لرشدي، وفسَّرتُ تصرفات الرئيس بشكل سليم، فشعرت بمدى سوء ظني به، وعرفت فضله فورًا، فوجدتني واقفًا بين رفاقي الجالسين ومبتسمًا، وأخبرتهم أن الرئيس أشفق علي من كثرة زيارتي لقبرها، ورأف لحالي، فأسقط عليه برميلاً متفجرًا، فرفعه إلى

الله، ليعتني به، وبذلك حرَّرني وأصبح بإمكاني مغادرة داريا، وغادرت من فوري وأخبرتهم بأني لن أعود إلى هذه البلد ما حييت، فلم يعد لي شيء هناك لأسقيه.

= من مذكرات أليكس في بداية شبابه =

عاد أليكس مبللاً والطين يغطي ثيابه، دخل إلى منزل جده الخاوي وخلع ملابسه ووضعها في الغسالة، ثم دخل إلى الحمام ليستحم.

في تلك اللحظات اندفع في داخله خوف وألم وحزن شديد، فهو بالإضافة إلى كونه فقد جده، فهو الآن قد ارتكب جريمة.

كانت تتنازع في عقله العديد من الأسئلة والاجوبة التي تتكرر وتعيد نفسها في كل دقيقة مئة مرة، بحوار داخلي يستنزف طاقته:

– هل كان قتلي له دفاعًا عن النفس؟

= نعم كان دفاعًا عن النفس، فلو لم أقتله لقتلني.

– ولكن ربما كان بإمكاني تفادي قتله، ربما هناك شيء في داخلي وبسبب حبي لجانيت جعلني أضغط أكثر من اللازم على عنقهِ فمات.

= لم أكن أتوقع أن يكون ضغطي على رقبته سيسبب الموت له، فكنا في التدريب نضغط بهذه القوة، ولا يسبب ضغطنا الموت، ماذا أصنع، ها أنا أفقد جدي وبذات اليوم أصبحت مجرمًا.

= هل أخبر الشرطة؟

- وكيف سيصدقون أنه من تهجَّم علي وليس العكس؟ وكيف سوف أثبت دفاعي عن نفسي؟

= وجانيت ما ذنبها كيف سوف تكون حالتها عندما تعلم بموت تيمور؟ فهي تريد أن تتزوجه وتنجب منه الأطفال.

كانت كل هذه الأفكار وأكثر تدور في عقل أليكس بينما مياه الدوش تنهمر فوق رأسه.

وبعد أن خرج أخذ يتفقد صفحات الأخبار والمجلات ليرى إن كانوا قد وجدوا جثة تيمور أو علموا بموته.

من شدة تفكيره والحديث مع ذاته شعر وكأنه أوشك على الوصول إلى الجنون فانزوى في غرفته مكتئبًا لمدة أسبوعين لا يفارق البيت ولا يعرف ماذا يفعل.

أما جانيت فقد تلقت الخبر بفقد تيمور وباحتمال كونه ميتًا، فدخلت في اكتئاب شديد لذلك، وكانت تسأل نفسها أحيانًا: (لماذا لم يأتِ أليكس لمواساتي؟! وأين هو؟).

فمنذ أسبوعين علم الجميع بفقد تيمور، وأليكس الذي تعتبره صديقًا لها، لم يأتِ ولم يتصل ليطمئن عليها، فكان في داخلها شيء يقول لها، أنها لا تشعر بالمواساة إلا من أليكس، وتمنت لو كان بجانبها.

= عبد الرحمن =

- هل ستتأخر سيدة الياسمين يا أكرم؟
- أنصحك أن تذهب إلى خلف الشاحنة وتقضي حاجتك قبل أن تغادر فهي شاحنة مرتفعة.
- لا يا أكرم.
- إذًا ادخل إلى المتجر سيكون هنالك حمامات في الداخل.
- فكرة جيدة، ولكن كيف سأقول لهم بأني أريد أن أدخل الحمام؟ فلم أتقن الألمانية بعد.
- لا تقل شيئًا، ادخل وابحث عن الحمام وادخل إليه، وإذا لم تجده ضع يديك بين رجليك وتلوَّى، وسيعرفون ماذا تريد ويأخذونك إليه.
- هذه فكرة عبقرية يا أكرم، من البداية قُل ذلك بدلاً من أن تصدِّع رأسي بالحديث عن الرئيس، سأذهب حالاً، والله لولاك ولولا أليكس لهلكتُ بلا شك.
- من هو أليكس؟
- سأخبرك عندما أعود.
- لا تتأخر يا عبد، وإياك أن تدخل إلى حمام النساء.
- أتحسبني مثلك؟

= من مذكرات أليكس عن شبابه =

حدَّقت ليسا بأحذية الرجال الذين كان يعبرون من أمامها، فتعرفت على أحد الأحذية، إنه ذات الحذاء الذي كان أمام وجهها عندما كانت موثقة ومرمية على الأرض وكان ينتعله تيمور. لقد غيَّر كل شيء في نفسه باستثناء الحذاء.

انتصبتْ بسرعة وتبعت الرجال الثلاثة، ونادت:

- هي، أنتم...

توقَّف الثلاثة واستداروا إلى الخلف.

اقتربت ليسا وهي تقول:

- لديكم أحذية جميلة.

نظر الثلاثة إلى وجهها، فرأت أشخاصًا غُرباء عنها ولا يشبهون من تبحث عنهم مطلقًا.

أشار تيمور إلى ساعة معصمه بما يوحي بأنه متأخر، وبدأوا يتحدثون مع بعضهم بلغة لم تفهمها، ولكن فيها ما يشبه عواء الكلاب، ثم فتح أحدهم جواز سفره وأشار لها بأنه من لوكسومبورغ ويتحدث اللوكسمبورغية ولا يتقن الإنجليزية.

كادت ليسا أن تُصدِّقهم فهناك آلاف الأحذية التي تشبه حذاء تيمور، وكادت أن تتركهم يذهبون، لولا شيء ما رأته قبل أن تدعهم وشأنهم، إنها ساعة بيد أحدهم عليها صورة سحلية

التنين المزركشة الأسترالية، عندها عادتْ لتستوقفهم بعد أن همَّوا بالرحيل، وأمسكت يد ذلك الشاب ونظرت إلى الساعة:

- إنها ساعة جميلة، عليها سحلية مزركشة جميلة.

تظاهر تيمور بأنه لا يفهم ما تقول، وبدأ يشير إلى عقارب الساعة وبأنه متأخر.

- لا تقلقوا، لن أؤخركم كثيرًا. أرني يا صاحب الساعة ما هذه الشامة التي على وجهك.

وأخرجت منديلاً من جيبها ولعقته بلسانها ووجهته باتجاه الشامة، فأمسك تيمور بيدها قال:

- هذا مُقزِّز.

ولكن السيف كان قد سبق العذل، فقد وصل المنديل للشامة ورسم بجانبها خطًا بعد ان أذاب جزءًا منها...

- شامتك ليست ثابتة يا محب الزواحف، ويبدو أنك تتكلم بعض الإنجليزية، ولا تقل لي بأنك لا تعلم من اللغة الإنجليزية سوى كلمة «مقزز». يبدو بأن التخفي لم ينجح مع سحلية «المولوخ» الأسترالية هذه المرة، ألا تعتقدون ذلك؟

دفع تيمور ليسا للخلف وركض هو ورجاله هاربين، صاحت ليسا: (هذا بالضبط ما أردتك أنت تفعله)، وقفزت خلفه بسرعة متجاوزةً الأشخاص الذين حولها وكأنها تراوغ بكُرة سلة، وصعقته بعص كهربائية سحبتها من حزامها، فسقط تيمور على الأرض مصعوقًا بالكهرباء، بينا رجال الأمن يقبضون على رجاله الهاربين في أماكن متفرقة من

صالة المطار.

جثت ليسا بالقرب من تيمور المتألم والمتلوي بفعل الكهرباء ونظرت في عينيه وقالت:

- أخبرني يا تيمور، أين هي حمالة الصدر خاصتي؟

= عبد الرحمن =

بعد قليل عاد عبد الرحمن متجهًا نحو أكرم وهو ينسِّق ثيابه

- لقد عدتَ سريعًا يا عُبد.

- نعم، كان الحمام قريبًا. والآن فلتتأخر سيدة الياسمين كما تشاء.

- هل تعجبك الحياة هنا يا عبد؟

- في الحقيقة وصلتُ حديثًا إلى ألمانيا ولا أستطيع تقييم الأمور هنا، ولكني خائف قليلاً من تأقلمي، وأخاف أيضًا على تأقلم اللاجئين مع الحياة والعادات هنا.

- وما هو سبب خوفك؟

- الفوارق الثقافية بيننا وبين الألمان.

- وما هي هذه الفوارق؟

- التربية هنا، والفروق بيننا بالثقافة والعلم وكل شيء.

- لنتفق على أمر يا عبد.

- ما هو؟

- لا تحسب بأن لاجئًا سوريًا سيعود يومًا إلى سوريا، فهذا مُحال، وحتى لو أصبحت سوريا أفضل دولة في العالم، فقد يذهب الألمان إلى هناك، ونحن لن نعود، فما رأيناه هناك يجعلنا نبتعد عن تلك البقعة من الأرض لمدة مليون سنة دون

اشتياق، ألا تسمع بالشعوب التي تطالب بحق العودة؟

- بلى.

- حسنًا، نحن نطاب بحق آخر، وهو حق اللاعودة. أما بالنسبة لموضوع الثقافة، فنحن السوريون عندما نرى الحق نسير إليه ولا نزيح عنه قيد أنملة، فلقد كنا بلدًا متطورًا علميًا وثقافيًا منذ أن كنا كنعانيين، وأموريين، وفينيقيين، وآرميين، وحتى العصر الإسلامي، ولم نتأخر ونتخلف إلا عندما أتى الرئيس السابق. لذلك نحن سنتأقلم بسرعة لأن الحضارة لا تزال في قلوبنا وعقولنا، ولا تزال تسير بدمائنا، فقبل أن يأتي الرئيس المُفدَّى، كانت سوريا تُلقَّب بـ«يابان الشرق الأوسط»، ورؤساء الدول يزورون دمشق ويقولون بأنهم سيجعلون مُدنهم مثل دمشق ومثل سوريا، ألم يقل ذلك رئيس ماليزيا «مهاتير» عندما زار دمشق سنة ١٩٥٢؟ وأقسم أن يجعل ماليزيا نسخة عن دمشق، فأين دمشق من ماليزيا الآن؟ تحولت سوريا من يابان الشرق الأوسط إلى صحراء الثقب الأسود.

- هل تقصد يا أكرم أن الرئيس هو من أوقف تطورنا؟

ابتسم أكرم مُظهرًا بأنه انتبه إلى الفخ، كما كان يحدث في بلاده:

- أنا لم أقُل ذلك يا عبد، لربما تزامن قدوم الرئيس مع بدء التخلف ليس إلا، أو لربما كان رئيس ماليزيا من الحُسَّاد الذين يصيبون بالعين، فساءت أحوالنا منذ زيارته المشؤومة تلك.

– تكلَّم يا أكرم بوضوح، فنحن في برلين، ولا يوجد مخبرون هنا عداي، فتكلم بكل صراحة.

– حسنًا، إنه مَنْ سبَّب هذا التخلف يا عبد، هل هذا جيد؟

– تابع، تابع، لن أكتب كل شيء، تابع.

وضحك الاثنان.

– لن تستطيع تقديم التقرير، فاليوم عطلة في أفرُع الأمن، فهو عيد المخبر النشيط.

= من مذكرات أليكس في بداية شبابه =

أدرك أليكس أن الحزن والانعزال لن يعطي أي نتيجة، ولن يصحح خطأه، فقام وغسل وجهه، وارتدى ثيابه، ثم ركب سيارته متوجهًا إلى بيت جانيت، فلم يبقَ بمقدوره القيام بشيء ليعوض خطأه بقتل تيمور سوى مواساة جانيت وإخراجها من حزنها على أقل تقدير، وبذلك يكون قد عوَّض بعض أخطائه تجاهها.

دخل إلى منزل جانيت التي كانت جالسة على طاولة بيضاء عليها باقة ورود، وصورة لها ولتيمور يظهران متعانقين، وأمامها كأس من عصير الليمون، ويبدو عليها التعب والسَّقم.

- جانيت، اعذريني كوني تأخرت في مواساتك، فلقد توفي جدي ولم أستطع أن آتي عندما علمتُ بالخبر.

حزنت جانيت على جد أليكس ذلك الرجل الطيب الذي تعرفتْ عليه في المشفى، ولكنها شعرت بهدوء في قلبها لأن أليكس لم ينساها أو يُهملها، وإنما كان مشغولاً بأمر جلل.

جلس بجانبها، وبدأ بالحديث معها ومواساتها. ثم بدأ في التردد على منزلها طيلة الأسبوع التالي لهذه الزيارة... حتى كشفت له سبب حزنها وأرقها، وهو أمر لا يتعلق بتيمور وحسب.

= عبد الرحمن =

- لمن تقرأ هذه الأيام يا أكرم؟

- قرأت العديد من الكتب ولكني الآن منشغل بمؤلفات الكاتبة المصرية «نوال السعداوي».

- لماذا تقرأ لها يا أكرم؟ فهذه الكاتبة لا يحمدونها كثيرًا فهي لا تدافع سوى عن حقوق النساء، فما شأنك أنت والنساء؟

- اسمع يا عبد، إذا أدرنا ظهرنا للملائكة التي تدَّعي أنها شياطين؛ فسنسِّلم أنفسنا للشياطين التي تدعي أنها ملائكة.

- لم أفهم؟

- إذا لم تفهم من هذه الجُملة وحسب، فلن تفهم مهما أطلتُ من الشرح، حتى لو بقيتُ أوضِّح لمدة أسبوع متواصل.

- حاول يا أكرم.

- حسنًا، سأخبرك سِرًّا لا يعرفه أحد عني...

قرَّب عبد الرحمن وجهه قليلاً باتجاه أكرم:

- أخبرني.

- أنا أكره شخصًا آخر غير الرئيس، ولكني لا آتي على ذكره مثل الرئيس.

تفاجأ عبد الرحمن وأرجع رأسه إلى الخلف:

- هل يُعقل ذلك؟ من هو؟

- هو أبي يا عبد، فقد كان يضرب أمي ويُهينها ويحبسها في الغرفة، وعندما كنتُ أحاول أن أدافع عنها؛ كان يضربني أيضًا ويدفعني خارج الغرفة، فكنت أذهب إلى الغرفة المجاورة وأرفع صوت المسجلة بأغاني الدلعونة لكي لا أسمع صوتها وهي تصرخ. وعندما ذهبت أمي للشيخ لتشكو له أبي، قال لها إن ضرب الزوج للزوجته وتأديبها هو شرع الله... ولكن هذا لم يكن شرع الله يا عبد، بل هو شرع الشيخ... وعندما علم أبي بذهابها إلى الشيخ بقي أسبوعًا ينفِّذ شرع الشيخ بها، وبقيتُ أسبوعًا أستمع إلى الدلعونة. ولو ذهبتْ إلى والدها لتشتكيه لكان جدي سينفِّذ شرع الشيخ بها ويؤدبها أيضًا. لم أفهم وقتها لماذا كلهم كانوا مؤدبين وأمي فقط هي التي تحتاج إلى تأديب لينفذ بها شرع الشيخ هذا، وحدها دون غيرها... كما لم أفهم الكثير من أقوال الرئيس. فالسؤال هنا يا عبد: من كان يتألم أكثر عندما كانت تُضرب أمي؟ أنا أم أمي؟

- لا أعرف.

- أنا يا عبد، أنا من كنت أتألم أكثر، فهي اعتادت على الضرب، وربما لم تعُد تشعر به، أما أنا لهذه اللحظة أتألم، وأنا رجل ولستُ امرأة، فأخبرني الآن يا عبد، عندما تدافع نوال السعداوي عن المرأة؛ فهل هي تُدافع عن الرجل أم عن المرأة؟ فالمجتمع المُتخلِّف لا يظلم المرأة فقط، بل يظلم المرأة والرجل ولا يستفيد منه سوى السيء من كلا الجنسين. ألم يقُل الرئيس: (كرهتُ عدالة الأرض لا لكثرة الظالمين فيها إنما للصالحين الذين يرون الظلم ويسكتون عنه) ثم سرقها منه قبل ذلك أينشتاين باستخدام آلة الزمن.

= من مذكرات أليكس عن شبابه =

بعد محاكمة طويلة نسبيًا؛ حُكِم على تيمور بأقصى عقوبة في أستراليا، وهي الحبس مدى الحياة، مع الأشغال الشاقة، كون عقوبة الإعدام قد أُلغيت نهائيًا منذ عدة أعوام.

عاد كل من أليكس وجانيت إلى حياتهما الطبيعة، وانتقلا للعيش في منزل الجد - بُناءً على رغبة طفلتيهما - كون الطبيعة خلابة هناك، رغم أن المدرسة ستكون بعيدة نوعًا ما.

كان لعودة تيمور؛ ومن ثم حبسه؛ أثر بالغ على جمال حياتهما، فأليكس تخلَّص من عقدة الذنب التي كانت تلاحقه منذ أن تزوَّج جانيت، وجانيت أدركت حجم وهم حب تيمور، ورأت وجهه الحقيقي، وأدركت مقدار حبها لأليكس وارتباطها به.

لكن أليكس وبموافقة جانيت سلك سلوكًا لم يتوقعه أحد، فقد واظب على زيارة تيمور عدة مرات في الحبس، وكان تيمور يرفض استقباله، حتى أن مأمور السجن استغرب زيارة أليكس المتكررة فسأله:

- ماذا تريد من شخص حاول قتلك وقتل زوجتك وطفلتيك؟ هل تريد الشماتة؟ أم هل أنت متدين وتريد أن تبيِّن له المسامحة؟

- أريد شيئًا أكثر من المسامحة وأكثر من الشماتة.

- ماذا تقصد؟

- اسمع أيها المأمور، لن أعود دون أن أقابله، قُل له إن أليكس يريد أن يراك لأمرٍ يخصه في غاية الأهمية.

= من مذكرات أليكس في بداية شبابه =

– لا أحد يعلم إن كان تيمور حيًّا أم ميتًا، فلم يجدوا إلا دماءً في بيته، ولكن في كل الحالات الأمر مُربِك.

– وكيف ذلك يا جانيت؟

– في حال كان قد قُتِل وأُخفِيت الجثة؛ فقد مات، وأكون قد فقدته. وإن كان حيًّا؛ هذا يعني أنه تركني لسببٍ ما، ربما تورَّط بأمرٍ ما وسافر. وهناك أمور أخرى تربكني يا أليكس...

– ما هي؟

– هل تعرف مدقق الحسابات العام في الشركة؟ ذلك الرجل كبير السن؟

– نعم أعرفه.

– استوقفني عند الدرج وحلَّفني ألا أقول لأحد ما سيقوله.

– نعم، وماذا قال؟

– طلب مني ألا أتزوج تيمور، وأضاف إن تيمور ليس جيدًا، ورفض أن يُبيِّن السبب، ولكن بعد أن ألححتُ عليه قال لي بأنه لن يقول سوى كلمة واحدة ويغادر، ووعدتُه ألا أخبر أحدًا.

– ماذا قال؟

– قال بأن تيمور يتاجر بالمخدرات.

تفاجأ أليكس، ثم استغرب تفاجئه، فهو يعلم أن تيمور

تاجر مخدرات، ولكن ربما بسبب طريقة سرد القصة التي استخدمتها جانيت؛ لقد أصبح لدى أليكس أيضًا شعور بأنه هو مجرم ويتصرف مثل المجرمين مِنْ كذب وتدليس، فهو يحس بأنه لا يفرق شيئًا عن تيمور بعد الآن.

- ولكن هل تعلم يا أليكس سبب حزني وقلقي وضياعي التام؟

- ما هو يا جانيت؟

- أنا يا أليكس.

- ما بكِ؟

- أنا حامل من تيمور، وكنت سأُخبره بذلك في اليوم الذي فُقِد فيه لنقيم زواجنا بعد أسبوعين ونحن سعداء بهذا الخبر، فكيف سأتعامل مع هذا الوضع الآن بعد ما حدث؟ وكيف سينمو الطفل دون أب؟ لا أريد له أن ينشأ دون أب، ويشعر بهذه الحاجة التي قد ترافقه طوال حياته، ولا أريد أن أجهض.

نظر أليكس لبضع ثوانٍ إلى السماء البادية من النوافذ، ثم قال:

- لن ينمو طفلك دون أب.

= من مذكرات أليكس عن شبابه =

دخل أليكس إلى قاعة الزيارة، وكان تيمور يجلس في غرفة صغيرة تتخلل القاعة وجدرانها من زجاج يفصله عما يجلس قبالته منعًا لأي أمر قد يحدث.

سار أليكس باتجاه حجرة تيمور الزجاجية، وجلس على كرسي موضوع بمواجهته مباشرةً. جلسا لبعض الوقت لا يتكلمان، فقط ينظران إلى بعضهما بصمت، وتيمور يُحدِّق بأليكس دون أن يزيح عينيه عنه بنظرة تحدٍّ.

ابتدأ أليكس الكلام:

- تيمور، هل فعلاً كنت ستقتل الطفلتين وهما بعمر السنتين؟

- لقد قال لي الضابط بأنك تريدني لأمر مهم يخصني، فادخل في الموضوع يا أليكس، وإلا غادرتُ فورًا.

- سأُخبرك عن سبب مجيئي، ولكن أجبني في البداية: هل حقًا تمتلك القدرة على قتل طفلتين بعُمر السنتين؟

- حسنًا يا أليكس سألعب اللعبة كما تريدها لأرى إلى ماذا ستصل، وسأخبرك بكل ما تريده، ففي البداية إذا كنت تبحث عن ندمي فأحب أن أخبرك بأنك لن تجد سوى الخيبة، أمَّا بالنسبة إلى جواب سؤالك؛ فإذا أطلقوا سراحي في هذه

اللحظة فسأذهب من فوري إليهما وأقتلهما، ولن أكتفي بذلك، بل وسأبتر أعضائهما أمام عينيك... هل يرضيك هذا؟ فأنا لا أشعر بأني أخطأت بشيء، سوى شيء واحد وهو ما مكّنكم مني، وهو أني أخذت حمالة صدر «ليسا».

وابتسم.

وقف أليكس وبدأ يمشي بالقُرب من الغرفة الزجاجية:

– وصلني الجواب يا تيمور، ولكن هناك أمر يثقل كاهلي ولا بد أن أخبرك إياه، وهو أني عندما تزوجتُ جانيت وعدتُها أن أكون أبًّا مثاليًا...

سكت قليلاً، ثم تابع:

– لقد كانت جانيت حاملاً بجنين عندما تزوجنا، وكان منك أنت يا تيمور، ولم يكن هذا الجنين سوى فتاتين توأم.

توقَّف تيمور عن الحركة بالمطلق وتجمدَّت مقلتاه.

– هما طفلتاك أنت، ولستُ أنا أباهم البيولوجي.

أدار أليكس ظهره وانصرف باتجاه الباب، وتيمور لا يتحرك ولم يقُل شيئًا.

وعندما أوشك أليكس أن يصل إلى الباب سمع تيمور يصرخ صرخة كلها ألم مصحوبة بصوت بكاء:

– لاااااااااا، هل كنت سأقتل طفلتيَّ، وأنت أنقذتهما؟

لم يلتفت أليكس إليه، بل تابع سيره باتجاه الخارج.

عندما وصل إلى الخارج قابله المأمور...

- ماذا أخبرته؟ ما هو الشيء الذي أكثر من الشماتة وأكثر من المسامحة وجعله يصرخ هكذا؟

- أخبرتُه بأنه إنسان، وبأي لحظة قد يتبادل الأدوار مع مَنْ حوله، فالظالم قد يصبح في مكان المظلوم في أي لحظة. إنه عدل لا يعرفه إلا القلائل.

لم يفهم المأمور شيء من كلام أليكس، ولكنه أحسَّ أنه كلام ذو قيمة.

= من مذكرات أليكس في بداية شبابه =

- سأكون أفضل أب لطفلك سواء أكان فتاةً أم صبيًّا، فلن تجدي في كل هذا العالم شخص أحبكِ كما أحببتُك أنا، ولن تجدي شخصًا سيحبّ أطفالك كما سأحبهم أنا.

ورغم أن جانيت لم تُعلِّق على هذا الطرح وسكتت ولم تُبدِ رفضًا أو قبولاً، ولم تعطِ أليكس جوابًا خلال الشهر التالي رغم مقابلاتهما اليومية، إلا أنها شعرت بشيء من السعادة، هذه السعادة التي أخذت تزداد في الأيام التالية، فكأنها كانت تريد ذلك منذ أن تعرَّفتْ على أليكس، ولكنها لم تجرؤ على تغيير مُخطَّط حياتها الذي رسمته مسبقًا، فكان ما يمنعها عن ذلك وجود تيمور وحملها منه، فهي لم تكن تستطيع أن تتجاوز ذلك الحلم بأن تصنع عائلة مع تيمور، بحلم جديد بأن تكون مع أليكس، ولكن قلبها كان يميل لهذا الإنسان الذي ما انفك عن مراقبتها، وها هو يعلن عن حُبها، وليس فقط بل أنه يقبل أن يكون أبًّا لطفلها.

شعرت جانيت بأن الحب يعود لقلبها وكأن الحياة خانتها ثم وقفت معها بوقت قصير، فأخذت تتقصى عن أليكس، فعرفت أشياءَ زادتها إعجابًا به، فقد عرفت بأنه تخرَّج من كلية الآثار، ولديه اطروحة عن حضارات الأستراليين القدامى، وكذلك لديه سبعة كتب تتعلق بالحضارات والآثار، وأن وهذه الكتب ذائعة الصيت لدى المختصين في ذلك.

- لماذا كُنتَ تعمل كمدقق حسابات في الشركة طالما أنت خريج آثار وباحث في هذا العلم؟

- لسببين يا جانيت: أولهم وهو الأهم وهو كوني أريد أن أراكِ يوميًا، والسبب الثاني أن شركتكم التي تتاجر بالحيوانات الأليفة وحاجياتها قد تحتاج في لحظة ما إلى أخصائي في الآثار، في حال تبيَّن بأن للحيوانات حضارة سابقة أو شيء من هذا القبيل.

- كفى غزلاً متكلفًا وفكاهةً يا أليكس وأخبرني الحقيقة.

- يومًا ما سأخبركِ الحقيقة كاملة، ولكن جزء منها هو أني لا أحب العمل بالمتحف أو بالتنقيب، بل أحب أن أكتب عن الآثار والحضارات القديمة فقط، وهذا العمل الذي أحبه لا يتطلب مني سوى صنع فنجان من القهوة والجلوس في البيت أمام شاشة الكمبيوتر.

- قرأتُ بعض كُتبك كانت رائعة، ككتابك «الحيوانات لدى الحضارات القديمة»، فلقد مزجتَ فيه بين حضارات أستراليا القديمة وحضارة الفراعنة وحضارة المايا والفينيقيين، وبعض حضارات إفريقيا، وكيف وصف كل منهم الحيوانات، وأدخلوها في رموز حياتهم وعلاقاتهم وأديانهم... كيف فعلتَ ذلك يا أليكس؟

- في الحقيقة أحببتُ الحيوانات منذ صغري، ولا أخفي عليك يا جانيت بأني تمنيتُ في صغري لو كنت كنغرًا لا إنسان أو على الأقل لو كانت أمي كنغرًا وأنا إنسان فسأقبل بذلك، وعندها سأجلس في جيبها وأراقب العالم وهي تقفز بي من

مكان إلى آخر. إنه حلم لم أستطع أن أتنازل عنه حتى الآن، وعند دراستي للحضارات القديمة أعجبني كثيرًا كيف كانوا يصفون الحيوانات ويتعاملون معها ويُدخلونها في أساطيرهم، فانشغلتُ بذلك، ثم أنجزتُ الكتاب الذي تتحدثين عنه وأسميته «طير الفينيق»، تيمّنًا بطائر الفينيق الأسطورة، الذي وصل صيته كل العالم.

– حسنًا، وأنت تُحسن العزف على البيانو وتتقن العديد من الرياضات، واللوحة التي أهديتها إلى الشركة؛ وعُلِقت في الصالة؛ لفتاة تدير ظهرها ويبدو شعرها أسودَ مسترسلاً؛ كانت من رسمك أنت؟

– نعم، إنها من رسمي.

– إنها جميلة للغاية. ولكن أصدقني القول: هل كنت تقصد بالفتاة التي تدير ظهرها أنا؟ وأني أدير ظهري لك ولحبك؟

– نعم.

– لقد جمعتُ بعض المعلومات عنك يا أليكس، حتى أنك ثري، فلديك أموال وعقارات.

– نعم، بعضها من أبي وأمي، وبعضها من جدي، والقليل منها من بيع الكتاب الذي كنا نتحدث عنه.

– ولكن بكل هذه المواصفات لماذا تبدو متواضعًا للغاية؟ حتى أن من يراك يشعر بأنك شخص عادي، بينما من يملك شيئًا واحدًا مما تملك يكون متكبرًا ويظهر للناس عنفوانه؟

– أنا أرى بأن الإنسان ليس بإنجازاته ولا بأمواله، بل إني أحب في الناس شيئًا ما في داخلهم لا أستطيع وصفه؛ شيئًا

أشعر به وكأنه ماهيتهم أو جوهرهم، فهذا ما أحببتُه بكِ، لا ما تملكين أو ما تفعلين.

- حسنًا يا أليكس، لقد سألتني سؤالاً منذ شهر بأنك ترغب بأن تتزوجني وأن تكون أبًّا للجنين، إن كنت لا تزال عند طلبك، فأنا موافقة.

= عبد الرحمن =

– أخبرني يا أكرم، ماذا تعمل هنا في ألمانيا؟

– أنت تعرف يا عبد بأن قائد المسيرة قد منَّ علي وسجنني سبع سنين، وأخرجني من سجونه مجنونًا، فأنا لا أتُقن أي مهنة أو عمل باستثناء تفسير أقوال الرئيس الخالد والرئيس الرمز وتفسير الكلمات الصباحية.

– حسنًا.

– ولذلك قصدتُ عدة مدارس ابتدائية هنا في ألمانيا لأُفسِّر كلماتهم الصباحية، ووقفتُ عند أبوابهم لأستمع لمضمون كلماتهم الصباحية وأُفسِّر أقوال رؤسائهم وأُبيِّن المقصود منها. وعندها حدثت الكارثة يا عبد...

– ماذا حدث؟

– اكتشفتُ أنهم لا يقولون كلمات صباحية هنا، ولا يقولون أقوال للرؤساء في مدارسهم، أُصبِتُ بانهيار نفسي ولازمني اكتئاب حاد دام لأسابيع متتالية.

ضحك عبد الرحمن:

– يعوض الله يا أكرم، يعوض الله.

– ولكني لم أستسلم للاكتئاب، بل وجدتُ العمل البديل، بعد بعض العناء.

- ما هو؟

قام أكرم بسحب جريدة من جيبه الخلفي:

- اكتشفتُ عملاً يمكن أن أفيد به نفسي والألمان هنا.

- وما هو؟

- بدلاً من أُفسِّر أقوال الرئيس، يمكن أن أُفسِّر المقالات الصحفية وأشرحها وأضع حلولاً لأسئلتها ومواضيعها، وهذا الأمر جميل مثل جمال تفسير أقوال الرئيس.

- ممتاز، أحسنت يا أكرم.

- فمثلاً، انظر إلى هذه المقالة يا عبد، إنها تتحدث عن حقوق الكلاب، فوزيرة الزراعة الألمانية «جوليا كلوكنز» تقول بأن الكلاب في ألمانيا تعاني من بعض الأمور.

- مثل ماذا؟

- فمثلاً...

أخذ يُقلِّب الجريدة بين يديه، وأردف:

- على سبيل المثال، مشاعر الكلاب تتأذى من جراء انشغال أصحابها بهواتفهم الذكية، وتطالب الوزيرة باحترام الكلاب، فيجب على المواطن الألماني أن يُنزه كلبه مرتين في اليوم على أقل تقدير، وأن يُسكنه في بيت ضمن درجة حرارة مناسبة للعيش... أضف إلى ذلك أن الوزيرة تُوبِّخ المستهترين بحقوق الكلاب وتقول لهم: (الحيوانات الأليفة ليست ألعابًا محبوبة لديكم، ويجب مراعاة احتياجاتها). وأكدت الوزيرة بأنهم سيقومون بأبحاث جديدة لمعرفة حاجات الكلاب .

- توقَّفْ عن القراءة يا أكرم، وأخبرني، ما دخلك أنت بكل هذا الكلام؟

- هنا يأتي دوري يا عبد، فأنا خبير بالكلاب.

- ومن أين أتت خبرتك بالكلاب؟

- ألم أقل لك أني كنت أعمل مع الثوار؟

- نعم قلت.

- ولكني لم أقُل لك ما كانت مهمتي بينهم.

- وما هي؟

- مهمتي كانت انتقاء الكلاب المناسبة من أجل أن نأكلها.

- وهل كنتم تأكلون الكلاب؟

- نعم يا عبد، والهررة، وكل شيء يمكن أن يُوضع بالفم، فسيادة الرئيس كان يحاصرنا ويقصفنا، فلم يبقَ لدينا حلول... ما بك تبدو متأثرًا؟ الأمر عادي، ففي كل مجاعة يحدث ذلك، سأعطيك مثالاً، فالصين مثلاً، حكمتها قيادة حكيمة مثل قيادتنا الحكيمة، ولكن كانت قيادتهم أشد حكمة من قيادتنا، وعلى يد الرئيس «ماو»، فمات الشعب من الجوع بسبب إفراط الحكومة بالحكمة، فهناك من قال إنه مات عشرين مليون شخص، وهناك من قال: لا، بل مات أربعين مليون. وأصبح الناس يأكلون القطط والكلاب والخفافيش والقردة، وكافة أنواع الحيوانات البرية، وأكثر من ذلك، واستمروا بأكل هذه الحيوانات حتى بعد انتهاء المجاعة...

- قُلتَ: أكثر من ذلك!!! وهل هناك أكثر من ذلك؟

- نعم يوجد، فهم أكلوا أطفالهم، ويقول المؤرخون إنهم كانوا يتبادلون أطفالهم لكي لا يشعروا بالحزن عليهم وهم يأكلونهم.

- هذا غير معقول!.

- وكذلك نحن، أكلنا الكلاب، ولكن من المستحيل أن يستمر هذا لدينا مثل ما استمر عند الصينين، لأن ديننا يُحرِّمها، فستنتهي بانتهاء الحرب والحصار.

- حسنًا، وماذا سيستفيد الألمان منك؟ إذا كنت لا تعلم من أمر الكلاب سوى أيها أفضل للأكل؟ وهم لا يأكلون الكلاب.

- هنا يا عبد وضعنا الجمّل، ورفسنا ورحل.

وأخذ يضحك.

= من مذكرات أليكس عن شبابه =

لم يملّ تيمور بعد ذلك من إرسال رسائل البريد إلى أليكس لكي يرى الطفلتين... وبعد الكثير من الرسائل، وافق أليكس وجانيت على ذلك، وأصبح أليكس والطفلتان (سكارليت وأرورا) يزوران تيمور بين الحين والآخر، أما جانيت فلم تزره مطلقًا.

ولم تعلم الطفلتان أن تيمور والدهما البيولوجي إلا بعد أن كبرتا نوعًا ما، وأصبحتا بعمر العشر سنوات، وقد تقبلتا الأمر؛ على خلاف ما كان أليكس وجانيت يخافان، وقد كان لتيمور دورٌ في ذلك، فكان يتعامل معهما بقمة اللُطف، بل ربما هو أصبح كذلك، فكلما أحضرهما أليكس إليه انشغل بهما وحدثهما بلطف ومحبة، وكان لا ينظر إلى أليكس أبدًا، بل تبقى عيناه إلى الأرض خجلاً، كان فقط ينظر إليه في البداية عندما يدخل معهما بنظرة خاطفة، ويُضيف: (شُكرًا، شُكرًا).

لقد تغيَّر كثيرًا، وأمسى كطفل، لا يريد من هذا الكون سوى رؤية هاتين الطفلتين واللعب والتحدث معهما، وبسبب ذلك تقبَّلتْ الفتاتان الخبر عندما سمعا به، وكذلك سامحا تيمور - والدهما البيولوجي- على أفعاله، بل أنهما أحبَّا بأن يكون لديهما أب عصامي وذكي مثل أليكس، وأب آخر حنون مثل تيمور، وشعرا بأنهما محظوظتان لكونهما تمتلكان والدين،

وهذا ما لا تمتلكه الفتيات الأُخريات.

كانت هاتان الفتاتان في غاية الجمال والنشاط والحيوية، وكان أليكس وجانيت يفخران بهما كثيرًا، وخصوصًا وهما الآن يعتنيان بأخيهما الصغير «جون» والذي قرَّر كل من أليكس وجانيت إنجابه، وهو ابن أليكس البيولوجي والتربوي.

والآن طفل أليكس بعمر الخامسة، والطفلتان في العاشرة من عمرهما، وهو يعترض ويقول لأليكس وجانيت: (لماذا أخواتي سكارليت وأرورا، يملكان أبوين اثنين أنت وتيمور، وأنا لا أملك سوى أب واحد وهو أنت؟ أريد أبًّا ثانيًا.

في حين الطفلتان ووالديه يضحكان بجانبه.

= عبد الرحمن =

- أنا أعرف عن الكلاب أمورًا أكثر من حيث أيها أفضل للأكل، وسأُوفِّر على الألمان الكثير من الأموال، والتي سينفقونها؛ دون طائل؛ على أبحاثهم بخصوص الكلاب، فأنا أعرف كل ما يدور في خُلد الكلاب، ولا حاجة لكل هذه الأبحاث.

- وكيف تعرف ذلك؟

- ببساطة يا عبد، فهم يقولون بأن الكلاب تنزعج من انشغال أصحابها بهواتفهم الذكية، وأنا عندما كنت صغيرًا كنت انزعج من انشغال أبي بباصه، فأنا إذًا أعرف شعور الكلاب.

- يا سلام، أنت نابغة، حسنًا أكمل، وما الذي توصلت إليه؟

قلَّب أكرم الجريدة، وتابع الحديث:

- توصلت إلى أن الكلاب في ألمانيا تعاني من مشكلة نفسية خطيرة، فانظر هذا الخبر: هنالك ألف وخمسمائة ساعي بريد يتعرضون للعض سنويًا من الكلاب؛ حسب إحصاءات البريد الألماني الرسمية، فهذا يثبت كلامي، لأن لدينا في سوريا يوجد ألف وخمسمائة كلب سنويًا، يتعرضون للعض من المواطنين، بحسب إحصائياتي الرسمية.

- وكيف تكون إحصائياتك رسمية يا أكرم؟!

- هكذا تكون الإحصاءات في سوريا، والرسمية تأتي من الرسم، ولا تدل على دقة النتيجة، والآن دعني أُكمل...

- أكمل بالله عليك

- هناك يا عبد حاجة للكلب يخفيها عن الجميع، فالكلب يعاني من عقدة النقص، بسبب أننا دومًا أطول منه قامة.

- ما هذا الاكتشاف العظيم يا أكرم، وكيف علمت بذلك؟

- بكل بساطة، فالمرأة تعاني من عقدة النقص بسبب عدم امتلاكها للقضيب الذكري؛ كما يقول «فرويد وهيلن دويتش». والرجل يعاني من عقدة النقص لأنه لا ينجب؛ كما تقول «د.نوال السعداوي». ولا يهمني إن كانت مزاعم فرويد وهلين والسعداوي صحيحة، ولكن بما لا شك فيه أن عقدة النقص وصلت بطريقة ما إلى الرجال والنساء، أما كيفية دخولها إلى النفس البشرية فهذا أمر جدلي لسنا في مضماره ويحتاج لجلسة خاصة... المهم، فكما وصلت هذه العقدة إلى الرجال والنساء يا عبد فلا بد أنها وصلت للكلاب، وبما أن الكلاب تنجب وتمتلك قضيبًا ذكريًا مثل البشر فلا مدخل لها من هذه الناحية للشعور بعقدة النقص مقارنةً بالبشر، سوى أننا أطول منهم في قامة.

- ما هذا التحليل الخارق يا أكرم؟ أكلُّ هذه الفلسفة، جنيتها بسبع سنين حبس فقط ؟

- انتظر يا عبد، فالقادم سيذهلك.

- تفضل.

- إذا أشبعنا شعور الكلاب بالنقص، ستُصبح أسعد كلاب في العالم.

- وكيف نُشبع عقدة النقص عند الكلاب يا أكرم؟

- السُّلطة يا عبد، فالكلاب بحاجة إلى السُّلطة، اعطِ الكلاب السلطة، وبعدها ستصبح أسعد كلاب في العالم. عندما أتعلم اللغة الألمانية سأذهب إلى وزيرة الزراعة الألمانية «جوليا»، واقف أمام منزلها وأنادي عليها، وعندما تصعد إلى شرفة منزلها سأصرخ لها بكل صوتي: (اسمعي يا جوليا - مع حفظ الألقاب -).

- وهل ستقول أيضًا (مع حفظ الألقاب) من أسفل الشرفة؟

- طبعًا، اسكت يا عبد، لأُحسِن إكمال تخيل التكلم مع الوزيرة.

- تفضَّل.

- سأقول لها: لكي تسعدي الكلاب؛ اعطِهم السُّلطة يا جوليا، وبعدها ستصبح أسعد كلاب في العالم، وستصبحون أنتم أتعس شعوب الأرض.

= من مذكرات أليكس في بداية شبابه =

بجانب شاطئ البحر وفوق رماله، نُشرت مصابيح صفراء، ومُدَّت سجادة حمراء مزخرفة، ونُصب كوخ كبير من دون جدران، ووُضِعت تحته طاولات بأغطية بيضاء مذهبة، ورُفِعت منصة للعروسين.

وقف أليكس ببدلتهِ البيضاء بالكامل، وحتى ربطة العنق كانت بيضاء أيضًا، وجانيت بفستان زفاف أبيض مزركش، والمليء باللآلئ اللامعة، وبجسمها الجميل الذي لم تظهر عليه آثار الحمل بعد. ثم اتجها ليقطعا طبقات قالب الحلوى.

شعر أليكس بالحزن وهو يهم بإطعام جانيت من قطعة الكعك، فهو لم يقتل خطيبها وحسب؛ بل هو الآن يتزوجها، شعر بالذنب وأراد أن يضرب رأسه بقالب الحلوى الذي أمامه. نظر إلى فم جانيت الذي فتحته لتتلقى قطعة الحلوى من شوكته، وأسنانها البيضاء الجميلة، وقال في نفسه: (كم هي لطيفة).

شعرت جانيت بتغيُر حال أليكس، نظرت إلى عينيه:

- أليكس ألا تحبني؟

حدَّق أليكس بها، وأخذ يخاطب نفسه: (إن أشد أحلامي روعة يتحقق الآن، ولكني لا أشعر بالسعادة).

أعاد النظر إليها: (كم هي جميلة). كان لا يزال يمسك الشوكة التي تحمل قطعة الحلوى، وجانيت تنتظر فاتحةً فمها، ثم قال لنفسه: (حسنًا أنا قتلتُ إنسانًا، سأتقبَّل هذا منذ اليوم، وأنا مستعد لأقتل كل الحضور لأحصل على يوم واحد مع هذه الملاك)... وقال:

– طبعًا أُحبكِ، بل أهيم بكِ.

غمس قطعة الحلوى التي على شوكته بوجهها، فاستنفرت لذلك، ونزعت كريما الشوكولا التي على قالب الحلوى، ودهنت له وجهه بالكامل، وهو يضحك ويقاوم، والحضور يضحكون على تفاصيل معركة الحلوى، غير المتوقعة. ثم قام بحملها عنوةً ومَرَّ بها بين الحضور، وانطلق باتجاه البحر وهي تضحك ووجهها ملوث بالكريما، أما وجهه فبالشكولاتة بشكل كامل، فتبعهما كافة الحضور، راكضين على الرمال.

دخل بها إلى البحر حتى وصلت المياه إلى ركبتيه وأخذ يُقبِّلها ويستطعم هو وهي بطعم الشكولاتة والكريما من رؤوس ألسنتهما، بينما الحاضرين متأثرون، فمنهم من يُصفِّق ومنهم من يتأمل، ومنهم من استلهم من المشهد فضمَّ زوجته وأخذ يُقبِّلها.

كان مشهدًا سحريًا يُزِّينه القمر، الذي يظهر خلف العروسين، ويعكس ضوءه على المياه الهادئة للبحر.

= عبد الرحمن =

- لقد تأخرتْ عقيلتي.

- فلتتأخر كما تشاء، فلقد ذهبتُ إلى الحمام، وأنا مستمتع برفقتك والحديث معك. أتعرف يا أكرم؟ لقد تعرفتُ على أكثر شخصين شجاعة وغرابة على هذا الكوكب.

- ومن هما؟

- أنت يا أكرم، ورجل أسترالي يُدعى أليكس

- ومن هذا الأليكس؟ هل اختارته حكمة الرئيس الخالد وسجنته مثلي؟

- لا، هذا اختاره الكون.

- لا، ما أقلَّ حظه، إن الكون أضعف من الرئيس بكثير. أخبرني عن أليكس هذا.

- أليكس يدَّعي أن لكل مادة بُعد لا مادي، ويدَّعي بوجود مملكة كبيرة من الكائنات اللامادة وهي تؤثر على حياتنا فتُوزِّع السعادة والحب والمعاناة على البشر بحسب الاستحقاق.

- كم سنة سجنه الرئيس، قُلتَ لي؟

- قلتُ لك بأنه ليس له علاقة بالرئيس.

- أخبرني يا عبد، وأين أنت من هذين الرجلين؟ أقصد أنا وأليكس؟

- موضعي منكما موضع المتفرج المندهش من حكمة الله وحكمة الرئيس والمراقب لكِرشه، نعم يا أكرم هذا الكرش يرافقني منذ صغري وأنا أستغربه دائمًا، أستغرب وجوده معي وجموده وكأنه لا يأبه لشيء... قُل لي يا أكرم: هل أفادك الرئيس بسجنه لك؟

- أكثر مما تتصور يا عبد، فأنا لو بقيتُ طوال عمري أُكافئه لن أوافيه حقه، حتى أني لو عدتُ إلى الماضي، لتواصلتُ مع برنامج «ما يطلبه الجمهور» والذي كان يُعرض سابقًا (*)، هل تتذكره؟

- نعم أتذكره.

- ولأهديته أغنية له ولأم عمار وعمار طبعًا، كنت سأقول: أُهدي أغنية «ميادة بسيليس» «كذبك حلو» للرئيس.

- لقد كتبتَ في ذلك الزمن (لا للغلاء)، فسجنوك سبع سنوات، فلو فعلتَ ذلك حينها لأعدموك فورًا.

* برنامج "ما يطلبه الجمهور": هو برنامج غنائي سوري قديم، كان يُعرض على المحطتين الأرضيتين الوحيدتين، وكان المشاهد يطلب الأغنية ويهديها لأحدهم، وقد اعتاد المتصلون إهداء المذيعة "أم عمار" مع من يهدونه الأغنية، وأحيانًا يبالغون فيهدون "عمار" أيضًا.

= من مذكرات أليكس =

أخذت الحياة تمر على كل من أليكس وجانيت بهدوء وهناء، فقد كبر أطفالهم والتحقوا بالجامعات، وحياتهم الزوجية أصبحت في غاية الجمال والراحة، فقد عمد أليكس إلى تقديس الحُرية بينهما، فكان يقول: (سأجعل للحُرية مكانًا تتحرك به بيننا، فتصبح حياتنا الزوجية كالتربة المهواة، تسمح لنبتة السعادة بالنمو).

فبعد أن عادا إلى البلدة، سكن كل واحد منهما في منزل خاص به، في ذات الحي، ولذلك كانا بحالة اشتياق مستمرة، ويزوران بعضهما دائمًا، ويخرجان للرياضة سويًا في كل صباح.

قدَّرت جانيت بأن سلوك أليكس هذا، يأخذ بُعدًا روحيًا، فهو بالنسبة لها لم يعد زوجها فقط، بل تشعر بعد كل ما مَرَّا به سويًا بأنه أصبح والدها وصديقها ومرشدها الروحي أيضًا.

في أحد الأيام وقف أليكس - الذي أصبح في الستينيات - أمام منزل جانيت، ثم أمسك حجرًا ورمى به شباك منزلها، فكسره. نظرت جانيت من النافذة فرأته يقف أمام منزلها ويرتدي حقيبة ظهر...

- لماذا كسرت النافذة؟ أهكذا يكون الجيران؟ تعال ادخل ونظِّف الزجاج عن الأرض.

- لا، لن أدخل يا جانيت، تعالي أنتِ، أريد أن أُحدِّثكِ قليلاً قبل أن أسافر.

عندما ذكر أليكس كلمة «أسافر» شعرت جانيت بأن قلبها قد انقبض وأُصيبت بفزع غريب من وقع هذه الكلمة على مسامعها، فارتدت خُفيها، وجرت إلى أليكس الذي يقف أمام منزلها. وعندما بلغته نظرت إلى عينيه:

- ماذا يا أليكس؟

ابتسم لها، وقال:

- أنا مسافر يا جانيت إلى منطقة خطرة من هذا العالم، لذلك كسرتُ زجاج نافذتك، فإذا قُتِلتُ هناك لا تحزني، وقولي حسنًا أنه مات، فقد كسر زجاج نافذتي.

- هل تمازحني؟ أخبرني ما الأمر؟

- بعد نصف ساعة من الآن ستنطلق طائرتي إلى سوريا.

- ماذا؟ هل جُننت؟! تلك البلاد في حالة حرب، وجميع قوى العالم تتصارع هناك على النفوذ والثروات، والدماء والدمار يملآن المُدن، فقد بلغ عدد القتلى أكثر من أربعمائة ألف شخص، منهم اثنان وعشرون ألف طفل، وهُجِّر الملايين، فقُل لي بأنك تمزح.

- لا، أنا لا أمزح، يجب أن أرحل، فهناك شخص يجب أن أساعده.

اقتربتْ منه وضمته إلى صدرها، ووضعت رأسها على كتفه، فقد كانت تعرف هذا البريق الذي في عينيه جيدًا، فهو

يدل بأنه اتخذ قراره، ودرس كل الاحتمالات، وحتى احتمال أن يُقتل هناك، ولن يتراجع أبدًا. تنهدت قائلة:

- حسنًا، أين ستذهب بالتحديد؟ ومن هذا الشخص الذي ستذهب لأجله؟

- سأذهب إلى مدينة داريا في سورية، أما الشخص فاسمه عبد الرحمن.

- وهل ذهبت إلى هناك سابقًا؟ أو التقيت بهذا الشخص؟

- لا، لقد ذهبتُ إلى هناك بصيغتي اللامادية، ورأيتُ هذا الشخص بهذه الطريقة.

- وما حزمة الورق التي بيديك؟ وما الكتابة التي عليها؟

- إنها مذكراتي الشخصية، وفيها قصة حُبنا أنا وأنتِ، وكل ما جرى بيننا وبين تيمور، وهي مكتوبة باللُغة العربية.

- وماذا ستفعل بمذكراتك هناك؟ هل ستوزعها على الجنود المتقاتلين، أم على الجياع المتشردين؟

- لا، بل سأعطيها لمن يُحسِن صياغتها.

- أيوجد مَنْ يُحسِن صياغتها أكثر منك يا أليكس؟ فأنت عشتها بكل تفاصيلها.

بلى، يوجد.

- حسنًا، ولكن خُذني معك يا أليكس.

- لا، ليس هذه المرة.

= أليكس =

في مكانٍ ما في روسيا؛ كان أليكس يدفع الثلج بقدميه ويتجه إلى ذلك المنزل الخشبي، والريح الجافة والباردة تصطدم بوجهه، إلى أن وصل فطرق الباب، ففتحت له امرأة بوجه مبتسم:

- ادخل من البرد يا عجوز.

- اشتقتُ لكِ يا ساندي، فلا يزال كوخنا الخشبي مُعلَّقًا فوق الشجرة يسأل عنا.

خلع معطفه، وضمَّها مطولاً، ثم دخل وسلَّم على زوجها «مكسيم»، وجلس على الأريكة بالقُرب من الموقد، كان الجو دافئ في الداخل، وكان كلب «البيترون» ذو الخدود المتدلية يجلس بجانب مكسيم، وينظر إلى أليكس بشفتيه المتراخيتين، التي تُظهر نظراته وكأنها عدم مُبالاة واستهزاء.

بقيا يتحدثان حتى منتصف الليل، فاستأذن مكسيم وذهب للنوم، وبقيا يتبادلان الأحاديث والذكريات، حتى غفت ساندي على الأريكة مقابل أليكس، فنهض ونظر من نافذة الغرفة ليتأمل انهمار الثلج في الخارج، والذي يبدو تحت ضوء المصابيح. وعاد بعدها وجلس على أريكتهِ قبالة ساندي، وأخذ ينظر إلى وجهها الذي جفَّفه البرد والزمن والذي يحمل ملامح السكان الأصليين لأستراليا، وبدأت تظهر عليه

ملامح الكبر بالسن، وقال بصوت خفيض: (كم اشتقتُ لكِ يا ساندي، كيف كبرنا بهذه السرعة؟ ومن يستطيع أن يُعيد لنا تلك الأيام، عندما كنا نلهو طوال الظهيرة في تلك الغابة الأسترالية الشاسعة؟

وبعد فترة من تأمله لها؛ غطَّ في النوم.

= عبد الرحمن =

– ها هي عقيلتي أقبلت يا عبد.

سلَّم عبد الرحمن عليها، وبدأ أكرم يكلِّمها بلُغة ألمانية ضعيفة للغاية.

– هل تُسمِّي هذه لغة ألمانية يا أكرم؟

– المهم أنها تفهم علي، فأنا أقول لها إنك صديقي منذ المرحلة الابتدائية عندما كنا أطفالا، وترى بأني وضعت كفّ يدي عند ركبتي، فلا شك أنها فهمت عبارة «أطفال».

– ولربما ظنَّت معناها «رُكبة» يا أكرم، فربما ظنت أن صديقك لديه تمزق حاد في الركبة.

– لا يا عبد، إنها تفهم علي، اخرس الآن يا عبد، أعرفك الآن على هايدي.

– تشرفنا يا هايدي، ترجِّم لها يا أكرم أني قلت: تشرفنا. ترجم.

– ترجمة كلمة «تشرفنا» تأخذ نصف ساعة بالألمانية، أليس لديك عبارة أصغر من ذلك يا عبد؟

– ماذا يوجد أصغر من كلمة تشرفنا يا أكرم؟ وهل طلبت منك أن تترجم لها (شاو مشل شلولٌ شوشلٌ شولُ) فقط تشرفنا.

– ماذا قلت يا عبد؟ هل ما قلته عربي؟

– طبعًا، إنه شطرٌ من معلقة الأعشى.

– كفى يا عبد، أعطني عبارة أستطيع ترجمتها.

– حسنًا، قُلْ لها «مرحبًا»، قل لها عبد يقول لكِ «مرحبًا» وفقط.

– حسنًا، هذا سهل: (عبد هاي).

– ما بك يا أكرم؟ ماذا تعني بحق الجحيم بـ(عبد هاي)؟

– يعني (عبد يسلم عليك).

– هكذا؟ عبد يسلم عليك عبد هاي، وبالأصل هاي هي كلمة إنجليزية.

– وكيف يُقال ذلك أيها المحامي؟

– لا أعلم، ولكن ليس بالطريقة التي قُلتها.

– كفى يا عبد، إنها تفهم علي ما أقول.

– صار لك سنة هنا، أنت بطيء التعلم يا أكرم.

– طبعًا يا عبد، أنا تربية الرئيس، هل تريدني أن أكون عبقريًا باللغات أو أتقن سبع لغات مثلاً؟ فالمعلمون الذين كانوا يعلموننا اللغة الأجنبة الوحيدة، وهي الإنكليزية؛ كانوا لا يتقنوها ولا يتقنون العربية أيضًا، فبالله عليك خف عني.

– أكرم، أنظر إلى عقيلتك.

كان عبد يُحدِّث أكرم، بينما هايدي تتكلم ببعض الجُمل...

– ما بها؟ تبدو ميتة.

- ما هذا الكلام يا عبد؟ إنها طبيعية.

- لا تفرس في وجهها، إنه صافٍ للغاية، يبدو أنها لم تُفكِّر منذ ثلاث سنوات، ولم تقلق منذ ولادتها، ووجهها كمن يمارس اليوغا، دعها تلعب الشطرنج في كل يوم يا أكرم، لكي تُفكِّر.

- هل تحسب الوجوه كالوجوه عندنا؛ كئيبة من الهم والحزن؟ حبيبتي رائقة دومًا، إضافة إلى أنها سبَّاحة، ألا تعرف أن السباحة أفضل من اليوغا؟

- لا، لا أعلم.

- نعم يا عبد، فهايدي لا تخرج من الماء إلا عندما أزورها.

بدأت هايدي بالتكلم والنظر إلى عبد الرحمن، فسأل:

- ماذا قالت يا أكرم؟

- قالت كلامًا جيدًا.

- وما هو هذا الكلام الجيد؟

- لا أعرف يا عبد، لم أستطع ترجمته، ولكني أحسستُ بأنه جيد.

تكلمت هايدي مرة ثانية...

- لن أسألك يا أكرم ماذا قالت، فبالتأكيد لم تفهم شيئًا، ولكني أحسستُ بأنه كلامها ليس جيدًا هذه المرة.

- لقد فهمتُ جُملة واحدة.

- ما هي؟

- سأقولها لك فيما بعد، نراك قريبًا يا عبد، هذا رقم هاتفي الخليوي، حدِّثني دائمًا.

وأخذ يبتعد هو وخطيبته.

- حسنًا، إلى اللقاء، ولكن بالله عليك ماذا قالت عقيلتك بالجُملة التي فهمتَها؟

- سألتني سؤالاً صغيرًا.

- وما هو هذا السؤال الصغير؟

- حسنًا، بما أنك مُصِّر، سألتني: هل صديقك مجنون مثلك؟

ضحك عبد الرحمن:

- وبماذا أجبتها يا أكرم؟

- قلتُ لها إنك مجنون، فلا أريدها أن تظن بأنني اللاجئ الوحيد المجنون في هذه المنطقة.

- أحسنتَ يا أكرم، فقط لو أعرف، ما الذي حدا بالرئيس وأخرجك من السجن.

- لم يشأ ان تبقى أقواله مغمورة ودون تفسير، إنه حكيم يا عبد.

أخذ أكرم يبتعد، وعبد الرحمن يقف وحيدًا يراقبه، وهو يسير مع خطيبته ويتحدثان ويحرك يده مؤشرًا لتفهم عليه، وهو مبتسم وهي، فشعر بسعادة عارمة لحال صديقه وهو يتأمله يبتعد.

= من كُتب اللا مادة – عن مستقبل أليكس =

يمتزج بالعالم المادي عالمٌ لا مادي، مليء بالكائنات، ولكن العالمان مختلفان بالزمن، فلا يمكن أن يلتقيا في لحظة حاضرة واحدة.

وفي ذلك العالم اللامادي، توجد مملكة عظيمة، لا يوجد فيها شعوب تنتظر مساعدة شعوب أخرى، ولا يوجد فيها بيوت تتهاوى على الأطفال الهاربين من زاوية لأخرى. ولا يوجد فيها رجال ونساء يملكون السُّلطة، وعندما يرون المجازر والقتل يثورون، ويغضبون، ويتأهبون، إلى أن تُوزَّع عليهم حصصهم من الثروات، وبعدها يسكتون ويتجاهلون، وأحيانًا يؤيدون، وأكثرهم ضميرًا يوصي بإحسان دفن القتلى.

لقد استقبلت هذه المملكة فوجًا جديدًا من الأطفال، الذين سيقيمون بها ويدخلون مدارسها، بعد أن تُوفوا وفقدوا جُزءهم المادي واستحقوا دخول المملكة، وكان من بين هؤلاء الأطفال طفلٌ متحمس، كثير الشرود، ويعاني من فرط في النشاط، ولذلك أصبح يعتني به المعلم الأكبر بشكل خاص.

في أحد الأيام خرج الطفل من المدرسة؛ والتي كانت داخل القصر؛ وانطلق ركضًا في ساحة لا مادية شاسعة، كأنها ملعب غولف عملاق، تحيط بها غابة لا مادية كثيفة. صرخ المعلم الذي يركض وراء الطفل بصوت لامادي رفيع:

- انتظر يا أليكس.

لقد بلغ عمر أليكس مئة وخمسين سنة لامادية، وهو بذلك طفل صغير بالنسبة للأعمار هناك، فمُعلمه يبلغ عُمره عشرة آلاف سنة.

لم يستجب أليكس لنداء مُعلمه، بل بقي يركض مستعجلاً وكانت سرعته تفوق سرعة الضوء بعشرات المرات، لكنها بالنسبة للمعلم كانت وكأنه يركض على مهل.

- اسمعني جيدًا يا أليكس، سأعود للقصر، إياك أن تدخل إلى الغابة الكثيفة، اِبقَ في الساحة هنا.

لم يقُل أليكس شيئًا.

قال المعلم:

- هذا الطفل سيجلب لي جنونًا لا ماديًا حادًّا.

وعاد أدراجه إلى القصر.

أمَّا أليكس فقد قرَّر الذهاب إلى الغابة، فور هذا التحذير، فقد كان يريد أن يرى السلحفاة ذات اللسان والأصابع الثلاثة، والتي تشفي من أي مرض لا مادي إذا لعقت وجهك بلسانها. فتوجه إلى الغابة مباشرةً، ودخلها دون أن يُبطئ من سرعته، فتعثر بجذر شجرة لا مادية بارزٍ فوق الأرض الشاسعة، وأخذ يتدحرج، ثم لم يعد يشعر بالأرض تحتكّ بجسده، وسقط في جُرف لامادي عميق للغاية فكَّر في نفسهِ:(هل سينقذني أحد هذه المرة؟).

وبينما هو يسقط؛ أحسَّ بيد لا مادية تمسكه من يده وتسحبه لتضعه في كهف كبير.

نظر أليكس فوجد طفلاً آخر أكبر منه.

– شُكرًا لأنك أنقذتني.

– ليست المرة الأولى التي أُنقذك، فقد أنقذتك عندما كنتَ تملك جُزءًا ماديًا.

– هل أنت جدي؟ تبدو صغيرًا.

– كلنا أطفال في المملكة، ونحتاج لوقت طويل لنكبر، هيا لنعود يا أليكس.

أمسك الطفل الذي يكبر أليكس بضعف عمره، حبلاً لاماديًا طويلاً متدلٍ من الأعلى وأخذا يصعدان، تسلقا على الحبل، وعادا إلى المملكة... وقبل الدخول إلى القصر، كان هناك مجموعة جديد من الأطفال ينضمون إلى المملكة، كان منهم طفل يبدو أن له كرشًا رغم صغره، وآخر يكتب بقلم على أحد جدران القصر، وتُنادي عليه إحدى المعلمات وهي مبتسمة: «لا تكتب هنالك، وإلا عاقبتك»، فلا يستجيب ويبقي يكتب... وفتاة صغيرة بين حاجبيها نقطة حمراء وضعتها للزينة... وفتاة أخرى تُنسِّق ثيابها...

قال أليكس:

– انظر إلى هؤلاء الأطفال الجُدد يا جدي.

– نعم، أراهم. ما بهم؟

– فيهم شيء غريب، أشعر وكأن روحي تعرفهم.

شمس للنشر والإعلام

ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net